كتاب الجمهورية

محمد علي باشا
بدايات قاسية ومجد عظيم

نشأت الديهي



كتاب الجمهورية
أغسطس ٢٠٠٩
www.gombook.net.eg

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
على هاشم
E-mail:aly_hashem@gitc.com.eg



محمد علي باشا
بدايات قاسية ومجد عظيم

نشأت الديهى

دار
الجمهورية
للصحافة
١١١ ــ ١١٥ ش رمسيس
ت : ٢٥٧٨٣٣٣٣

إذا وجدت أى مشكلة
فى الحصول على
«كتاب الجمهورية»
وإذا كان لديك أى مقترحات أو
ملاحظات
فلا تتردد فى الاتصال على أرقام :
٢٥٧٨٣٣٣٣   ٢٥٧٨١٠١٠

http://www.eltahrir.net

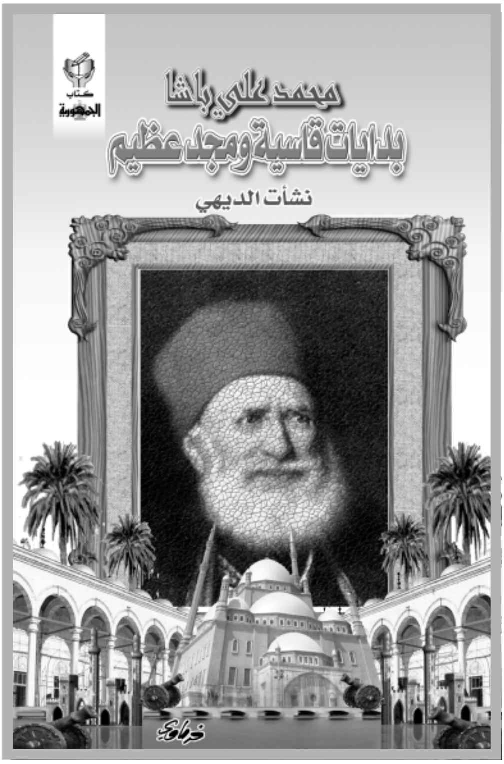
أغســطس ٢٠٠٩

أسعار البيع فى الخارج

سوريا	١٠٠ ل. س
لبنان	٤٠٠ ل. ل
الأردن	١,٥ دينار
الكويت	١ دينار
السعودية	١٠ ريال
البحرين	١ دينار
قطر	١٠ ريال
الإمارات	١٠ درهم
سلطنة عُمان	١ ريال
تونس	٢ دينار
المغرب	٣٠ درهم
اليمن	٣٠٠ ريال
فلسطين	٢ دولار
لندن	٢ جك
أمريكا	٥ دولار
استراليا	٥ دولار استرالى
سويسرا	٥ فرنك سويسرى

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية
٦٠ جنيهًا
الدول العربية ٣٠ دولارًا
أمريكيا
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا
٣٨ دولارا أمريكيًا
أمريكا وكندا
٤٥ دولارا أمريكيًا
باقى دول العالم
٥٨ دولارا أمريكيًا



تصميم الغلاف الفنان : سعيد فرماوى

سكرتير التحرير
ســيد عبد الحفيـظ

محمد علي باشا

بدايات قاسية ومجد عظيم

نشـــأت الديهـى

إهداء

إلـى الـذيـن يـشـكـكـون فـى
قـــدرات هذا الشــعب العظيم
أهدى إليهم هذه " اللقطة "
من سجلات التاريخ

نشأت الديهى

مقـــــدمة

لتاريخ الرجال فوائد عظيمة ومرام جليلة، وعِبَرٌ راسخة، ومن حسن طالعنا أن تاريخ مصر - فوق أنه عريق مشورف - يزخر بنماذج مضيئة نستطيع إذا ما استوحيناها، وأجدنا قراءتها واستحضرنا قيمتها، وبسطناها أمام أجيال اليوم، أن نستنهض فيهم همة عالية، وولاءً مخلصاً لهذا الوطن، وجذوةً وطنية تنزع عنهم كسلهم وعزوفهم عن المشاركة المجتمعية، فالقدوة «الوطنية» منارة تضىء للأجيال طريقاً إلى الفعل والانتماء للوطن..

ولدينا فى صفحات التاريخ المعلومة والمجهولة زعماء وقادة وعلماء ومفكرون، وفنانون ومبدعون أعطوا لبلدهم، وتفانوا فى إخلاصهم، فأنتجوا أعمالاً عبقرية، كانت ذات تأثير عميق، غيرت مجرى التاريخ ومساراته، وبوأت مصر مكانا سَميا.

هؤلاء الأفذاذ صنع بهم الوطن عظمته، وشيدت بهم مصر حضارتها، وحفظت لنفسها مكانا سامقاً لا يدانيها فيه منافس، ولاينكره إلا جاحد، وقد امتزجت عبقريتهم بعبقرية المكان، فالتاريخ والحضارة لايبنيهما إلا الجدة والابتكار، والعرق والدماء، والهمة والانطلاق، والفكر والاجتهاد، فحينئذٍ تتحقق الجودة والانتشار.. وكلها عوامل حازتها مصر، فتفوقت وتربعت على عرش الدنيا منذ القدم، وتلك الآثار من حولنا جعلها الله للعظة والعبرة، ودعانا للنظر إليها، وإمعان التدبر فيها والتفكر فى مناحيها لاستلهام روح العظمة، وتعلم الدروس المستفادة من الأولين، كيف بنوها وكيف صارت أثراً بعد عين، وتاريخاً بعد واقع ملموس؟!

فإذا ما نطقت - والحال هكذا - بعظمة هؤلاء البشر بما أعدوه لأنفسهم، فكيف بمن خلق هؤلاء البشر، وكيف بما أعده الله لعباده فى الآخرة؟!

تلك هى حكمة الضرورة من قراءة التاريخ.. أن يزداد يقيننا بقدرة الله، وأن تزداد

ثقتنا بما يمكن أن نقدمه لأنفسنا.

فإذا كانت تلك الآثار الهائلة شاهدة على عظمة مصر وعبقريتها- تاريخا وبشراً، فهى أيضاً ناظرة إلينا ولسان حالها يقول: هل أنتم جديرون بالانتساب لهؤلاء الخلف، وهل بينكم وبينهم نسب، هل منكم من يضيف إلى عزى وفخارى، ومجدى وازدهارى؟!

من هنا تنبثق أهمية ابتعاث نماذج «حية» من رحم التاريخ وتجارب مضيئة لزعماء وقادة ومفكرين وعلماء ندفع بهم فى وجه العولمة وتذويب الخصوصية، وتمييع الهوية، وتفتيت الولاء للقوميات والأوطان.. وأحسب أن هذا ما ابتغيته من كتابى هذا الذى هو ليس تاريخاً ولاتراجم ولا من كتب السير وإن حاول أن ينهج نهجها ويقتفى أثرها.. ويستلهم روحها ويصل إلى غاياتها جميعاً..

لاشك أن لمصر شخصيتها العبقرية المتفردة التى تعلو على ما سواها، عبقرية مكان إذا صادفتها عبقرية بشر أنتجت كياناً مدنياً وحضارياً متقدماً، هى فقط تحتاج مناخاً مواتياً وأرضاً خصبة لتتبت فيها مثل هذه النماذج الخلاقة.. من داخل هذا الشعب الثرى بعطائه وقدراته وإخلاصه ما نبضت فيه حياة..

أجل.. هو يحتاج فقط لمن يفسح له ويُجلِّى أمام ناظريه النموذج والعبرة والقدوة المثلى.. نقدمها إليه فى شكل محبب وأسلوب مقبول؛ حتى ندفعه إلى الفعل.. وننزعه من دائرة السلبية والكسل ورد الفعل التى هى آفتنا.. فنهضة مصر لن يبنيها إلا أبناؤها أصحاب المصلحة الحقيقيون.. وعلى هذه الأجيال أن تفهم أن عطاء مصر غير محدود، ومزاياها النسبية والتنافسية يمكن - إذا أُحِس توظيفها- أن ترقى إلى مصاف الدول المتقدمة.. فقط مطلوب منا أن نثق فى هذه الإمكانيات التى يحاول هذا الكتاب أن يجليها فى تجربة «محمد على» فى مصر وكيف تحول بها هذا الرجل الأمى إلى أمة متعلمة ودولة متقدمة ونحا بها منحى التقدم والتفوق والعظمة التاريخية..

لقد كانت بدايتى فى ابتعاث تلك النماذج الفريدة مع الزعيم خالد الذكر مصطفى كامل فى كتاب «شاب من مصر» الذى قال عن محمد على عام ١٩٠٥ احتفالاً بالعيد المئينى لتوليه حكم مصر ١٨٠٥: «هذه حياة «محمد على» لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد فى الحال والاستقبال، لنا أن نضربها مثلاً للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بمكان، وأنها تكون كذلك لو طرقوا أبواب

الاتحـاد والوئام وسلكوا مسـالك العـزم والإقـدام..» وهـو مـا لفت نظرى إلى تلك الشخصية المحورية الثرية.. ذات التأثير الهائل فى تاريخ مصر الحديث.

إن المقارنة بين أيامه وأيامنا وأعماله وأعمالنا واستنباط عِبَر التاريخ النافعة، وعظاته البالغة، وتمثيل الوطن فى مجده وعظمته وإظهاره للعيون والأبصار على حقيقة الحالة الحاضرة أسيفاً كئيباً حزيناً مرتدياً ثياب الحداد، باكياً على أيام كان فيها حامل الشرف والفخار بين الممالك والأقطار.. إن للمصرى أن يؤمل لبلاده مجداً كمجدها الماضى، وعزاً وسؤدداً وجلالاً، ولِمَ لا وحياة محمد على وأعماله كلها دروس ترشد المصريين إلى أن تاج المجد لايوضع إلا على رأس العامل المجد وأن رايات الفخار لا تنال إلا بالعمل والجهاد، وأن أمة فتحت البلاد والأمصار لقادرة على بلوغ غاية العز والرفاهية ونيل أسمى مايرام من الحضارة والعمران، كيف سار محمد على بمصر وكيف فتح بها وضرب وغلب وكيف ساد وكيف ملأ من جنودها الديار وأخضع لسلطانها البحار والأنهار، وكيف رفع ذكرها إلى أعلى المنار وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار، وكيف أبهج بهذا الثغر بتزاحم الجوارى فى ثغره وعمم المعامل والمصانع فى المدائن والقرى ونشر المدارس والمكاتب فى أنحاء البلاد وأخرج من أبنائها نجوم علم يهتدى بهم ولا يضل بنورهم.. كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظائم.. وكيف أباد المفسدين والظالمين وجمع القطر تحت لواء واحد وكان ألف قطر فى وطن واحد؟.. هل استعان بغير المصرى على تحقيق غاياته أم استعار أمة من حديد ورجالاً من صلب وأرواحا شبت بين الموت والنار حتى أوتى ذلك الجلال، ونال من العظمة ما نال..؟..

كلا! لم يصل إلى ذورة المعالى وأقصى غايات الرجال إلا بعقلك وبأسك أيها المصرى العزيز!! فسلاماً وألف سلام على هذا العزم المقبور وهذه الهمة المدفونة..

والذى نفسى بيده.. كأن الرجل بين ظهرانينا يحدثنا ونحدثه ويسمعنا ونسمعه.. فلتبق هذه الروح الحماسية وهذه الأخلاق العالية من خلال هذه الكلمات الرصينة التى مر عليها أكثر من قرن من الزمان.. إن الأمة- كل الأمة- حكاماً ومحكومين فى أمس الحاجة إلى هذه الروح الوثابة الخلاقة..

ثم إننى لم أسلط الأضواء على تلك الشخصية الفريدة التى اختلف معها وحولها الكثيرون كى أبرىء ساحته من فرية قديمة أو أضيف إليه أخرى جديدة، لم تكن لدى رغبة فى إثبات أو نفى واقعة أو حادثة من تلك الحوادث التى ثار حولها اللغط

واصطف المؤيدون لها والمعارضون.. لم يكن هذا مقصدى ولا دورى فى هذه الصفحات.. لقد سلطت الأضواء على عصر من الإنجازات العملاقة بقيت آثارها حتى لحظة كتابة هذه السطور شاهدة دون مجاملة على عظمة هذه الشخصية العظيمة وهذا العصر الذهبى..

إن كل ما يهمنا هو «التجربة» تجربة مشروع نهضوى «حداثى» عظيم شهدته مصر فى فترة تحول مهمة من تاريخها، مشروع شُيِّد على دعائم ومحاور أساسية، واستلهم رؤية إصلاحية شاملة لدى النخبة الحاكمة التى أجادت قراءة التاريخ من ناحية، وفهم الشخصية المصرية من ناحية أخرى وابتدأت نهضتها بالتعليم والبحث العلمى والبعثات الخارجية والخبرات الأجنبية وتدرجت بالبناء الاقتصادى من خلال مشروعات الرى والزراعة والنقل والصناعة والتجارة الداخلية، والخارجية، وأتبعت ذلك ببناء بناء جيش قوى وأسطول حربى، يتسم بالعصرية، ويقوم عليه قيادات لديها رؤى استراتيجية واضحة لمفهوم الأمن القومى المصرى: «لقد اختلفنا كثيراً فى قراءتنا للماضى.. اختلفنا حول الوقائع والشخوص، فهناك من يتناول شخصية هذا الرجل على أنه تفلت من عصر الصحابة والخلفاء الراشدين، ويشدد على ضرورة تناول شخصيته بالتقديس والمهابة اللائقين بهذا الصحابى الجليل والحبر الأعظم، بينما يقف على الطرف الآخر من النهر من يعتبر الرجل شيطاناً رجيماً يجب رميه بالجمرات، آناء الليل وأطراف النهار، وفى كل المناسبات الدينية والوطنية.. ونحن أبداً لن ننحاز لأحد الفريقين اللذين ابتعدا طواعية عن جادة الصواب.. إننى لن أترك نفسى تسير فى مناطق رخوة، ومسالك شتى تبتعد كثيراً عن مقصد الفكرة الأساسية لها الكتاب وهى تقديم «القدوة» و«التجربة» كـ«لبنة» أولى فى بناء مشروع «استنهاض الهمم».

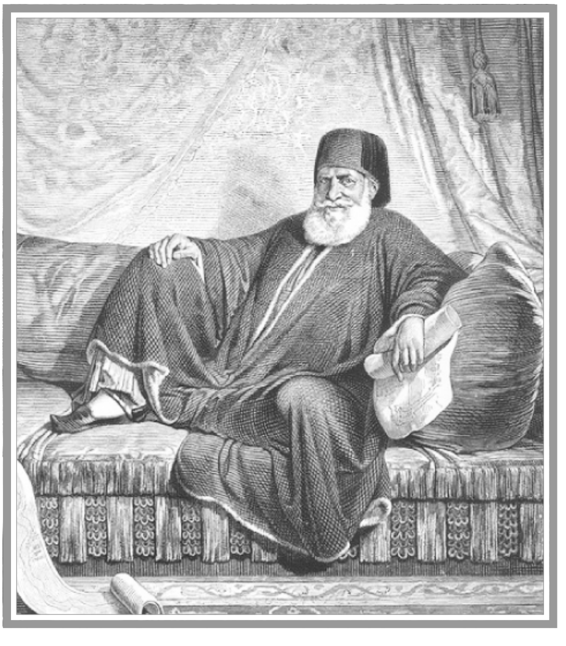
والله من وراء القصد

نشأت الديهى

القاهرة - ٢٠٠٩



الفصل الأول



بدايات قاسية



قامة قصيرة.. بنية قوية.. عيون زرقاء.. نظرات حادة.. ذلك هو الصبى اليتيم " محمد على " الذى ولد عام ١٧٦٩ م فى تلك المنطقة الجبلية ذات الطبع الحاد.. مدينة «قولة» إحدى موانى مقدونيا باليونان، وهو تركى عثمانى الأصل والجذور، كان هوالوحيد الذى بقى على قيد الحياة، من بين سبعة عشر شقيقاً، ماتوا جميعا وهم فى عمر الزهور، مات أبوه " إبراهيم أغا " ثم لحقت به أمه " زينب " وأصبح " محمد على " يتيم الأبوين وهو ابن الرابعة عشرة من عمره، فكفله عمه طوسون حتى مات هو الآخر..هكذا مات الأشقاء.. مات الأب.. ماتت الأم.. مات العم وبقى " محمد على " وحيداً، يستظل بشجرة البؤس تتساقط عليه ثمار الفقر والحرمان من كل مكان.. تلك هى خصائص " التربة " التى ألقيت فيها تلك " النبتة ".

كانت تربة قاحلة جافة متشققة، تنتشر فيها الحشرات الضارة والزواحف السامة وعندما ألقيت هذه النبتة لم يكن هناك من يتولاها برعايته فارتوت من معين الحرمان ونمت على مقاومة العواصف والأنواء..

لقد كانت القسوة عنواناً بارزاً لبدايات " محمد على " قسوة الطبيعة.. قسوة المجتمع.. قسوة الظروف، ولكن " جزى الله الشدائد كل خير " فالقسوة كانت باباً للصبر والجلد وقوة التحمل والشجاعة والإقدام، ولقد صبغت تلك المعانى شخصية هذا الرجل، وباتت جزءاً لا يتجزأ منها.

يقول محمد على عن طفولته " ولد لأبى سبعة عشر ولداً، لم يعش منهم سواى، فكان يحبنى كثيراً، ولا تغفل عينه عن حراستى كيفما توجهت، ثم توفاه الله، فأصبحت يتيماً قاصراً، وأبدل عزى ذلاً، وكثيراً ما كنت أسمع

عشرائى يكررون هذه العبارة التى لا أنساها عمرى وهى: «ماذا عسى يكون مصير هذا الولد التعيس بعد أن فقد والديه؟» فكنت إذا سمعتهم يقولون ذلك أتغافل عنه، ولكننى أشعر بإحساس غريب، يحركنى إلى النهوض من تحت هذا الذل، فكنت أجهد نفسى بكل عمل أستطيع معاطاته بهمة غريبة؛ حتى كاد يمر علىَّ - أحياناً - يومان لا آكل ولا أنام إلا شيئاً يسيراً. ومن جملة ما قاسيته أنى كنت مسافراً مرة فى مركب فتعاظم النوء حتى كسره، وكنت صغيراً، فتركنى رفاقى وطلعوا إلى جزيرة هناك على قارب كان معنا، أما أنا فجعلت أجاهد نفسى فى الماء وسعى، تتقاذفنى الأمواج، وتستقبلنى الصخور، حتى تهشمت يداى، وكانت لا تزالان يانعتين، ومازلت حتى أراد الله ووصلت الجزيرة سالماً، وقد أصبحت هذه الجزيرة قسماً من مملكتى الآن" هذا جزء مما ذكره جورجى زيدان عام ١٨٩٣ فى مجلة الهلال بعد مرور أربعة عقود من رحيل " محمد على "

أمية وحرمان

كان حرمان " محمد على " من التعليم هو ثمرة هذه الظروف شديدة القسوة.. كانت نظراته الحزينة إلى أقرانه وهم يلبسون زى المدرسة، ويحملون دفاترهم المدرسية فى مرح وسرور، كان يجلس على قارعة الطريق منذ الصباح الباكر واضعا يده على خده يتذكر أسرته التى رحلت.. أمه الحبيبة زينب وأباه الحنون إبراهيم، تفر من عينه دمعة وتخرج من حلقه شهقة وزفرة وسرعان ما يتماسك ويعتدل واقفا شامخا خاصة عندما يرمق أقرانه الصبية وهم فى الطريق إلى مدارسهم، كان يتظاهر أمامهم أنه سعيد بهذه الحياة اللاهية بعيداً عن قيود المدرسة وقسوة المعلمين ناهيك عن أعباء الواجبات المدرسية التى لا تنتهى، وبينما كان أقرانه يتلقون دروس العلم والتربية فى فصولهم كان صاحبنا يتجول بين السهول والجبال تارة يطارد الحيوانات البرية الجبلية محاولا اصطيادها والإيقاع بها، وتارة أخرى تجده على شاطئ البحر يلاطم الأمواج ويصارعها، وعندما يخرج أقرانه من المدرسة يكون فى انتظارهم لتبدأ فصول جديدة فى مدرسة الحياة حيث يكون " محمد على " هوالمعلم الوحيد فيها، كانت الألعاب التى يلعبها " محمد على " ويفرضها على أقرانه عنيفة وصعبة لكنه كان يتفوق عليهم جميعا فهو ابن الجبال والبحار

والطبيعة القاسية لم يكن صعباً أن يصبح هذا الفتى " زعيماً " لأقرانه فقوته البدنية وذكاؤه الفطرى مكناه من تلك الزعامة المبكرة التى نقشت على قلبه وعقله أنه زعيم وقائد.. أروى هنا ثلاث وقائع حدثت فى هذه السن المبكرة كان لها من التأثير الشديد على شخصية هذا الرجل.

سباق الموت

الأولى قام محمد على وأقرانه بتنظيم مسابقة للتجديف والسباحة فى البحر الكبير الذى تطل عليه مدينتهم، وكان الاتفاق أن يبدأ الجميع من نقطة البداية قبالة البلدة، ويتجه السباق إلى إحدى الجذر البعيدة ومن يصل إلى تلك الجزيرة أولا ثم يعود إلى البلدة مبكراً يكون هو الذى كسب السباق ومن ثم تكون الزعامة له دون منازع وبعد أن تحرك السباق هبت ريح عاصف فهاج البحر وارتفعت الأمواج وساد الذعر وانتفضت القلوب، كانت هذه الظروف كافية لينفض السباق.. وبالفعل بدأ الصبية والغلمان فى العودة سريعا إلى بلدتهم وذويهم فاليوم موت لا سباق كل الأولاد انسحبوا من السباق ورجعوا إلى شاطئ بلدتهم إلا " محمد على " ذلك المجنون الذى يهوى منازلة الصعاب، لقد رفض بشدة أن يتراجع ويعود القهقرى، بل استمر رغم تحذير الجميع وأوغل فى وسط الأمواج واختفى عن الأنظار تماما، بيد أن الفتى ذهب، ولم يعد حتى أيقن الجميع أنه كان وجبة دسمة لأسماك القرش المنتشرة فى هذه المنطقة! وبعد ساعات بدأ يظهر فى الأفق وعلى مرمى البصر شخص يصارع الأمواج التى كانت تعامله بقسوة وعنف لكنه فيما يبدو قد صرعها وها هو قد وصل إلى شاطئ البلدة منهك القوى، وقد دميت يداه من عنف التجديف وملوحة المياه لكنه لم يهتم بتلك الصعاب.. كان ينظر اليها فى سخرية واستهزاء، كان هدفه واضحا وغايته أكثر وضوحا.. الوصول إلى الجزيرة المحددة قبل الجميع مهما كانت التحديات.. مهما كانت الصعاب.. مهما كانت الأصوات المعارضة التى حاولت إثناءه عن إكمال الرحلة..

الجندية

بدأ اسم " محمد على " يلمع وينتشر كأحد الأبطال بين أقرانه وزملائه، ومع بلوغه سن المراهقة أصبح الصغار يتناقلون قصصه وحكاياته ونوادره

بدهشة وإعجاب، كان يتعامل مع أقرانه بعنف وعناد، كان ينتظر منهم تنفيذ تعليماته دون مناقشة فما بالنا لو خالفه أحد فى الرأى.. كان الصدام مع من يخالفه الرأى ينتهى دائما بشكوى إلى الحاكم الذى هو فى نفس الوقت ولى لأمر" محمد على" بيد أن الخلافات التى كانت تعرض على حاكم المدينة وكان" محمد على " طرفا فيها زادت بشكل مزعج وخلفت وراءها الكثير من المشاكل والأزمات مما دفع الحاكم إلى التفكير الجدى فى مستقبل هذا الفتى كثير المشاكل، وضرورة توجيه طاقته الهائلة إلى عمل جاد ومفيد.. وكان الحل الوحيد الذى يحقق كل هذا هو" الجندية " هكذا وضع الحاكم يده على الحل السحرى.. وكان لابد أن يلتحق " محمد على " بالجندية حيث الضبط والربط والالتزام والطاعة وتربية النفس، وأخيرا أخذت تلك الطاقة الهائلة طريقها الصحيح، لتوضع فيما يليق بها؛ حيث تطبيق القانون على الجميع وانتزاع الحق لأصحابه ونصرة المظلوم وحماية الضعفاء ومحاربة الخارجين على القانون.. كان الأهالى يميلون إلى العراك واستخدام القوة فالمنطقة جبلية وعرة يغلبها ويغلب أهلها تلك الطباع الحادة، فكانت المشاكل كثيرة ومتشعبة ومتجددة، ذاع صيت " محمد على " بين أهالى قولة وفى جميع المدن والقرى المجاورة.. الجميع ينظر إلى شجاعته وجرأته باحترام واعجاب وإعجاب، وهنا تأتى الواقعة الثانية التى أردت أن أذكرها لأنها تساعد مع سابقتها ولاحقتها فى رسم الصورة وتكوين ملامح هذه الشخصية الفريدة.

رهائن برواسطا

كان " محمد على " يجلس مع حاكم قولة، يطلعه على بعض الأمور الخاصة بالأمن، وكيفية تأمين حركة التجار بين قولة والمناطق المجاورة.. لكن، على غير العادة، لاحظ " محمد على " أن الرجل كان مهموما وشارد الذهن فلم يتردد فى سؤاله عما به من هموم وبعد إلحاح أفصح الرجل أنه فى مازق خطير قد يكلفه منصبه وحياته لقد رفض أهالى مدينة " برواسطا " المجاورة دفع ما عليهم من ضرائب وفشلت معهم كل الوسائل وإذا لم يقوموا بسداد ما عليهم من ضرائب سيناله أشد العقاب من الحاكم العام للمقاطعة، وهذا العقاب هو النفى إلى أعماق آسيا الوسطى ودون تفكير انتفض محمد على واقفا وقال للحاكم: لا عليك ياسيدى لا

تكن مهتما ولا تشغل تفكيرك بهذه الصغائر ستأتى إليك أموال الضرائب هنا دون أن تنتقل أنت إلى " برواسطا " خلال ساعات من الآن.. فقط أريد عشرة جنود مسلحين.. وفى اليوم التالى لهذا اللقاء كان " محمد على " يؤدى صلاة الجمعة مع أهالى " برواسطا " فى مسجدهم الكبير وما إن انتهت الصلاة حتى وقف وسط المسجد وطلب من أعيان المدينة أن يتبعوه إلى خارج المسجد، كانت الطريقة التى تحدث بها خالية من اللياقة واللباقة لكن أحدا لم يفكر فى الاعتراض عليه فهو يمثل السلطة من ناحية علاوة على سمعته وشهرته فى العنف والشراسة لكل ذلك بدت جرأته غير مستغربة، فخرج الأعيان من باحة المسجد فوجدوا أنفسهم محاصرين بهؤلاء الجنود الأشداء، وبسرعة البرق طوق هؤلاء الجنود المدربون أولئك الأعيان ووضعوا نصال خناجرهم الحادة السامة على رقابهم وساد الصمت وعم الرعب وهنا تقدم " محمد على" وبصوت جهورى غاضب قال: يا أهل بروسطا اسمعوا وافهموا ما سيقوله " محمد على " حيث إنه لن يكررها ثانية : أمامكم فرصة إلى ما قبل صلاة ظهر الغد لتسددوا كل ماعليكم من ضرائب ومستحقات وتسلموها بأنفسكم إلى حاكم قولة فى منزله قبل صلاة الظهر.. أكرر قبل صلاة الظهر وإلا سأقطف رقاب هذه يا أهل الأعيان.. وسيبقى هؤلاء رهينة لحين تنفيذ المطلوب.. انتهى وانطلق " محمد على " بصحبة الجنود والرهائن كان الجميع على يقين بأن التهديدات التى ألقاها محمد على جادة ولا تقبل التأويل؛ ومن ثم لابد من طاعة الأوامر، وقبل أن يحل الموعد الذى ضربه محمد على كانت جميع المبالغ المطلوبة قد سددت بالفعل، وتسلمها الحاكم فى منزله كما وعده " محمد على " الذى كان لا يستخدم لفظة " أنا " على الإطلاق، بل كان يقول " محمد على " وكان على شراسته وعنفوانه ودوداً مجاملاً مهذباً لا يستخدم ألفاظاً نابية وخارجة عن نطاق اللياقة، ولا يسمح لأحد بأن يستخدمها فى وجوده؛ هكذا أخذت شخصية محمد على تظهر وتفرض نفسها وتؤثر فى كل من يتعامل معها، وحين ترقى فى سلم الجندية وصار رئيسا لمجموعة من الجند أبلى بلاءً حسنا، وأبدع فى أداء مهامه، وحافظ على الأمن بكل السبل ودائما ما كان يلمح نظرات الإعجاب فى عيون الجميع، كانت هذه

النظرات تشبع رغبات " محمد على " وتدفعه إلى القيام بمزيد من الأعمال والأفعال التى تنتزع مزيداً من الإعجاب، وتخفق لها قلوب العامة..

رحلة الزواج وتجارة التبغ

أراد حاكم قولة أن يزوج محمد على من إحدى السيدات الثريات من قرية "نصرتلى " المجاورة لقولة كانت تلك السيدة هى " أمينة " ابنة على أغا شاهر الذى توفى مخلفاً وراءه ثروة طائلة ورثتها أمينة، وقد نجح حاكم قولة فى إقناع محمد على بهذه الزيجة وخلال فترة وجيزة تم الزواج وانتقل " محمد على " للإقامة فى " نصرتلى " مقر إقامة أمينة زوجته ولأول مرة يغادر مدينة " قولة " مسقط رأسه ومستودع ذكرياته الجميلة، ومن " نصرتلى " بدأ محمد على رحلته مع تجارة التبغ من خلال صديق فرنسى، وأصبح كثير الترحال والتنقل بين مدن المنطقة والمناطق المجاورة لإدارة تجارته التى درت عليه أموالا طائلة، لكنه لم يستطع نسيان قولة؛ إذ كان يداوم على زيارة حاكمها ويطل على أصدقائه وأقرانه فيجلسون يتسامرون ويستعرضون شريط الذكريات.. ذكريات الطفولة والصبا.

جريمة وبطولة

وفى إحدى زياراته لـ«قولة» حكى له أصدقاؤه تفاصيل أبشع جريمة قتل شهدتها تلك المدينة فى تاريخها لكن القاتل المجرم لجأ إلى بيت الحاكم مستجيراً، وللأسف الشديد أجاره الرجل فى تحد سافر لمشاعر الأهالى.. وكان أصدقاء " محمد على " لا يقصدون تسليته بتلك الرواية ولا استثارة مشاعره، فقط أراد هؤلاء أن يقوم صاحبهم برد الحقوق لأصحابها بما لديه من قوة وشجاعة ونفوذ، بالفعل كان الرفاق محقين فى مسعاهم فما إن سمع صاحبنا القصة وتأكد من صحتها حتى انتفض دون تفكير يتبعه رفاقه وأصدقاؤه قاصدا بيت الحاكم ودون استئذان اقتحم البيت وانتزع ذلك القاتل المجرم من بين حراس الحاكم، وخرج به إلى الشارع وعلى أول شجرة قابلته قام بشنقه على مرأى ومسمع الجميع.. أصبح " محمد على " بطلاً لدى الجميع لقد وصل الإعجاب

بأفعاله وتصرفاته إلى أقصى مدى، أصبح الرجل حديث الرأى العام، لكن الواقعة كانت صادمة لحاكم الإقليم إلى أقصى درجة.. أهذا هو " محمد على " الذى قمت بتربيته وولاية أمره حتى زوَّجته.. أهكذا يرد لى الجميل بأن يضعنى فى هذا الموقف غير المسبوق.. لقد استباح بيت الحكم وخطف رجلا استجار بى فأجرته.. لقد أخطأ خطأ لا غفران له، لكن ماذا عساى أن أفعل مع شاب متهور لا يعرف ولا يفهم إلا لغة القوة؟!.

سباق الموت

أحسب أن قراءة تلك الوقائع الثلاث قراءة تحليلية متأنية ستصل بنا حتماً إلى سبر وأغوار ومعرفة أطوار تلك الشخصية؛ إذ كانت واقعة " سباق الموت" تبدو وكأنها " لعب عيال " بينما بدت واقعة " رهائن برواسطا " وكأنها" تصرفات مراهقين" لكن الشىء المؤكد أن واقعة " الشنق " لا يمكن أن تبدو إلا " أعمالاً بطولية " .

ثمة خيط رفيع يجمع هذه الروايات الثلاث، هذا الخيط يبرق ويأخذ بالأبصار والألباب؛ لكن هذا الخيط له مسميات عديدة بمفردات متعددة هى الجرأة و المغامرة فالمخاطرة، إذ خاض وهو لايزال طفلا سباق الموت فنظر إليه الناظرون على أنه طفل مغامر، وهوشاب يهدد بلدة بأسرها ويتخذ وجهاءها رهائن فيصفه الواصفون بأنه شاب جرئ، بينما وهو رجل يقوم بشنق أحد المجرمين بيده بعدما انتزعه من بيت الحاكم فيتفق الجميع على أنه رجل شجاع وبطل مقدام إننى انظر إلى هذه الوقائع على أنها كلُ لا يتجزأ، فلو لم يكمل " محمد على " سباق الموت ما تجرأ على أهل برواسطا ولو لم يفعل الأخيرة ما تشجع وشنق المجرم أمام الناس، ومن ثم فالوقوف على الظروف القاسية التى عاشها الرجل فى بداياته الأولى والقراءة الدقيقة لتلك الوقائع التى حدثت فى سنوات الطفولة والشباب تساعدنا فى تفسير العديد من التصرفات والسلوكيات والوقائع التى قام بها الرجل فيما بعد، إنها توضح لنا بجلاء كيف ولماذا يتصرف الرجل وهو يقسو على أبنائه ويوردهم المهالك دون أن تهتز له شعرة، كيف كانت مشاعره باردة وهو يحصد أعناق المماليك فى حفل العشاء

الذى تحول إلى سرادق للعزاء فى أكبر حملة تصفية جسدية للصراع على السلطة يشهدها التاريخ الحديث، إن من يدرس تاريخ الرجل.. طفولته وصباه وشبابه ويقوم بتحليل كل التصرفات والسلوكيات والوقائع فلابد أن يصل إلى الإجابة عن السؤال الصعب " كيف يفكر محمد على؟ "

بين أحضان فرنسية

فى عام ١٧٩٨ قام الجنرال الفرنسى الأشهر نابليون بونابرت بغزو مصر، تلك الولاية العثمانية المهمة التى تمثل شرف التاج العثمانى والخلافة الإسلامية التركية، كان هذا الغزو بمثابة لطمة جديدة على وجه الدولة العثمانية التى عرفت فى هذا الوقت بالرجل المرى.

كانت الأحوال الداخلية لدولة الخلافة العثمانية غير مهيأة للدخول فى حرب مع فرنسا، وكان السلطان سليم يخطط لنهضة عثمانية شاملة فى الجيش والاقتصاد ونظام الحكم، وكان يرى أن الدخول فى حرب مع فرنسا ستؤجل حتما كل هذه الخطط الإصلاحية، لكن الضغوط على السلطان كانت أقوى من أن تحتمل، كان العالم العربى والإسلامى يغلى ويتساءل لماذا تقاعس الخليفة العثمانى عن مقاومة الفرنسيين؟ أَمِنْ أجل او مرأة فرنسية يعشقها يضحى بأرض النيل؟!

كانت الأقاويل والإشاعات تنتشر حول أسباب تقاعس السلطان.. وكان السلطان سليم قد وقع فى عشق فاتنة فرنسية تدعى " إيميه " كان قد أهداها حاكم الجزائر إلى عمه السلطان عبدالحميد، وقد انتشرت الشائعات والتأويلات بأن السلطان لا يريد أن يغضب تلك الفاتنة بالدخول فى حرب مع فرنسا، لكن الحقيقة أن الرجل كان يحمل أجندة إصلاحية شاملة، جعلته يتردد كثيرا فى الدخول فى حرب مع فرنسا، لكنه أمام ضغوط العالمين العربى والإسلامى، اعترضت امرأة تركية عجوز موكب السلطان العثمانى أثناء سيره فى مدينة اسطنبول وقالت له " ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين لإنقاذ إخواننا المسلمين فى مصر "؛ فصدر فرمان السلطان العثمانى، ونادى بالجهاد لتخليص مصر من يد الفرنسيين، وبدأ تجهيز القوات اللازمة من جميع أنحاء الإمبراطورية

العثمانية المترامية الأطراف، وكانت قولة من بين مدن وولايات الخلافة العثمانية التى يجب أن ترسل من الجند والضباط ما يليق بالدفاع عن مصر العروبة والإسلام.

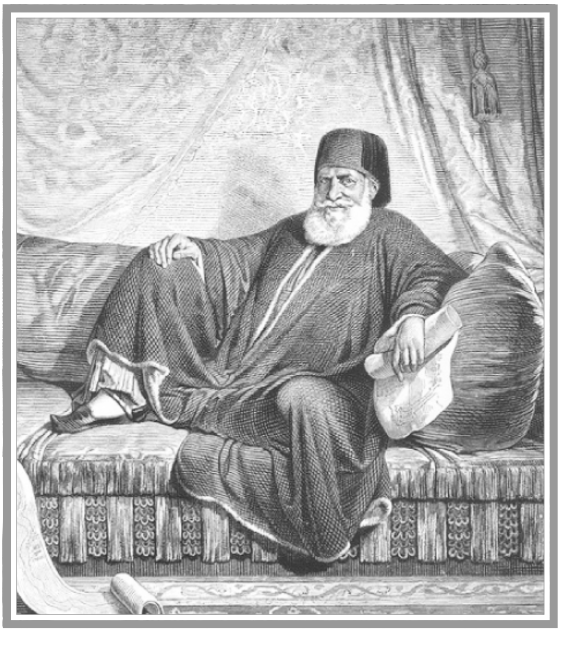
عودة للجندية عبر مصر

فى هذه الأثناء كان لدى "محمد على " خمسة أطفال، بنتان وثلاثة أولاد هم " إبراهيم " و" إسماعيل " و" طوسون " وكان قد استقر بنصرتلى وركز كثيراً فى تجارة التبغ، بيد أن نداء الواجب لا يحتاج إلى تفكير، خاصة مع شخصية تهوى الصعاب وتتسم بالجرأة والشجاعة والإقدام، كان نداء الجهاد والواجب الذى أطلقه السلطان سليم خليفة المسلمين وأمير المؤمنين بمثابة خطة عمل سريعة وعاجلة كان اسم " محمد على " ذلك الجندى المشهود له بالكفاءة قد وقع عليه الاختيار ليكون نائباً لقائد فرقة ألبانية " أرناؤوط" تنضم للجيش العثمانى المتجه لتخليص مصر من أيدى الفرنسيين، كان محمد على يعيش لحظات فارقة فى حياته فبين أحلامه وطموحاته كمقاتل شرس يحلم بتحقيق بطولات وانتصارات ليذيع اسمه وينتشر صيته وبين «أمينة» زوجته الرقيقة الجميلة وأبنائه وبناته الخمس كان الصراع النفسى على أشده لكن أمينة حسمت ذلك الصراع المرير وقالت لزوجها - حسب ما أوردته نيفين يسرى فى كتابها قسمة -:

" هذه قسمتكم يا عزيزى، الله يحفظكم ويرعاكم، ويعيدكم إلينا سالما غانما، عندما تنتهى مهمتكم.. مع السلامة.. لا إله إلا الله.. محمد رسول الله " وسلم على أبنائه وقبَّل بناته، وأوصى إبراهيم بأمه وإخوته خيراً، وامتطى حصانه، وانطلق فى ثبات وجلد دون أن يلقى نظرة خلفه.



الفصل الثاني



على شواطئ أبي قير



كان " محمد على " فى الثلاثين من عمره أو يزيد قليلاً يوم وصل إلى أرض مصر، فما بين ميلاده فى عام ١٧٦٩ م، وقدومه إلى مصر عام ١٨٠٠ ثلاثة عقود هى كل حياته التى عاشها بين «قولة» و«نصرتلى» جاء " محمد على " تاركا خلفه " وطناً " " وأسرة "" وذكريات"..

كانت نظراته حادة وهو يحلق فى المجهول!! كان يحلق ببصره فى الفضاء، وكأنه يبحث عن شىء لا يراه الآخرون!!

ترى.. فى هذه اللحظات.. فيم كان يفكر " محمد على "؟ ما غاية طموحاته من وراء رحلته إلى أرض الحضارات؟ ماذا كان يدور فى رأسه وقتها؟ لا أحد يعلم على وجه اليقين!!

هل كان الرجل يحلم بأن يصل به قطار الحلم والطموح إلى محطة حكم مصر؟ هل كان يمكن أن يصل به قطار طموحه إلى حكم الحجاز والشام والسودان وأجزاء من أوروبا؟

نحن الآن على سواحل أبى قير شرق مدينة الإسكندرية التى بناها الإسكندر المقدونى والذى يعتبره " محمد على " مثله الأعلى.. " محمد على " ابن الثلاثين ربيعاً علم للتو أن قائد القوات الفرنسية الجنرال نابليون بونابرت ولد فى العام نفسه الذى ولد هو فيه، لكن بونابرت الآن أصبح قائداً لأعظم جيوش أوروبا، ولم يقف طموحه عند حدود قيادته للقوات الفرنسية فحسب، بل تحرك نحو السياسة ودهاليزها.. لقد جاء إلى مصر ليصنع أمجاداً وبطولات.. بيد أنه قد ضل الطريق وتراجع أمام نسور الشرق الجارحة، لكن الرجل لم يخرج من هذه الحملة خالى الوفاض، لقد اكتسب

خبرات سياسية عديدة، لقد غاص فى أعماق المجتمع المصرى وخرج مفعماً بانطباعات وقراءات غاية فى الأهمية.. تعلم كيف تفكر الشعوب، أرسل نابليون برسالة إلى حكومة فرنسا يصف فيها الشعب المصرى قال فيها: " هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التى أخذناها عنها من رحّالاتنا، إنها أمة هادئة باسلة معتزة بنفسها.. إن فى الشعب رباطة جأش مدهشة فلا شىء يهزهم وليس الموت عندهم أكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الإنجليزى، أما طلعتهم فمهيبة، وسحنهم حتى أقواها وأبرزها ملامح تبدو كوجوه الأطفال إذا قيسوت بسحونهم " ويلخص انطباعه العام عن مصر بقوله " من الصعب أن يجد الإنسان بلداً أكثر غنى وشعباً أشد بؤساً وجهلاً وضراوة " .

ترى ماذا لو اطلع «محمد على» على هذه الرسائل التى تلخص المسألة المصرية وتشرح الشخصية المصرية؟ هل كان سيغير من أمره شيئاً؟

كان " محمد على " ما زال مجرد قائد فى فرقة ضمن فرق عديدة يتألف منها الجيش العثمانى!! فلم تحن فرصته لتعاطى السياسة بعد لكن.. حيثما وجدت العزيمة وجدت الوسيلة.. هذا ما آمن به " محمد على " إذن لاسبيل إلا العمل ثم العمل..

وأبداً لن نعدم الوسيلة طالما بقيت العزيمة، كانت معركة أبى قير بين القوات العثمانية الإنجليزية المشتركة من ناحية والقوات الفرنسية بقيادة بونابرت هى المعركة التى لمع فيها نجم محمد على كمقاتل شرس يتميز بالشجاعة والجرأة والإقدام، حول هذه المعركة ودور محمد على فيها يقول المؤرخ كريستوفر هيرولد فى كتابه بونابرت فى مصر: " تحركت القوات العثمانية إلى أبى قير ورست خمس بوارج تركية وثلاث فرقاطات وخمسون ناقلة أمام خليج أبى قير وبدأت تنزل جنودها على الساحل، وكان يرافقها عدة مراكب بريطانية يقودها "سدنى سميث" واقتحم الترك معقلا فرنسيا إلى الشرق من أبى قير وذبحوا المدافعين عنه وعددهم ٣٠٠ فرنسى وفرضوا الحصار على الحصن الواقع فى قمة شبه الجزيرة، ولم يكن يدافع عنه غير ٣٥ من الفرنسيين، ونصبوا معسكرهم هناك، وبعد ثلاثة أيام سلمت حامية الحصن بعد أن انتظرت عبثاً وصول الجنرال مارمون بالمدد من الإسكندرية،

ولكن الترك حتى بعد هذا لم يتخذوا خطوة أخرى، بل اكتفوا بالتحصن هناك، أما ما كان قائدهم مصطفى باشا ـ صارى عسكر الرميلة وهو رجل أبيض اللحية وقور ـ ينوى عمله بهذا فلا يزال سراً، فالمركز الذى اختاره قوى ولكن قصارى ما يستطيع أن يصنعه فيه هو أن يطرد منه أو يجوع، وبينما كان الترك على هذه الحالة تحرك الفرنسيون.

ففى ٢٤ يوليو ١٧٩٩، أى بعد أن تلقى بونابرت نبأ نزول الترك بتسعة أيام كان قد حشد ما يقرب من عشرة آلاف جندى فرنسى قرب أبى قير، ومع أن فرقة كليبر لم تكن قد وصلت نقطة الملتقى فإن بونابرت أصدر الأمر بالهجوم فى صباح الغد، وقد يبدو هذا تهورا أو مغالاة فى الجرأة فى نظر من يصدقون الأرقام التى ذكرها بونابرت بعد ذلك تقديرا لقوة الجيش التركى، ولكنه يبدو أمراً عادياً جداً إذا أدركنا أن عدد الترك كان فى الواقع مساوياً لعدد الفرنسيين إن لم يكن أقل وإن الترك لم يكن لديهم خيالة فى حين كان لدى بونابرت ألف منهم، وفى الليل دعا بونابرت الجنرال مورا قائد الخيالة لخيمته وبعد أن ناقش معه خطة الهجوم قال: " هذه المعركة ستقرر مصير العالم " ولم يكن هذا ما يضمره بونابرت فقد كان يفكر فى فرنسا، وقد بدأ يعتبر مستقبله وتاريخ العالم شيئاً واحداً وبدأ الفرنسيون هجومهم فى الصباح الباكر وكان مركز الترك قوياً، فهناك ثلاثة خطوط دفاع متعاقبة تقطع عنق شبه جزيرة أبى قير، ولا تسمح إلا بهجوم أمامى مباشر، وهناك التأييد القوى الذى يأتيهم من الزوارق الحربية أمام الساحل ولكن المركز كان فى الوقت ذاته محفوفاً بالخطر لأنه لم يدع للترك مجالاً للتقهقر إلا إلى الحصن الصغير القائم على رأس شبه الجزيرة أو إلى البحر والفضل الأكبر فى انتصار بونابرت راجع لعنف هجومه الذى أكره الترك على الارتداد رغم أن مقاومتهم كانت غاية فى البسالة، وأتت الحظة الفاصلة عقب الظهر بقليل حين هجمت خيالة مورا بسرعة وقوة أوصلتها إلى الحصن فى دقائق معدودة، بينما كانت كتيبتا المشاة اللتان يقودهما لا تزالان تزحزحان الترك من معقلهم الرئيسى، وهنا أخذت المعركة تتحول إلى مذبحة وأفلح بضعة آلاف من الترك فى الوصول إلى الحصن وقتل نحو ألفين بالسيوف والسناكى، وحاول ضعف هذا العدد على الأقل السباحة إلى سفنهم فغرقوا

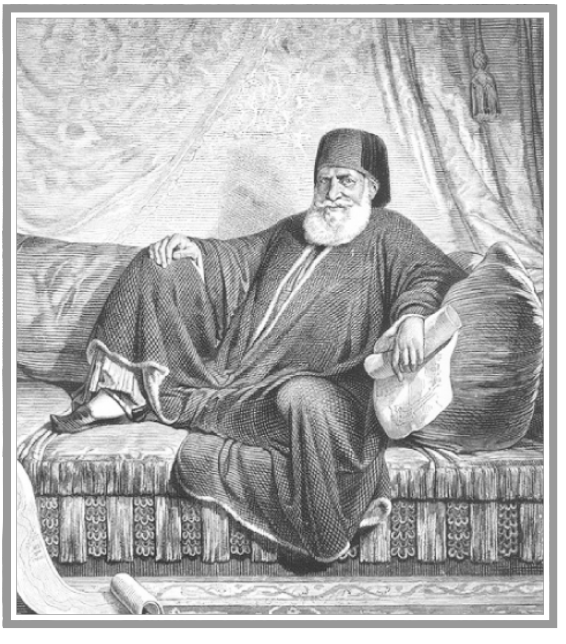
أو رموا بالرصاص من الشاطئ، ومن القلائل الذين أفلحوا فى الوصول إلى سفنهم ضابط شاب شديد المراس هو " محمد على "، حيث كان محمد على نائباً لقائد الفرقة الألبانية داخل الجيش العثمانى وأثناء سير المعارك أبلى " محمد على " بلاءً حسناً، وأدهش كبار القادة العثمانيين لمهاراته القتالية ورؤيته العسكرية الفذة ناهيك عن بسالته وشجاعته وروح المبادرة التى يتحلى بها فى أشد المواقف..وتنتهى المعركة لصالح الفرنسيين، وفر الأتراك من أرض المعركة.. مخلفين وراءهم كثيراً من القتلى والأسرى.. ناهيك عن هزيمة لن يمحوها الزمن!!

شهد محمد على العديد من المعارك بين القوات العثمانية والقوات الفرنسية، وخلال عامين من وصوله إلى أرض مصر رقى حتى أصبح قائدا لأقوى فرقة محاربة فى مصر وهى الفرقة الألبانية التى كان قوامها أربعة آلاف مقاتل من أشرس المقاتلين، وبهذه الترقية أصبح " محمد على " جزءا من معادلة القوى داخل مصر، أصبح الرجل محورا للتحالفات السياسية والعسكرية، أربعة آلاف جندى ألبانى يأتمرون بأوامره، وهو القائد المحنك الذى تلقى أعظم الدروس فى مدرسة الحياة.

لكن وحتى هذه اللحظة لم يتحول محمد على إلى رجل سياسة يحيك المؤامرات وتحاك ضده المؤامرات.



الفصل الثالث



زعامات ومؤامرات



كانت الحملة الفرنسية على مصر بمثابة " ومضة بارقة " أخذت بالعقول وخلبت الإبصار، وحركت ما كان ساكناً، وهجاً يشتعل.. سكوناً يتبدد.. صمتاً يتمزق.. وانطلقت الصرخات بلا توقف، كانت الحملة الفرنسية وكأنها نطفة محرمة وضعت عنوة واغتصاباً فى رحم يتوق إلى الحمل والولادة..

وكانت فترة المخاض عصيبة إلى أقصى درجة، وهناك من يتربص بالمولود الجديد.. وعلى أحر من الجمر ينتظر الجميع تلك اللحظة التاريخية التى ينسب إليه ذلك المولود الجديد، لكن المفارقة أن الجميع كان على أتم استعداد للخلاص من ذلك المولود إذا لم يكن له وحده دون شريك كان هذا المولود المنتظر هو " مصر المستقبل" وكان المتربصون هم بقايا عصور الظلام والمؤامرات المماليك.. العثمانيين.. الإنجليز. وعلى مقربة من هؤلاء وقف " محمد على " متربصاً هو الآخر.. لم يكن فى هذه الأثناء متربصاً بالمولود.. فهذا سابق لأوانه الآن!!

لكنه كان متربصاً بهؤلاء المتربصين من المماليك والإنجليز والعثمانيين، لقد نجح " محمد على " فى الصعود أو الوثوب إلى أعلى نقطة ليراقب الجميع، وتجلت قمة مهارته السياسية فى عدم تدخله بطريقة مباشرة فى تلك المباراة السياسية القذرة بين هذه القوى التى أتقنت كل فنون المؤامرات.

كانت خطة " محمد على " تقوم على محاور عدة، أهمها المحور الأساسى الذى يعتمد على " الدهاء ".. تلك الأداة التى اشتهر بها محمد على منذ طفولته، وهو يصارع الأمواج والصخور وقسوة الحياة؛ ومن ثم فليس مستغرباً أن يصوغ محمد على بنفسه حزمة من المعادلات السياسية المعقدة دون أن

تظهر فيها تحركاته بقدر ما تظهر فيها بصماته، وكان يجيد السير عبر " أنفاق مظلمة " و" سراديب ملغومة " لكنه كان شديد الوثوق ببصره الحاد وبصيرته التى لا تخطئ.

كان " محمد على " يدير صراعاً عنيفاً بين قوى متناحرة متنافرة، كان يمسك بأنامله كل الخيوط ليحرك الدمى والعرائس حسب قواعد اللعبة والسيناريو الموضوع سلفاً، كانت مهارته تكمن فى قدرته على المناورة بلا حدود.. كان يدير الصراع من أعلى نقطة، حيث يظهر أمامه جميع المتصارعين وكأنهم أقزام فيزداد ثقة على ثقة وقوة على قوة، كانت خريطة الصراع أمام عينيه واضحة تماماً.. التضاريس قاسية حادة.. العديد من المنخفضات السحيقة والعديد من المرتفعات الشاهقة والقليل من السهول ذات الرمال المتحركة.. كان " محمد على " يعلم علم اليقين أن غلطته الأولى هى حتما غلطته الأخيرة، فكان يتنفس الحذر ويقتات الجرأة ويلبس الزهد رغم أن حب الزعامة والتطلع إلى السلطة كانا يجريان من محمد على مجرى الدم فى العروق.. فى وقت كانت الدولة العثمانية - دولة الخلافة الإسلامية - خفت بريقها وضعفت شوكتها فى معظم ولاياتها وتحولت من سياسة المبادرات إلى سياسة ردود الأفعال.. كانت كالرجل المريض الذى لا يقوى على الحركة، هذه الحالة ألقت بظلالها على مصر كإحدى الولايات العثمانية، فأصبحت قبضة الدولة العثمانية ضعيفة عليها؛ إذ تعاقب عليها ولاة ضعفاء أصبحوا كالدمى فى أيدى فلول المماليك الذين قويت شوكتهم أمام ضعف العثمانيين، وكان " محمد على " يفهم ذلك كله ويراه فى خريطته كأحد المرتفعات التى يجب صعودها مهما كلفه ذلك من مشقة ومخاطر..

كان " محمد على " يرى أن هناك شخصيات فاعلة على المسرح السياسى، يجب التخلص منها قبل الصعود إلى كرسى الحكم..

وكانت طريقته فى التخلص من هؤلاء الخصوم المنافسين فريدة من نوعها، فلم يقم الرجل بتصفيتهم جسدياً، بل اختار طريق التصفية السياسية عبر تلغيم كرسى الحكم بالمؤامرات الراقية، كان " محمد على " يساعد منافسيه فى الوصول إلى القمة، ثم يقوم بحياكة المؤامرة تلو الأخرى لتعريتهم أمام الجميع، فيسهل تصفيتهم بالعزل أو الطرد أو القتل، وكان ينأى بنفسه عن

الدخول فى مثل هذه «التصفيات»، فقط كان يخطط ويرسم ويدفع الآخرين لتنفيذ مخططاته دون اتفاق، ودون حسابات، ودون دفع فواتير، قام " محمد على " بتكرار هذا السيناريو مع خمس شخصيات فاعلة على المسرح السياسى..

لقد صعد بهم إلى كرسى الولاية أولاً.. ثم هوى بهم إلى أسفل سافلين حين تخلص منهم جميعاً الواحد تلو الآخر فى مشهد درامى رائع؛ خسرو باشا.. طاهر باشا.. أحمد باشا.. إبراهيم بك.. خورشيد باشا.. هذه الأسماء جميعاً كانت بمثابة السلم الذى صعد عليه " محمد على " إلى منصة الحكم.

التخلص من خسرو باشا

فى عام ١٨٠٢ كان خسرو باشا هو الوالى العثمانى على مصر، وقد أيقن هذا الوالى أن سيطرته على حكم مصر لن تتحقق إلا بالتخلص من ذلك الداهية " محمد على " لذلك كانت المبارة بين الرجلين خاطفة، فالوالى يملك الشرعية والسلطة والدعم السلطانى، بينما يملك " محمد على " القوة والرؤية والدهاء، كان كلاهما يتربص بالآخر ويتحين الفرصة للتخلص من غريمه، لكن - كعادته - استطاع محمد على أن يؤلب الجنود على الوالى، ويدفعهم للتمرد والتظاهر وإشاعة الفوضى؛ بحجة تأخر رواتبهم ومخصصاتهم، وكانت النتيجة الحتمية سقوط " خسرو باشا " وطرده من القاهرة، وكان من الطبيعى أن يسارع " محمد على " إلى السيطرة على مقاليد الأمور، ويقفز على كرسى الولاية.. لكن دهاء الرجل جعله يتريث قليلاً.. فكان على يقين بأن اللحظة الفارقة لم تأت بعد، فالمسرح السياسى مازال يحتاج إلى عملية تنظيف قبل الصعود والتنصيب.

طاهر باشا

دفع " محمد على " رؤساء الجند للمطالبة بتعيين طاهر باشا والياً على مصر، وكان طاهر باشا قائداً للقوات الألبانية التى أرسلتها دولة الخلافة العثمانية لطرد القوات الفرنسية من مصر، وفى ٦ مايو ١٨٠٣ تم تعيين محمد على قائداً لتلك القوة الألبانية خلفاً لطاهر باشا الذى صعد لكرسى

الولاية، وكان طاهر باشا مشهوراً بالظلم والجبروت وضيق الأفق، كانت خطة " محمد على " أن يتخلص من طاهر باشا بأسرع ما يمكن، بيد أن التخلص منه وهو على كرسى الولاية وفى أعلى نقطة فى السلم السياسى كان أسهل كثيراً من التخلص منه وهو قائد للجنود الأرناؤوط، وبنفس طريقة التخلص من خسرو جاء التخلص من طاهر باشا لكنه قتل هذه المرة وخلا منصب الوالى من جديد.

أحمد باشا

وبقتل طاهر باشا باتت الطريق مهيأة أكثر لصعود " محمد على " إلى منصة التتويج. لكنه.. آثر التريث.. وفى هذه المرة نجح الجنود الانكشارية واتفقوا فيما بينهم على تعيين أحمد باشا والياً على غير رغبة " محمد على " فاضطر للتحالف مع الأمراء المماليك، ودفعهم للتخلص من الوالى الجديد، حيث أقنعهم " محمد على " بأنهم الأحق بالولاية، حيث إنهم الحكام الأصليون للبلاد، وكان الأمراء المماليك على ثقة فى أن " محمد على " ليس له طموح فى الولاية، حيث سنحت له أكثر من فرصة ولم يبد أى رغبات فى السلطة، وركز " محمد على " على كبير المماليك " إبراهيم بك " حتى دانت مصر له.

إبراهيم بك

نجح «محمد على» فى ضرب المماليك بالعثمانيين وتحولت البلاد إلى ساحة للفوضى والشقاق. لكن سرعان ما هاج الشعب، وتم إقصاؤهم عن الحكم من جديد، وهنا تهيأت الفرصة له على هذه المرة، وجاءته خاضعة ذليلة لكنه ما زال متماسكاً أمام رغباته وطموحاته الجامحة.

خورشيد باشا

قام " محمد على " باختيار " خورشيد باشا " والياً على مصر، وكان خورشيد باشا بمثابة الحلقة الأخيرة فى أحداث النهاية، حيث كثرت المظالم، وأصيبت مصر بحالة احتقان وطنى شامل، كانت الضرائب المفروضة على الشعب المصرى باهظة، وكانت الأحوال المعيشية تتحرك دائماً فى الاتجاه

الأسوأ، كان الداهية " محمد على " يحرك الأحداث فى اتجاه التصعيد ضد الوالى، واستخدم فى سبيل ذلك كل الأدوات والوسائل التى تساعد على تحقيق الهدف، وكان الهدف هذه المرة هو كرسى الولاية.. عرش مصر.. وكان مصمماً على أن يصعد إلى هذا الكرسى بطريقة مغايرة لكل من سبقوه، إنه أراد أن يصعد متسلحاً بالشرعية، فشرعية القوة هى التى صعدت بمن سبقوه، لكن الرجل كان يؤمن بأن شرعية القوة شرط ضرورى ولكنه غير كافٍ لحكم هذه البلاد، إن القوة تصعّد من يملكها إلى أعلى المناصب لكنها لا تضمن له البقاء!!

الشرعية التى كان يبحث عنها " محمد على " كانت شرعية الشعب والجماهير والزعامات الشعبية، كان مؤمناً بأن القوة وحدها لا تجدى مع هذه الأمة.. ولابد من الوصول إلى قلوب الأمة من خلال مشاركتهم والتفاعل معهم والتودد إليهم بكل الطرق، وبالفعل نجح الرجل فى مسعاه وكان يوماً فارقاً فى حياة " محمد على " ويوماً مشهوداً فى تاريخ هذه الأمة العظيمة.

تقرير المصير

كان يوماً استثنائياً فى تاريخ مصر المحروسة، فى صبيحة ذلك اليوم المشهود كانت القاهرة على موعد مع أحداث لم تشهد مثيلا لها من قبل، كان الجو حارا والرطوبة خانقة.. وقد وقعت حوادث وأحداث أفرد لها التاريخ صفحات وصفحات!

بيد أنها صفحات مطوية ومنسية من تاريخ هذا الشعب العظيم جاء يوم ١٣ مايو ١٨٠٥..

فى هذا اليوم دشنت مصر أساس حريتها واستقلالها وأعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها، حيث أجمع العلماء بزعامة النقيب عمر مكرم على عزل الوالى العثمانى الظالم المستبد خورشيد باشا وتعيين محمد على واليا على مصر بدلاً منه، وقام السيد عمر مكرم بتقليده خلعة الولاية وهنا يقول الجبرتى.. «تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم وألا يفعل أمرا إلا بمشورته ومشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه » عندما علم خورشيد بما قام به العلماء

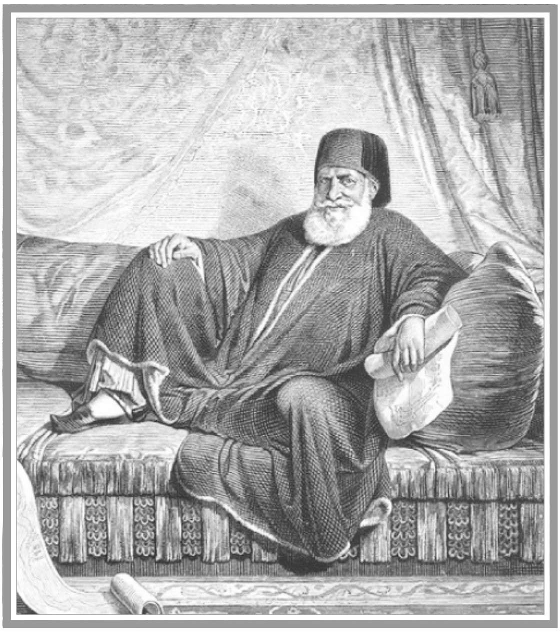
بزعامة السيد عمر مكرم ثارت ثائرته ووقف موقف العناد والتحدى، ورفض أن يخضع لرغبة الشعب.. وقال للرسل الذين حملوا إليه ما اتفق عليه العلماء: " لقد ولانى السلطان فلن يعزلنى الفلاحون " وبدأ خورشيد فى المقاومة واعتصم بالقلعة ولم يجد أولئك الفلاحون بداً من إنزاله من القلعة بالقوة ودارت المعارك الطاحنة والضارية بين الشعب وخورشيد، وهنا يقول الجبرتى " واجتهد عمر أفندى النقيب، وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد على ومعهم العديد من العامة والكل بالأسلحة والعصى ولازموا السهر بالليل فى الشوارع والحارات، ومعهم المشاعل وهم يطوفون بالجهات والنواحى وجهات السور " وشن رجال خورشيد هجوما مفاجئا على متاريس الثوار لكنهم استطاعوا أن يردوا هؤلاء الجنود على أعقابهم خاسرين، ولم تفتر عزيمة الشعب المصرى أو القائد فَعُقِدَ فى اليوم التالى الخامس والعشرين من مايو اجتماع بين السيد عمر مكرم وعمر بك أحد مستشارى خورشيد باشا الذى قال: " كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ".

قال عمر مكرم: "أولوا الأمر" هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة وهذا شىء مألوف من زمان وحتى الخليفة والسلطان إذا سار فى الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه " فقال عمر بك " كيف تحاصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا.. أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك.. فرد عمر مكرم " قد أفتى العلماء بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة " انتصر الشعب وهزم خورشيد وأصبح " محمد على"حاكماً بإرادة الشعب المصرى.. أخيرا جلس «محمد على» على عرش مصر، لكنه لم يعتدل فى جلسته فما زالت الساحة السياسية تحتاج إلى عمل دؤوب حتى تدين له السيطرة كاملة على مقاليد الأمور ولم يعد على الساحة منافسون يجيدون فن المؤامرات، لاشك أن هناك منافسين محتملين، كما توجد أطماع مكبوتة وخائفة ومترقبة لكنها تحت السطح كما الوهج تحت الرماد لقد استخدم " محمد على " كل الأوراق السياسية فى مباراة صعبة وشرسة ومحفوفة بالمخاطر، لقد راهن

الجـمـيع على القـوة العـسكرية تـارة، وعلـى الشـرعـيـة السلطانيـة تارة أخـرى، مـرورا برهـانات عـديدة على القـدرات الخـارقـة فى فنـون المؤامـرات، والضـرب تحت الحزام وضرب القوى بعضها ببعض، بيد أن الجميع قد نسى تلك القوة الجبـارة التى تجمع بين الشـرعية الحقيقية فى أسمى معـانيها وبين القـوة والنفـوذ الحـقـيـقى إنهـا الإرادة الشـعـبـيـة.. إرادة الجـمـاهيـر التى تحـركـهـا الزعـامات والقيادات الطبيعية، كان " محـمد علـى " ذلك الأمى الذى جاء من قولة على وعى تام بأن تلك القوة حتما ستنتصر مهما كانت قوة المنافس..



الفصل الرابع



سنوات صعبة



أخيراً صعد " محمد على " إلى عرش مصر، وجلس على الكرسى نفسه الذى اعتلاه مينا وأحمس ورمسيس وعمرو بن العاص، والمعز لدين الله، والناصر صلاح الدين، وسيف الدين قطز، والظاهر بيبرس، صعد الرجل إلى عرش مصر بإرادة شعبها ونزولا على رغبته؛ لكنه لم يتربع عليه بعد، لم يمسك بيد من حديد على مقاليد الأمور، فمازال العديد من القوى متربصة بالرجل، تتحين الفرصة تلو الأخرى كى تنقض على مقاليد السلطة وتزيح " محمد على " من طريقها بأى ثمن، كانت الدولة العثمانية ترى أن محمد على ورغم أنه يستمد سلطانه من فرمان التعيين الذى أصدره السلطان العثمانى فإنه جاء بشرعية مخيفة هى شرعية الجماهير المصرية، وهو ما جعل الدولة العثمانية تتحين الفرصة تلو الأخرى للتخلص منه، وكان المماليك لايزالون مسيطرين على الجزء الأعظم من الأراضى المصرية، وكان مراد بك كبير المماليك متحالفاً مع الإنجليز، يدفع الأمور إلى التصعيد ضد " محمد على " للتخلص منه محققاً بذلك حلم المماليك فى عودة ملكهم الزائل فى مصر، وكان الإنجليز يرون فى المماليك حليفاً استراتيجياً، يحافظ على مصالح إنجلترا فى الشرق، هذه القوى الثلاث.. العثمانيون والمماليك والإنجليز كانوا يتربصون بالرجل لإزاحته عن كرسى الحكم.. نكاية فيه من ناحية وفى الزعامات الشعبية من ناحية أخرى، ومن ثم واجهت محمد على فى أولى سنى حكمه حزمة من

التحديات التاريخية.. لكنه وبدهاء نادر وقف فى ظل الشعب المصرى واحتمى بشرعيته فى مواجهة جميع العقبات والمؤامرات.

مواجهة الأتراك

شعرت الدولة العثمانية بالإهانة بعد أن تدخل الشعب المصرى، واختار حاكمه لأول مرة فى تاريخه، وفى تاريخ الدولة العثمانية نفسها، لقد تعاملت القيادة العثمانية بحكمة شديدة مع الموقف، فعندما ثار الشعب المصرى على خورشيد باشا واختار " محمد على " واليا على مصر تحت لواء الدولة العثمانية، كان هذا الحدث بمثابة لطمة شديدة نالت من هيبة الدولة العثمانية التى كانت تعتبر اختيار الوالى حقا سياديا أصيلا بل أول مقتضيات السيادة التى يجب ألا تفرط فيها تحت أىٍّ من الظروف، بيد أن غضبة الشعب المصرى كانت أقوى من هيبة الدولة العثمانية فانصاعت لاختيار الشعب المصرى على مضض..

لكن السياسة التركية كانت مترددة غير مستقرة، ترقب الأحوال لتقرر الخطة التى تراها أوفق لمصلحتها وأتم لبسط نفوذها فى مصر، وكما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى هذا الصدد: " لم تكن خالصة النية نحو محمد على، بل كانت ترميه بعين البغض، وتتنفث عليه رسوخ قدمه فى مصر، وحسبه جرما فى نظرها أنه لم يكن من الولاة الذين ترسلهم كل عام إلى مصر: وتوليهم وتعزلهم كما تشاء، بل كان الوالى المختار من الشعب المصرى، فالشعب هو الذى أجلسه على كرسى الولاية، ولم تكن هذه الطريقة فى تعيين الولاة مما يروق فى نظر الحكومة التركية، صحيح أن حكومة الأستانة قد لبت نداء الشعب وأصدرت فرمانها بعزل الوالى الذى ثار عليه الشعب المصرى وهو خورشيد باشا، وتعيين " محمد على والياً مكانه، وقد أوفدت إلى القاهرة رسولا يحمل هذا الفرمان، ولكن هذا لم يكن دليلاً على خلوص نية تركيا نحو مصر، وهو لا يعدو أن يكون حلا مؤقتا تتفادى به من ثورة الشعب، إلى أن تحين الفرصة فتسترجع سلطتها فى البلاد وتضع يدها، حيث شاءت ولو كانت صادقة النية لاكتفت برسولها يحمل فرمان إسناد الولاية إلى " محمد على " لكنها أوفدت بعد ذلك قبطان باشا فى عمارة

حربية تقل ٢٥٠٠ من الجنود ليرقب الحالة فى مصر ويجعل عينه على الحوادث، ويتخذ من القرارات النهائية ما يراه موافقاً لمصلحة تركيا، وصلت هذه العمارة إلى أبى قير فى ١٧ يوليو ١٨٠٥ أى فى الوقت الذى كان فيه خورشيد باشا ما زال ممتنعاً فى القلعة معتصماً بها، ولم تجر عادة تركيا بإرسال مثل هذه القوة إلا ذريعة لحدث تحدثه فى البلاد، فهذه القوة الحربية لم تأت إلى مصر عبثاً، بل جاءت ليستعين بها قبطان باشا فى إنفاذ أغراضه الخفية، ولقد كانت مهمته الظاهرة استنزال خورشيد باشا الوالى المعزول من القلعة، بيد أن الحكومة التركية خولته السلطة المطلقة فى تثبيت محمد على فى الولاية أو عزله عنها، وتبين لك مقاصد تركيا من أن قبطان باشا لم يبرح السواحل المصرية بعد انقضاء مهمته الظاهرة، بل ظل متربصا وحوله الخمسمائة والألفا مقاتل، وأخذ يرقب الحالة ليتبع الكفة الراجحة، وقد راسله محمد بك الألفى زعيم المماليك، وعرض عليه أن ينحاز بقواته إلى خورشيد باشا الذى كان لم يزل بالجيزة يناوئ محمد على، وأن ينضموا جميعا إلى الجنود الذين جاء بهم قبطان باشا، ويزحفوا إلى القاهرة لينتزعوها من محمد على ويطردوا الجنود الأرناؤوط من البلاد "

مؤامرات الداخل وترقب الخارج

بيد أن مندوب الدولة العثمانية " قبطان باشا " لم يكن يميل إلى اتخاذ قرارات متسرعة أو نابعة من الهوى، بل كان يحكّم العقل والمنطق ويعلى المصلحة العليا للدولة العثمانية فى واحدة من أهم ولاياتها على الإطلاق، كان قبطان باشا يترقب الموقف عن كثب وهو مرابط فى ميناء أبى قير بقواته العسكرية، كان المماليك يضغطون بكل الأوراق الممكنة بين أيديهم.. بالمؤامرات والمناوشات المباشرة من ناحية، وبفتح خطوط مباشرة مع قبطان باشا من ناحية أخرى، لكن محاولات المماليك لفرض زعيمهم " محمد بك الألفى " بلغت مداها عن طريق الإنجليز الذين تدخلوا متوسطين لدى قبطان باشا محاولين إقناعه بإسناد ولاية مصر لمحمد بك الألفى، متعللين بأن المماليك خير من يحكمون مصر فى ظل هذه الأجواء الحرجة، وبأنهم إذا لم يمسكوا بزمام الأمور فستتحول البلاد إلى ساحة من الفوضى، وسيزحف هؤلاء المماليك إلى القاهرة ليتخلصوا من " محمد على " وإذا لم يحدث ذلك

بمساعدة الدولة العثمانية ولحسابها فسيكون بلا شك بمساعدة آخرين ولحسابهم .

مؤامرات العبيد والمماليك

بعد ثلاثة أشهر من تولى محمد على حكم مصر قام المماليك بتدبير محاولة للاستيلاء على القاهرة والتخلص من " محمد على " واختار المماليك يوم الاحتفال بيوم وفاء النيل لتنفيذ خطتهم؛ ففى هذا اليوم سيكون " محمد على " مشغولا بالاحتفال، وبصحبتة كبار رجال الدولة وكبار قادة الجند بضاحية مصر القديمة، وكانت الخطة تقضى بهجوم قوة من المماليك تبلغ ألف مقاتل على القاهرة، ثم ينضم إليهم مجموعة أخرى من قادة جند محمد على كان المماليك قد استمالوهم واتفقوا معهم على الانضمام إلى صفوفهم فور دخولهم القاهرة، لقد كانت خطة المماليك محكمة إلى أقصى درجة وكان لاختيار التوقيت وجاهته كذلك.. فمازال قبطان باشا مرابطاً على سواحل أبى قير، يراقب الموقف ومعه جميع الصلاحيات لنقل راية الحكم من «محمد على» إلى المماليك إذا رجحت كفتهم، وكانت لهم الغلبة والنصر قبل رحيله.. ومن ناحية أخرى فإن احتفال محمد على بيوم وفاء النيل لأول مرة وهو «والى» سيجعله منشغلا ومرتبكاً إلى أقصى درجة، لكن المماليك ورغم ما اشتهر عنهم من مكر وخداع وكر وفر لم يقفوا على الإمكانيات الحقيقية لمحمد على بعد..! لقد كان الرجل ينتظر سقطة لهؤلاء المماليك ليلقنهم درساً فى فنون القتل والنحر، لقد وقف " محمد على " على تفاصيل الخطة من خلال رجاله المخلصين فأحبطها ووضع خطته على أساس استدراجهم إلى الداخل وحصارهم ثم حصادهم مرة واحدة، وبالفعل دخل فرسان المماليك ومقاتليهم إلى القاهرة وذهب قادتهم إلى الزعيم عمر مكرم لينضم إليهم لكنه رفض بشدة، وطالبهم بالرجوع إلى ثكناتهم، وحذرهم من نشر الفوضى والذعر داخل القاهرة.. لكن المماليك أصروا على تنفيذ مخططهم بأى وسيلة فبدأوا التحرك صوب باب زويلة ومنطقة الدرب الأحمر فلقيهم هناك جند " محمد على " وقاتلوهم قتالاً عنيفاً حتى قتل معظم المماليك، وتم أسر المئات منهم، وسيق بهم إلى الباشا محمد على فأمر بقتلهم جميعا، وواصل محمد على مطاردة المماليك الفارين حتى وصل إلى الجيزة التى استولى عليها،

وطرد منها فلول خورشيد باشا الوالى المعزول، واستولى على أسلحته ومعداته وبسط نفوذه وسلطانه على عموم الجيزة والمناطق المحيطة بها، وفشلت فتنة المماليك الأولى، وحول هذه الواقعة يقول الجبرتى " ولم يتفق للمماليك أقبح وأشنع من هذه الحادثة وطبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وغلّ أيديهم " بيد أن الباشا التركى " قبطان باشا " الذى ظل يرقب الموقف آن له أن يبحر بعد أن دانت الغلبة لمحمد على، ففى أكتوبر من نفس العام تحرك " قبطان باشا " وغادر عائدا إلى تركيا ومعه الوالى المخلوع والمهزوم " خورشيد باشا " وقال قبل رحيله " إنى لأترك فى مصر رجلا ستجده الدولة يوما من أعظم خصومها شأنا وأكبرهم خطراً، ولم يوفق سلاطيننا إلى رجل مثل هذا الباشا فى دهائه وحزمه ومضاء عزيمته ".

معركة الطرف الأغر البحرية

فى ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ اشتبك الأسطول الإنجليزى بقيادة الأميرال نيلسون مع الأسطول الفرنسى بقيادة الأميرال فيلنوف، وخرج الإنجليز من هذه المعركة الشهيرة منتصرين انتصاراً تاريخياً، كان هذا الانتصار سبباً مباشرا فى تقوية شوكة الإنجليز وبسط نفوذهم وسيطرتهم الكاملة على البحار وخاصة البحر المتوسط وامتد نفوذ الإنجليز إلى ضفاف البسفور وعلى مقربة من مآذن الكهل التركى المريض فى الآستانة بدأ الإنجليز يستغلون انتصارهم فى معركة " الطرف الأغر "، حيث انزوت فرنسا وكسرت شوكتها ولم تعد مسموعة الكلمة، خاصة لدى الباب العالى، ومن ثم كان من الطبيعى أن يسعى الإنجليز لدى الباب العالى لعزل محمد على وتولية ربيبهم وخادمهم المملوك " محمد بك الألفى " الذى ظل على إخلاصه وتودده للإنجليز دون توقف، نظرت القيادة العثمانية فى الأمر ووجدت أنه من الحكمة إجابة الطلب الإنجليزى، خاصة أن الوالى الحالى " محمد على " لم يكن من اختيار الباب العالى، بل كان من اختيار الشعب المصرى وزعمائه، وفى كل الأحوال فإن السياسة العثمانية لم تترك والياً يستمر فى حكم مصر أكثر من عام واحد، إذ كانت السياسة التركية ترى أن الأوامر الإنجليزية تتوافق مع مصالحها فى مصر وكان الفرمان الذى أصدره الباب العالى " عزل محمد على من ولاية مصر ونقله إلى ولاية سالونيك وتعيين موسى باشا بدلا منه مع

عودة المماليك إلى حكم الأقاليم وسيطرتهم شرط كفالة العلماء لهم ".

ومن أجل تنفيذ هذا الفرمان السلطانى دون مقاومة أرسل الباب العالى فى يوليه ١٨٠٦ قوة عسكرية بقيادة صالح باشا مكونة من سفينتين حربيتين وأربع بوارج وفرقاطتين وثلاثة آلاف جندى، وكان الوالى الجديد موسى باشا على إحدى هذه السفن ينتظر تنصيبه والياً على مصر بدلاً من محمد على.

كيف واجه " محمد على " قرار عزله؟!

قال الجبرتى: " فلما قرأ الدفتر دار الفرمان على مسامع محمد على أرسل للسيد النقيب عمر مكرم فركب إليه وحضر صحبته إلى الباشا واختليا معاً ساعة ثم فارقاه "، يقول الرافعى: " فى هذه الخلوة أفضى محمد على إلى السيد عمر مكرم بمؤامرة الأستانة، وطلب إليه المعونة والنجدة، فكان عمر مكرم عند ظنه، وكان له نعم العضد الأمين، واتفقا على الخطة المشتركة " كانت خطة " محمد على " تقوم على محاور عدة:

- إظهار الطاعة للفرمان السلطانى.
- الاعتماد على زعماء الشعب فى مواجهة الفرمان.
- الاستمرار فى إضعاف المماليك والاستمرار فى مطاردتهم.

وقدم العلماء عريضة لا تخلو من إظهار الولاء والإخلاص للسدة السلطانية وتسجل اعتراضهم إلى صالح باشا قائد القوة التركية وعليها توقيعات ممثلى الشعب من الزعماء والعلماء، وكان مضمون الاعتراض والعريضة عدم موافقتهم على عودة المماليك إلى سدة الحكم من جديد. وعدم الموافقة على كفالتهم، وعدم الموافقة على عزل محمد على وتولية موسى باشا، وقد شرح العلماء فى عريضتهم أن السلطان العثمانى قد قبل توبة المماليك على أن يقبل العلماء والوجهاء كفالتهم.. ونحن الموقعين لا نقبل كفالتهم! فإن شرط الكفيل القدرة على المكفول، ونحن لاقدرة لنا على ذلك...

ورد صالح باشا برسالة غاضبة على عريضة العلماء يطالبهم بتنفيذ الأوامر دون إبطاء فعاود العلماء إرسال رسالة ثانية يوضحون فيها المخاطر التى قد تحدث لو تم تنفيذ القرار برحيل محمد على وقوات الأرناؤوط وتعيين موسى باشا وعودة المماليك، وأوضح العلماء أن متأخرات رواتب

الجند الأرناؤوط ستدفعهم حتما إلى العصيان وعدم إطاعة الأوامر؛ مما يدفعهم أن يعيثوا فى الأرض فسادا لكن صالح باشا كان عنيدا وعنيفا فى ردوده ومراسلاته على العلماء فقال لهم: " إنه لا يقبل هذه الأعذار ولا ما نمقوه من التمويهات التى لا أصل لها ولابد من تنفيذ الأوامر ولا شىء غير ذلك أبدا " فرد العلماء برسالة إلى صالح باشا أكثر غضبا جاء فيها " إن محمد على باشا كافل الإقليم وحافظ ثغوره ومؤمن سبله وقاطع المعتدين، وأن الكافة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله والشريعة مقامة فى أيامه ولا يرضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف.. " كان إصرار زعماء الشعب المصرى كفيلا بتغيير الموقف كاملاً لصالح محمد على الذى قام من جانبه بالتنسيق مع رؤساء الجند الأرناؤوط لتحريض الجنود على رفض مغادرة البلاد دون تسوية مستحقاتهم المتأخرة والتى تصل إلى مبالغ طائلة.. وبدأ محمد على فى ترتيباته لمواجهة المماليك وكانت تلك المواجهة تقوم على محورين:

- **الأول:** بث روح الفرقة بين زعماء المماليك المتنافسين والمتناحرين.
- **الثانى:** المواجهات العسكرية مع محمد بك الألفى وقواته، خاصة بعد المواجهات الشرسة فى دمنهور.

بيد أن الجهد الجدير بالذكر فى هذه الأزمة ما قام به " محمد على " من محاولات ناجحة لاستمالة صالح باشا وبطانته بالهدايا والأموال إذن كانت وقفة الزعماء المصريين بقيادة عمر مكرم ونجاح محمد على فى ملاحقة المماليك من ناحية واستمالة صالح باشا وحاشيته من ناحية أخرى كل هذه الأسباب كانت كفيلة بتحويل دفة الأمور لصالح " محمد على ".

محمد على يرهن ابنه إبراهيم

أرسل الباب العالى لصالح باشا فرمانا يطلق يديه فى اتخاذ ما يراه مناسباً للأحوال فى مصر كان هذا يعنى إلغاء قرار عزل محمد على، وتم الاتفاق على تثبيت محمد على فى حكم مصر نزولاً على رغبة الشعب وزعمائه؛ شرط أن يؤدى للباب العالى مبلغ ٤٠٠٠ كيس، وأن يكون ابنه إبراهيم رهينة لحين أداء المبلغ المطلوب، وصدر المرسوم الذى يثبت " محمد

على فى حكم مصر من جديد بعد أزمة عاصفة، وبذلك انتهت تلك المؤامرة وغادر صالح باشا قبطان يصحبه موسى باشا وإبراهيم ابن محمد على ـ كرهينة ـ لحين سداد المبلغ المطلوب سداده للباب العالى، وقبل مرور شهر من الزمان تمكن محمد على من جمع المبالغ المطلوبة وأرسلها إلى الأستانة، حيث بادر السلطان العثمانى بإرسال رسول يحمل فرمانين الأول بتثبيت " محمد على " فى حكم مصر، والثانى يأمره بتسفير المحمل وإرسال الأحمال إلى جدة.

قضى الأمر

بالفعل كانت عناية الأقدار تلحظ وعلى الدوام " محمد على "؛ وكأنها تسير فى معيته، وكانت العناية الإلهية ترعاه وتساعده، فما كادت تنتهى أزمة عزل " محمد على " بعد مؤامرة الباب العالى مع الإنجليز بصدور فرمان تثبيته، حتى وصلت الأخبار السارة إلى محمد على، حيث توفى عثمان بك البرديسى أحد كبار زعماء المماليك الذين كانوا يتصارعون على حكم مصر فى اليوم الثامن من شهر رمضان الموافق التاسع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٠٦ ودفن فى الصعيد، وتولى الإمارة خلفا له شاهين بك المرادى الذى كان خصما عنيدا لمحمد بك الألفى أكبر زعماء المماليك فى هذا الوقت، وجاء موت البرديسى وتنصيب شاهين بك ليصب فى مصلحة " محمد على "، حيث تغيرت الخريطة السياسية تماما، فالاتحاد بين المماليك أصبح مستحيلاً، إذ صارت عوامل الفرقة والخلاف والنزاع هى السائدة فى كل الأحوال، ولم يمض شهران على وفاة البرديسى حتى لحق به محمد بك الألفى أخطر الشخصيات الباقية على الساحة السياسية فى مصر عن عمر يناهز خمساً وخمسين سنة. يقول الجبرتى حول هذه الواقعة: " لما وصل إلى قرب قناطر شبرامنت جلس على ربوة هناك وزادت هواجسه وآلامه وأخذ يودع أحلامه وآماله وقال قولته المؤثرة الشهيرة " قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على " فى هذه الأثناء كان محمد على يحارب فلول المماليك فى المنيا وأسيوط، حيث عقد سلسلة من معاهدات الصلح مع البعض، وقاتل البعض وطارد البعض الآخر إلى حدود الصحراء حتى دان له الصعيد، كانت الأخبار التى وردت إلى محمد على ترفع من معنوياته

فموت خصميه البرديسى والألفى كان بمثابة انتصارات بلا معارك ولا دماء.. لكن الأخبار الواردة هذه المرة كانت مغايرة.

حملة فريزر

كانت مصالح إنجلترا العليا تحتم عليها ضرورة تأمين حركة التجارة مع المستعمرات الشرقية من خلال إيجاد نقطة ارتكاز فى مصر حتى تستفيد بموقعها الاستراتيجى العبقرى، كان الإنجليز على قناعة بأن موقع مصر يمثل مطمعاً للقوى العظمى، خاصة لعدوها اللدود فرنسا، فى البداية حاولت إنجلترا السيطرة على مقاليد الأمور فى مصر من خلال حلفائهم المماليك.. لم تفوت إنجلترا كل الفرص التى أتيحت لها كى يتولى المماليك حكم مصر، كانت إنجلترا تمارس أقصى درجات الضغط على الدولة العثمانية كى يعود المماليك إلى حكم مصر من جديد، بيد أن الدولة العثمانية لم تكن فى وضع يساعدها على تنفيذ وعودها، خاصة فى ولاياتها العربية، خاصة مصر التى كان يتصارع عليها العديد من القوى الداخلية والخارجية؛ ومن ثم فلم يعد أمام إنجلترا إلا توجيه حملة عسكرية مباشرة إلى مصر لاحتلالها واختيار حكام موالين لها من المماليك، تحركت القوات الإنجليزية بقيادة الجنرال فريزرً صوب مدينة الإسكندرية فى شهر مارس ١٨٠٧، حيث كانت خطة الإنجليز تعتمد على حليفهم الأقوى محمد بك الألفى وقواته من الأمراء المماليك، خاصة مع تواجد محمد على فى صعيد مصر للقضاء على المماليك الذين يسيطرون على كبريات المدن فى الوجه القبلى. يقول الجبرتى: " وبعد موت الألفى بنحو الأربعين يوماً وصلت نجدة الإنجليز إلى ثغر الإسكندرية وطلعوا إليها فبلغهم عند ذلك موت المذكور فلم يسهل بهم الرجوع فأرسلوا إلى المماليك ظانين أن فيهم أثر الهمة والنجدة يطلبونهم للحضور ويساعدهم الإنجليز على ردهم لملكتهم.. إن هذه الطائفة من الإنجليز ومن انضم إليهم وعددهم على ما قيل ستة آلاف لم تأت إلى الثغر طمعاً فى أخذ مصر، بل كان ورودهم ومجيئهم مساعدة ومعاونة للألفى بك على أخصامه باستدعائه لهم واستنجاده بهم وسبب تأخرهم فى المجئ لما كان بينهم وبين العثمانى من الصلح فلما وقعت النفرة بينهم وبينه انتهزوا الفرصة وأرسلوا هذه الطائفة وكان الألفى ينتظر حضورهم بالبحيرة فلما طال عليه الانتظار وضاقت عليه

البحيرة وارتحل بجيوشه مقبلا وقضى الله بموته بإقليم الجيزة وحضر الإنجليز بعد ذلك إلى الإسكندرية فوجدوه قد مات، فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا إلى الأمراء القبليين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم ويقولون لهم إنما جئنا إلى بلادكم باستدعاء الألفى لمساعدته ومساعدتكم، فوجدنا الألفى قد مات وهو شخص واحد منكم وأنتم جمع فلا يكن عندكم تأخير فى الحضور فإنكم لا تجدون فرصة بعد هذا وتندمون بعد ذلك إن تلكأتم " .

خيانة وسقوط

كان حاكم الإسكندرية فى هذه الأثناء يدعى أمين أغا وكان ضابطاً تركياً سلم المدينة للإنجليز مقابل رشوة من المال، وأجرى معهم مفاوضات صورية، وتم تسريب مجموعة من الأخبار المغلوطة والمعلومات المضللة للقضاء على روح المقاومة وقتلها فى المهد، وسيطر الإنجليز على المدينة دون مقاومة.

تحييد المماليك والدعوة للجهاد

وصلت تلك الأنباء إلى القاهرة، حيث يوجد زعماء الشعب وإلى الصعيد، حيث يوجد محمد على، ففى القاهرة قام الزعماء بقيادة النقيب عمر مكرم بالدعوة للجهاد وقتال العدو حتى لا يتكرر ما حدث فى الإسكندرية، وفى الصعيد سارع محمد على بإبرام الصلح مع المماليك لتحييدهم واتقاءً لشرورهم فى هذه الظروف العصيبة، كان الصلح يقضى بأن يحكم المماليك الصعيد تحت ولاية " محمد على " ويؤدوا له خراج الصعيد سنوياً، ويشاركوه فى قتال الإنجليز، وعاد محمد على إلى القاهرة لتجهيز الجيش المصرى لقتال الإنجليز بالتعاون مع الزعامات الشعبية بقيادة النقيب عمر مكرم.

معركة رشيد

تحركت القوات الإنجليزية من الإسكندرية صوب مدينة رشيد وكان حاكمها رجلاً وطنياً يتصف بالشجاعة والحكمة والوطنية، وعلم بما حدث بالإسكندرية فجمع الكبار والزعماء والأعيان ووضع خطة محكمة لمقاومة القوات الإنجليزية ومنعها من دخول مدينة رشيد.. يقول عبدالرحمن

الرافعى: " ولأجل أن يبعث الحمية فى نفوس جنوده ويحملهم على الاستبسال فى القتال أمر بإبعاد مراكب التعدية إلى البر الشرقى للنيل حتى لا يجد رجال الحامية وسيلة إلى الارتداد إذا حدثتهم نفوسهم أن يسلموا كما سلمت حامية الإسكندرية، فلما تم له نقل جميع المراكب وشعر الجنود والأهلون عند اقتراب الجيش الإنجليزى أن البحر من ورائهم والعدو من أمامهم صحّت عزيمتهم على المقاومة إلى النهاية، وأمر على بك أن تتراجع الحامية إلى داخل المدينة وأن يعتصموا هم والأهلون بالمنازل مستعدين للضرب وألا يبدأوا بحركة ما، إلا عندما تصدر لهم الإشارة بإطلاق النار، فتقدم الإنجليز ولما لم لم يجدوا أثراً للمقاومة خارج البلد اعتقدوا أن حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها محتذية بما فعله أمين أغا حاكم الإسكندرية، فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين وكانوا قد أعياهم السير فى الرمال من الإسكندرية إلى رشيد فانتشروا فى الطرق والأسواق يرتادون أمكنة يلجأون إليها ويستريحون فيها، ولكنهم ما كادوا يجوسون خلال الديار وتشتمل المدينة عليهم حتى أصدر على بك أمره بإطلاق النار فاقتحمهم الرصاص من كل صوب وأخذ الأهلون يطلقون النار من النوافذ والسطوح فدب الرعب فى قلوبهم وسقط الكثيرون منهم صرعى فى الشوارع فقتل الجنرال " ويكوب " برصاصة أردته قتيلا وقتل الكثير من ضباطه فاستولى الذعر على نفوس الإنجليز ولاذوا بالفرار، وانتهت الواقعة بهزيمة الجيش الإنجليزى وارتداد الأحياء منهم عن رشيد فى حالة يأس وفشل وتقهقروا إلى الإسكندرية بطريق أبو قير وبلغ عدد القتلى منهم فى هذه الواقعة ١٧٠ قتيلاً و٢٥٠ من الجرحى، وأسر المصريون منهم ١٢٠ أسيراً.

وقد بادر على بك حاكم رشيد بعد الموقعة إلى إنفاذ الأسرى الإنجليز إلى القاهرة ومعهم رءوس قتلاهم ليكون ذلك إعلاناً للنصر الذى نالته رشيد، ثم ليبعث هذا المنظر فى نفوس الجنود والشعب بروح الأمل والثقة، وكان يوم حضورهم يوماً مشهوداً.. يقول الجبرتى حول هذه الواقعة: " فلما كان يوم الأحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ هـ، أبريل سنة ١٨٠٧ أشيع وصول رءوس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فهرع لناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم

لملاقاتهم فطلعوا بهم إلى البر وصحبتهم جماعة العسكر المتسفرين معهم فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم " فسيال " ضابط كبير وآخر كبير فى السن وهما راكبان على حمارين والبقية مشاة فى وسط العسكر ورءوس القتلى معهم على نبابيت وعددها أربعة عشر رأساً والأحياء خمسة وعشرون ولم يزالوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية وضربوا عند وصولهم شنكاً ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى القلعة وفى يوم الإثنين وصل أيضاً جملة من الرءوس والأسرى إلى بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعددهم مائة وواحد وعشرون رأساً وثلاثة عشر أسيراً وفيهم جرحى ".

القاهرة تستعد لمواجهة الإنجليز

كانت تلك الأحداث وما تبعها من نتائج بمثابة وقوداً لثورة المصريين فى جميع أنحاء القطر المصرى، ففى القاهرة بدأ النقيب عمر مكرم فى حفر الخنادق وتسليح الجنود والاستعداد للدفاع عن القاهرة، كما أطلق نفرة الجهاد، ودعا المتطوعين إلى الذهاب لنصرة إخوانهم فى شمال القطر المصرى وحول استعدادات السيد عمر مكرم يقول السيد مانجان فى كتابه " تاريخ مصر فى حكم محمد على " " كان السيد عمر مكرم يذهب فى صبيحة كل يوم تتبعه الجماهير إلى، حيث يشتغل العمال فى إقامة الاستحكامات، وكثيرا ما يبقى هناك النهار كله فى خيمة أعدت له، وكان حضوره يثير الحماسة والشجاعة فى نفوس الناس جميعاً، وقد بذل كل إنسان ما فى وسعه لإقامة الاستحكامات ".

يقول الجبرتى " وفى يوم ٢٦ محرم ١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب للجهاد فى الإنجليز حتى مجاورى الأزهر وأمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس " .

عودة محمد على

بعد مرور أكثر من أربعين يوماً على وصول القوات الإنجليزية إلى الأراضى المصرية عاد " محمد على " باشا إلى القاهرة قادماً من الصعيد بعد أن أبرم صلحا مع المماليك أراحه كثيراً فى معاركه مع الإنجليز.. وصل محمد على إلى

القـاهرة لإدارة العمليات العـسكرية ضد الإنجليـز، وبدأ فى اسـتكمـال مـا بدأه النقيب عـمر مكرم وأخذ فى تجهيـز العسكر والجنود بالسـلاح والعتاد .. وحـول وصـول " مـحمد على " إلى القـاهرة يقول الرافـعى: " وصل مـحمد على باشا إلى القاهرة عـائداً من الصعيد فبلغها ليلة ١٢ أبريل سنة ١٨٠٧، فاطلع على الأنباء الواردة عن هـزيمـة الإنجليـز فى رشيد فـاطمـأن نفسـا وألفى الحـالة أقل خطورة مما كان يتوقع، على أنه لم يركن إلى ما حدث فى تلك الموقعة ورأى بثاقب نظره أن الإنجليز قـد يستأنفون القتال والزحف ليستردوا هيبتهم الضائعة فبادر إلى تجريد جيش أنفذه لمحاربتهم وصدهم عن التقدم وأتم عمل الاسـتحكامات التى بدئ بها قبل حضوره، وواصل العمل على حفـر الخنادق بين باب الحديد وبولاق لإقـامـة خط الدفـاع عن القناة من الشـمـال، فـشـق أخـاديد أمـام الخنادق تـتـصل بالنيل لتمـتلئ بالميـاه وتعـرقل الجيش الإنجليـزى وأغـرق عـددا من المـراكب بين جـزيـرة بولاق والشـاطئ لمنع مـرور السـفن الإنجليـزية فـى النيل إذا جـاءت من رشـيـد، ونصب بطـاريات من المدافع فى شـبـرا وإمبـابـة وجـزيرة بولاق، واشـتـرك العلمـاء والشـعب فى العـمل بحـمـاسـة وغـيـرة وحـمـيـة، وأخـذ يـدبـر المال اللازم لنفقات الجيش وعـاونه السـيد عـمر مكرم والعلماء فى جمع مـا يستطاع تدبيره من المال، وتم تجـهـيـز الحـملة فكانت مـؤلفـة مـن أربعـة آلاف مـقـاتل من المشـاة وخمسمائة وألف من الفرسان وصارت قاصدة إلى رشيد ".

كـانت القـوات الإنجليـزية تنتظر المدد دونمـا جـدوى، وكـان قـائد القـوات الإنجليـزية الجنـرال سـتوارت ينتظر وصـول المـاليك لمعاونـة القـوات الإنجليـزية فى هذه المنطقـة الوعـرة بيـد أن وصـول القـوات التى جهـزهـا مـحـمـد علـى بعـد عـودته مـن الصـعـيـد قـد قـلب الموازيـن رأسـا علـى عـقـب، حـيث دارت مـعـركـة «الحـمـاد» ولقى الإنجليـز الهـزيمـة الثـانيـة على التوالى، وكـانت هـزيمـة الحـمـاد قـاسـيـة إلى أقصـى درجـة، وتركت آثـارا نفـسـيـة بالغـة الأثر فى قلوب الإنجـليـز، وتركت آثـارا رائعـة فى قلوب المصـريين والمجاهدين، وبالطبع كان مـحـمد على هو القـائد والرأس المدبر لهـذا الانتصـار التاريخـى على تلك القوات المتكبرة المتجبـرة التى أذلت فـرنسـا وتسـعى إلى إذلال الإمـبـراطورية العـثمـانيـة على أرض النيل وحول هذه الواقعة يقول الرافعى: "كانت معركة الحماد هزيمة ساحقة للإنجليز فمـلأت نفوس المصـريين عـزمـا وفخـرا وثقـة وأسـقطت هيبـة الجيش الإنجليـزى،

خاصة لما جمع كتخدا بك أسراهم وشحنهم فى المراكب إلى القاهرة ليتحقق الناس من عزم النصر الذى أدركه الجيش المصرى، وصل أولئك الأسرى إلى بولاق فسيقوا من بولاق إلى الأزبكية، ومنها إلى القلعة وعددهم ٤٨٠ أسيراً، وفى مقدمتهم قواد الجيش الإنجليزى وكان يوم حضورهم يوما مشهودا احتشدت فيه الجماهير من سكان العاصمة على جوانب الشوارع والطرقات لرؤية منظر الأسرى، وطيف برءوس القتلى الإنجليز ليراها الناس على الطريقة التى كانت مألوفة فى ذلك العصر، فبلغ عددها ٤٥٠ رأساً " كانت هذه الهزائم بمثابة لطمات متتالية على وجه الإنجليز، مما دفع الجنرال الإنجليزى فريزر إلى طلب الصلح من محمد على، لكن محمد على صار بجيشه قاصداً الإسكندرية للانقضاض على ما بقى من القوات الإنجليزية، وحينما وصل دمنهور عقد صلحا تاريخيا مع الإنجليز كان نصه " بما أن الجنرال فريزر قائد القوات البرية لصاحب الجلالة البريطانية والكابتن هلويل قائد الأسطول الإنجليزى المرابط تجاه السواحل المصرية قد خوّلا الجنرال شربروك والكابتن فيلوز من ضباط البحرية الإنجليزية، سلطة إبرام الاتفاق الخاص بالجلاء عن الإسكندرية فقد اتفق كل من صاحب العظمة محمد على باشا والى مصر والجنرال شيربروك والكابتن فيلوز المذكورين على الشروط الآتية :

- المادة (١) :

توقف فورا الأعمال العدائية من الجانبين وتجلو القوات البريطانية عن الإسكندرية فى مدى عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة وتنسحب من جميع القلاع والاستحكامات والمنشآت وتتركها بالحالة التى هى عليها الآن، ويسلم صاحب العظمة محمد على باشا للقواد البريطانيين صهره مصطفى بك وعمه إسحق بك ومهرداره " حامل الختم " سليمان أفندى كرهائن يبقون على ظهر إحدى السفن الحربية الإنجليزية إلى أن يتم تنفيذ هذه المعاهدة

- المادة (٢):

جميع أسرى الحرب الإنجليز وكذلك الأفراد الذين التحقوا بخدمتهم من الأرقاء يطلق سراحهم ويرسلون بطريق النيل إلى بوغاز رشيد، حيث يبحرون على سفينة إنجليزية.

المادة (٣):

يصدر عفو عام عن سكان الإسكندرية أو غيرهم من الأهلين لما وقع منهم فى الماضى ويؤمنون على أرواحهم وأملاكهم لكونهم اضطروا بحكم الظروف إلى اتخاذ الطريق الذى سلكوه.

المادة (٤):

بما أن أمين بك الألفى قد بارح الإسكندرية أثناء الاحتلال الإنجليزى فإن صاحب العظمة محمد على باشا يعد بأنه فى حالة عودة أمين بك المذكور إلى الميناء ألا يناله سوء، ويعطى أمانا له ولحاشيته بشرط ألا يتجاوز اثنى عشر شخصا.

المادة (٥):

نظرا لتفرق الأفراد الأرقاء الملحقين بخدمة الجيش البريطانى ووجود بعضهم على مسافات بعيدة فيبقى مندوب إنجليزى فى الإسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلما ظهروا ولهذا المندوب أن يحصل من صاحب العظمة على كل حماية ومساعدة لأداء مهمته فى إحضار هؤلاء الأفراد ويسمح له بأن يرسل كل من يوجد منهم إلى أى سفينة إنجليزية تكون راسية فى الميناء، أو يرسلهم إلى صقلية أو مالطة بأى طريقة أخرى تتيسر له ".. حررت هذه المعاهدة فى معسكر صاحب العظمة محمد على باشا والى مصر بالقرب من دمنهور يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ " وفور التوقيع بدأ كل فريق تنفيذ ما جاء فى الاتفاقية، ورحلت القوات الإنجليزية مغادرة الأراضى المصرية فى التاسع عشر من سبتمبر ١٨٠٧ بعد معارك ضارية استمرت ستة أشهر ظهرت فيها القوة الحقيقية للمصريين، كما ظهرت فيها عبقرية محمد على باشا العسكرية والسياسية ودخل الإسكندرية لأول مرة بعد سبع سنوات عجاف كانت المدينة معزولة تماماً عن مصر، حيث كانت الدولة العثمانية تعاملها معاملة خاصة وتعتبرها مستقلة عن مصر.

نجاة من الغرق

بدأ الباشا رحلة العودة إلى دار الحكم بالقاهرة، وسار براً إلى رشيد، ثم ركب النيل عائداً إلى القاهرة، لكن المركب التى كان يستقلها انقلبت قبالة وردان..

واستطاع محمد على الذى يجيد فنون السباحة والعوم أن يصل إلى الشاطئ سابحاً، ثم واصل رحلته قاصداً القاهرة على جواده وعلى غير العادة كبا الجواد بمحمد على وسقط على الأرض، لكنه واصل المسير حتى وصل إلى القاهرة.. يقول الرافعى: " ولما بلغت أنباء الجلاء عن الإسكندرية إلى الأستانة ابتهج السلطان محمود ابتهاجا عظيماً لما كان بين تركيا وإنجلترا من العداء فى ذلك الحين، فأرسل رسولاً إلى محمد على يظهر له ابتهاجه، ويهدى إليه سيفاً ثميناً وخلعة، وكذلك أنعم على إبراهيم بك وطوسون بك وحسن باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين بك وعمر بك وصالح غوش بك بالرتب والخلع الثمينة وأعادت الحكومة التركية إبراهيم باشا إلى مصر وكان بالأستانة رهينة حتى يؤدى محمد على ما على ولايته من أموال، فأطلقت الحكومة سراحه إعراباً عن ابتهاجها بانتصار الجيش المصرى.

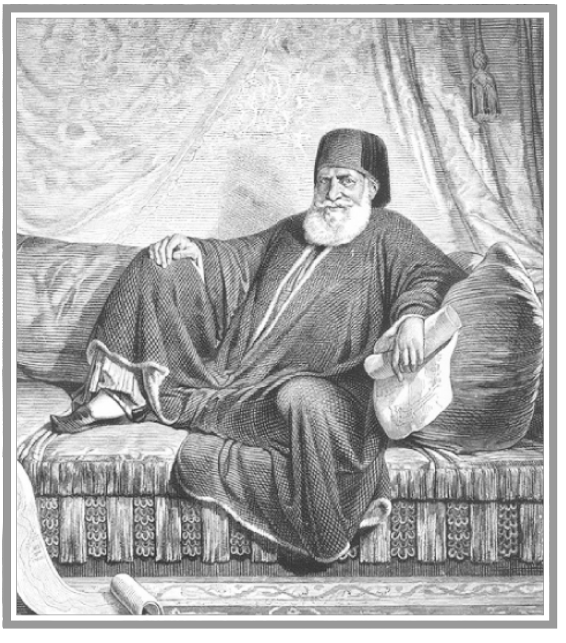
ثورة الجند

أثناء وجود محمد على فى شمال البلاد على رأس القوات المصرية لمواجهة القوات الإنجليزية الغازية، قام الجنود الموجودون فى القاهرة بإثارة الفتن والقلاقل، وارتكبوا العديد من عمليات السلب والنهب، وأثاروا الذعر بين المواطنين، وقد وصلت تلك الأخبار إلى مسامع محمد على باشا أثناء وجوده فى شمال البلاد لمحاربة الإنجليز، وكانت الظروف وقتها لا تسمح له بأن يترك المعارك ويعود إلى القاهرة لمواجهة ثورة الجند، لكن بعد أن انتهت المعارك وتحققت الانتصارات ووصل الباشا المنتصر إلى مقر حكمه بالقاهرة كان قراره هو مواجهة هذه الثورة والقضاء على هذا التمرد لكن على طريقة محمد على الخاصة، إذ كان يهدف إلى التهدئة إلى أقصى درجة بعيدا عن المواجهات المدمرة، كان الرجل - كعادته - يريد أن يتخلص من هذه التركيبة التى تحمل بين طياتها وفى ثناياها كل عوامل التمرد والقلاقل والأخطار، لكن ما حدث يوم ٢٨ أكتوبر ١٨٠٧ كان بمثابة تطور مثير فى العلاقة بين محمد على وأولئك الجنود يقول الرافعى " ففى ٢٨ أكتوبر تجمهرت جموع حاشدة من الجنود الأرناؤوط وذهبوا بجمعهم وصخبهم إلى سرايا الباشا بالأزبكية يطالبون برواتبهم المتأخرة فلم يجابوا إلى طلبهم ووعدوا بالدفع فلم يرضوا وأخذوا يطلقون النار من بنادقهم على أبواب القصر ونوافذه ولما نفدت ذخيرتهم عادوا من حيث أتوا، ولم

تمض ثلاث ساعات على هذا التجمهر حتى جاء رهط آخر من الجنود الدلاة وحذوا حذو الأرناؤوط فى تمردهم وشغبهم ففزع الناس من هذه الفتنة وخشوا عواقبها.. فأدرك محمد على خطر هذه الفتنة فأحتاط لنفسه قبل أن يصيبه شرها، وكان ذلك من دلائل فراسته وبعد نظره فإن الجنود المتمردين كانوا قد أجمعوا على الفتك به فى سرايا الأزبكية، وكانت هذه السرايا مكشوفة للمتمردين فعقد العزم على مبارحتها إلى القلعة لأنه رآها آمن مستقراً ومقاماً، وفى اليوم التالى ٢٩ أكتوبر انتقل ليلاً مع صحبه المخلصين له إلى القلعة سراً، حيث لم يشعر به الجنود المتمردون فلما علموا بالخبر ثارت ثائرتهم وأقبلوا ينهبون سرايا محمد على وتجمهروا فى أنحاء المدينة وأطلقوا أيديهم فى النهب والسلب والاعتداء على الناس، واستمرت الفتنة سبعة أيام.. حتى استفحلت وكادت تقضى على الأمن والنظام فيها فتدخل السيد عمر مكرم والعلماء واجتمعوا غير مرة طوراً فى القلعة وطوراً فى بيت السيد عمر مكرم، وبحثوا فى خير الوسائل لإخماد الفتنة فاتفقوا رأياً على أن تؤدى الحكومة للجنود المتمردين جزءاً من رواتبهم المتأخرة قدروه بألفى كيس، ولما كانت خزانة الحكومة خالية من المال قرروا أن يتحمل الأهالى هذه الإتاوة الجديدة فوزعوها على التجار والملاك والصناع وأرباب الحرف وأقنعوا المتمردين بالإخلاد إلى السكينة مقابل هذا المبلغ من المال فجبيت الإتاوة ودفعت للجنود واستتبت السكينة مؤقتا على حساب الأهالى واعتزم محمد على تلقاء خطورة هذه الفتنة أن يقتص من زعمائها فقرر نفى رجب أغا أحد رؤساء الجند الأرناؤوط وأشدهم نزوعا إلى العصيان وكان هذا الأغا يعمل من قبل فى صفوف محمد بك الألفى ورئيسا لقوات المشاة، ولما مات الألفى جاء إلى القاهرة يصحبه رهط من رجاله وأخذ يعيث فسادا، فلما قرر محمد على نفيه استكبر واصر وأبى أن يذعن للأمر، وامتنع فى باب الخلق وكادت تقوم فى المدينة فتنة جديدة لولا أن تدخل فى الأمر عمر بك وصالح قوش من رؤساء الجند، الأرناؤوط فذهب برجب أغا إلى بولاق وأنفذوه إلى دمياط فارتحل منها إلى بلاده " بيد أن هذه الفتنة التى كادت تعصف بمحمد على وتطيح به من على كرسى الحكم قد جعلته على يقين بأن بقاء مثل هذا الجيش بهذه التركيبة يمثل خطراً داهماً على مستقبله ومستقبل البلاد.



الفصل الخامس



التخلص من سلم الصعود



لابد من تحطيم السلم الذى أوصلنى إلى مكانى حتى لا يستخدمه غيرى..

كان محمد على يعتبر أن الرأى العام الذى تحركه الزعامات الشعبية هو معين الشرعية الذى لا ينضب، فقد نجحت رهاناته على الدور القوى الذى يمكن أن تلعبه هذه القوة غير المسبوقة فى تاريخ مصر، فدور الزعامة الشعبية فى تاريخ محمد على كان واضحاً منذ البداية.. فالزعامة الشعبية هى التى صعدت بمحمد على إلى عرش مصر عام ١٨٠٥، وتحدت الإرادة العثمانية، وقاومت قرار عزله عام ١٨٠٦، وأحبطت مؤامرات المماليك للفتك بالرجل أثناء الاحتفال بيوم وفاء النيل، وهى التى قاومت الاحتلال الإنجليزى مثلما قاومت الاحتلال الفرنسى، وأقامت السدود، وحفرت الخنادق لحماية القاهرة من الأعداء، فحافظت على حكم محمد على، وتحملت الضرائب الباهظة لتمويل رواتب الجند المتأخرة وتصدت لحركة تمرد الجند الذين أطلقوا النار على قصر الأزبكية وكادوا يفتكون بمحمد على.

.. هكذا كانت الزعامة الشعبية محوراً لجميع الأحداث على أرض مصر، كان النقيب عمر مكرم زعيماً مصريا أصيلا، يؤمن بالحق والعدل، وله من رجاحة العقل وقوة المنطق ما يجعله يزن الأمور بميزان لا يخطئ، كانت شجاعته وصرامته موضع إعجاب كل من اقترب منه، أخلص الرجل لوطنه فبادلته الجماهير حبا وطاعة واحتراما؛ لذلك فالرجل يمثل الشعب المصرى أمام جميع القوى السياسية على أرض مصر، فهو بمثابة قيادة طبيعية لا يحتاج إلى مرسوم أو فرمان، كان يستند على الحق وإرادة الجماهير، لذلك كان محمد على لا يبرم أمرا دون مشورته ومراجعته، كان محمد على يستمد

شرعيته من شرعية هذا الرجل، لكن.. لعن الله السياسة وكل ما اشتق من السياسة بمكان! «ساس ويسوس سائس ومسوس» .

الصعود إلى القلعة

بدأ محمد على يشعر أن الزعامات الشعبية بقيادة النقيب عمر مكرم باتت تمثل عقبة أمام انفراده بالحكم المطلق، لكنه أسرَّها فى نفسه، وكان يحافظ على علاقته بتلك الزعامات إلى أقصى درجة، كان محمد على قد عاد لتوه من الإسكندرية يرفع أقواس النصر بعد طرد الإنجليز ورحيلهم من مصر، فما كاد يستريح بعض يوم حتى ثار الجند وتمرد قادتهم، فكان قرار محمد على بالانتقال من الأزبكية إلى القلعة. لكن انتقال محمد على من الأزبكية إلى القلعة لم يمر مرورا طبيعيا، فقد كان حدثا مهما فى مسيرة الرجل فى حكم مصر، كان الانتقال يمثل نقلة نوعية فى فلسفة الحكم والتواصل مع الجماهير، وتقول القراءة الاولى لهذه الواقعة إن محمد على بدأ يبتعد عن الجماهير وزعمائهم، وبات يضيق ذرعا بالتدخلات المتتالية للسيد عمر مكرم وباقى العلماء فى شئون الحكم، لقد كان انتقال محمد على إلى القلعة بسبب هجوم الجند على مقر الحكم بالأزبكية وكان فرصة ليبتعد محمد على عن الجماهير ومظالمهم وعن العلماء وتدخلاتهم.. يقول الرافعى:

" والواقع أن سكنى ولى الأمر فى الأزبكية، أى فى قلب العاصمة يجعله أميل إلى الإصغاء لمطالب الشعب إذا هاجت خواطره لأن الأزبكية كانت الميدان الذى تحتشد فيه الجموع إذا حفزها حافز من شكوى أو احتجاج فإذا ما سكنها ولى الأمر كان أقرب إلى رؤية مظاهرات الشعب وأدنى للاستماع إلى صيحاته ومطالبه، أما إذا استقر فى القلعة فكأنه يريد أن يمتنع فى قمة الجبل، ويضع نفسه مع المدافع المتسلطة على البلد، ويصم أذنيه عن سماع صيحات الجماهير، وينظر إلى القاهرة كما ينظر النسر المحلق فى السماء إلى فريسته على الأرض ولا يذهبن عنك أن القلعة تربض على ذروة المقطم، كما يربض الأسد فى عرينه، وهى بأبراجها ومدافعها تشرف على القاهرة وتتسلط عليها وكأنما بناها صلاح الدين الأيوبى فى ذلك الموقع ليتخذها الملوك والسلاطين معقلا

يتسلطون منه على المدينة العظيمة وأهلها، ويكفيك أن تصعد يوما إلى القلعة، وتمد نظرك إلى ما يتناوله الأفق لتتضاءل القاهرة أمامك، إذ تراها مبسوطة لعينيك بشوارعها ومبانيها وأشجارها وحدائقها كرقعة صغيرة، تكاد تكون فى حجم قبضة يديك، وعلى بسطة ذراعك، أو كأنها لوحة صغيرة من الرسوم الصامتة ولا تكاد ترى، إذ ترى أشباح الناس تتحرك فى شوارعها وطرقاتها فلا يمكن أن تميز بين مسيرهم ودبيب النمل، وهيهات أن تبلغ سمعك أصواتهم مهما علت أو اكتظت بهم الميادين فى مختلف نواحيها القريبة والبعيدة فالحاكم المستبد إذ يشاهد من القلعة تلك المدينة الكبرى منبسطة أمام نظره صامتة لا يسمع لها صوتا، جامدة لا يحس لها ركزا، ويرى نفسه فى ذلك العلو الشاهق تحف به الأبراج وفيها المدافع متحفزة فاغرة أفواهها على المدينة لا جرم أن تعتريه وساوس السلطة المطلقة، وتتملكه نزعات الاستبداد والبطش بمعارضيه، فمحمد على باشا قد انتقل إلى القلعة واتخذها معقلا له حينما قامت فتنة الجند الأرناؤوط، ومن يومها وهو يعتزم أن يستأثر بالحكم، فلا ينازعه فيه منازع، فبعد أن أخمد فتنة الجند اتجهت عزيمته إلى التخلص من الزعامة الشعبية فتم له ما أراد ".

وكما يقولون " الاتحاد قوة " فالطبيعى أن الفرقة ضعف، فعندما كان العلماء يداً واحدة وراء زعيمهم عمر مكرم كانت تحيطهم الهيبة وترعاهم عناية الله، وعندما دب الخلاف ودخلت المطامع الدنيوية بين العلماء ضعفت عزيمتهم، وتفتتت قوتهم، وبدأت المؤامرات والحيل تحاك ضد النقيب عمر مكرم حتى تم نفيه إلى دمياط لينتهى بذلك دور الزعامة الشعبية فى عصر محمد على باشا: يقول الجبرتى " وقعت بين أهل الأزهر منافسات بسبب أمور وأغراض نفسانية يطول شرحها، وتحزبوا حزبين، حزب مع الشيخ عبدالله الشرقاوى وحزب مع الشيخ محمد الأمير وهم الأكثر، وجعلوا الشيخ الأمير ناظرا على الجامع الأزهر، وكتبوا له تقريرا بذلك من القاضى، وختم عليه المشايخ والشيخ السادات والسيد عمر مكرم، وكانت النظارة شاغرة من أيام الفرنسيين، وكان يتقلدها أحد الأمراء المماليك فلما خرج الأمراء من مصر صارت تابعة لمشيخة الأزهر، فانفعل لذلك الشيخ الشرقاوى.. " يقول

الجبرتى فى موضع آخر " كان بين مشايخ العلم منافسات ومناورات ومحاسدات وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظر أوقافه".

ويضيف الجبرتى " وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء المماليك، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان، وأجروا الحبس والتعزير والضرب، وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميرى والفائض والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات ".

أنا لست الظالم وحدى.. فأنتم أظلم منى

اشتد الخلاف بين العلماء فى الوقت الذى عم البلاء والغلاء ونقصت الغلال ونقص إيراد النيل، وعم القحط وبدأ الناس يلجأون للعلماء مستغيثين بهم، لإعفائهم من الضرائب التى أفسدت حياتهم وبدأ العلماء يلجأون بدورهم إلى الباشا محمد على يطالبونه بالكف عن فرض ضرائب جديدة وتقليل الضرائب القديمة ورفع المظالم، لكن محمد على غضب غضبا شديدا، ونسب إليهم ظلم الأهالى، لأنه حينما أعفى أطيانهم من الضرائب الجديدة كانوا هم مع ذلك يقتضونها من الفلاحين وتهددهم بمراجعة ما نالهم من هذا الباب فقبلوا المراجعة، وكان هذا الجدل نذيرا باشتداد الخلاف بين محمد على باشا والعلماء واتفقوا على إقامة صلاة الاستسقاء، وهى الصلاة التى تقام إذا ما شح النيل للدعاء إلى الله.. قال الجبرتى " واجتمع المشايخ عند الباشا فقال لهم اعملوا استسقاء، وأمروا الفقراء والضعفاء والأطفال بالخروج إلى الصحراء وادعوا الله، فقال له الشيخ الشرقاوى ينبغى أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم.. فقال الباشا أنا لست الظالم وحدى وأنتم أظلم منى، فإنى رفعت عن حصتكم الفرد والفرض والمغارم إكراماً لكم، وأنتم تأخذونها من الفلاحين وعندى دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفى كيس، ولابد أنى أفحص ذلك، وكل ما وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة عن فلاحيه أرفع الحصة عنه... "

القطيعة بين الباشا والنقيب

كان لهذه الأحداث والحوادث أكبر الأثر فى اتساع شقة الخلاف بين محمد على وعمر مكرم. لقد طالب النقيب برفع المظالم، وكان طلبه بعزة وإباء وشموخ، كان يشعر أنه صاحب الحق وصاحب اليد الطولى ومن حقه مخاطبة الباشا بلغة حادة وعنيفة لمصلحة الجماهير والأهالى، أرسل محمد على إلى عمر مكرم كى يحضر إليه بالقلعة للتباحث والتشاور لكن الرجل رفض إجابة طلبه؛ حتى يتم رفع المظالم أولا، بدأت الرسل تتوالى بين الباشا والنقيب وكان كلاهما يصر على موقفه وكان العلماء المتصارعون يسعون بينهما بالغيبة والنميمة حتى اتسعت الهوة بين الرجلين.. وأرسل الباشا حامل أختامه لمقابلة العلماء لمعرفة مطالبهم ومظالمهم لرفعها للباشا.. يقول الجبرتى حول هذه المقابلة " حضر ديوان أفندى وقال إن الباشا يسلم عليكم ويسأل عن مطالبكم، فعرفوه بما سطروه إجمالا وبينوه له تفصيلا، فقال: ينبغى ذهابكم إليه وتخاطبونه مشافهة بما تريدون وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم وإنما القصد أن تلاطفوه فى الخطاب لأنه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم، ولا تقبل نفسه التحكم، وربما حمله غروره على حصوله ضرر بكم، وعدم إنفاذ الغرض فقالوا بلسان واحد: لا نذهب إليه أبدا ما دام يفعل هذه الفعال، فإذا رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه كما كنا فى السابق، وإنما بايعناه على العدل لا على الظلم والجور، فقال لهم ديوان أفندى وأنا قصدى أن تخاطبوه مشافهة، ويحصل إنفاذ الغرض، فقالوا: لا نجتمع عليه أبدا ولا نثير فتنة بل نلزم بيوتنا ونقتصر على حالنا ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا.

وأخذ ديوان أفندى العرضحال ووعدهم برد الجواب " كان هذا الاجتماع بين العلماء وسكرتير الباشا بمثابة لحظة فارقة فقد أيقن محمد على أن الفرصة مواتية لشق صفوفهم وإضعاف قوتهم، وبدأ محمد على يستميل بعض العلماء، ويؤلبهم على النقيب عمر مكرم يقول الجبرتى "إلى أن بدت الوحشة بين الباشا والسيد عمر مكرم فتولى كبر السعى عليه سرا هو وباقى الجماعة حسدا وطمعا ليخلص لهم الأمر دونه حتى أوقعوا به " ويضيف الجبرتى " وخذلان السيد عمر لما فى نفسه منه من عدم إنفاذ أغراضه

ومعارضته له فى غالب الأمور ويخشى صولته ويعلم أن الرعية والعامة تحته، وأمره إن شاء جمعهم وإن شاء فرقهم وهو الذى قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة تحته، وملّكه الإقليم ويرى أنه إن شاء فعل نقيض ذلك فطفق يجمع إليه بعض أفراد من أصحاب المظاهر ويختلى معه ويضحك إليه فيغتر بذلك، ويرى أنه صار من المقربين، وسيكون له شأن إن وافق ونصح فيفرغ له جراب حقده، ويجهده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة " أرسل الباشا مجددا إلى السيد النقيب عمر مكرم يطلب حضوره لكن الرجل رفض وقال " وإذا أصر الباشا على مظالمه فإننا نكتب إلى الباب العالى ونثير عليه الشعب وأنزله عن كرسيه كما أجلسته عليه".

حاول بعض العلماء التوسط بين الرجلين من جديد دونما جدوى، فإصرار السيد عمر مكرم كان له ما يبرره، فذهب رهط من العلماء لمقابلة الباشا فقال لهم " أنا لا أرد شفاعتكم ولا أقطع رجاءكم والواجب عليكم إذا رأيتم منى انحرافا أن تنصحونى، ثم أخذ يلوم السيد عمر مكرم على تخلفه وتعنته ويثنى على الباقين وقال عنه إنه فى كل وقت يعاندنى ويبطل أحكامى ويخوفنى بقيام الجمهور، فقال الشيخ المهدى - وكما يقول الرافعى - وهنا بيت القصيد " هو ليس إلا بنا وإذا خلا عنا فلا يساوى شيئا، إن هو إلا صاحب حرفة أو جابى وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين.. " يقول الجبرتى" فعند ذلك تبين قصد الباشا لهم؛ أى البطش بالسيد عمر ووافق ذلك ما فى نفوسهم من الحقد سيد عمر " ذهب العلماء بعد هذا الاجتماع إلى السيد عمر مكرم وأخبروه بما دار.. يقول الجبرتى " وحضروا عند السيد عمر وهو ممتلئ بالغيظ مما حصل من الشدود ونقض العهود وأخبروه أن الباشا لم يحصل منه خلاف وأنه قال أنا لا أرد شفاعتكم ولكن نفسى لا تقبل التحكم والواجب عليكم إذا رأيتمونى فعلت شيئا مخالفا أن تنصحونى وتتشفعوا فأنا لا أردكم ولا أمتنع عن قبول نصحكم، وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر فهذا لا يناسب منكم؛ وكأنكم تخوفوننى بهذا الاجتماع وتهيج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون أيام المماليك، فأنا لا أفزع من ذلك وإذا حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندى إلا السيف والانتقام.. انتهت المقابلة من غير جدوى وانفض ذلك المجلس والمؤامرة

ماضية فى سبيلها وهنا يقول الجبرتى " قاموا منصرفين وانفتح بينهم باب النفاق واستمر القال، والقيل وكل حريص على حفظ نفسه وزيادة شهرته وسمعته ومظهر خلاف ما فى ضميره " ...." فحلف السيد عمر أنه لا يطلع إليه ولا يجتمع به ولا يرى له وجها إلا إذا أبطل هذه الأحدوثات وقال إن جميع الناس يتهموننى معه ويزعمون أنه لا يتجارى عن شئ يفعله إلا بالاتفاق معى ويكفى ما مضى، ومهما تقادم يتزايد فى الظلم والجور " وقد فشلت جميع المحاولات للتوفيق بين الرجلين، وازداد حنق «محمد على» على عمر مكرم بعد رفض الأخير التوقيع على بيان المصروفات الذى حرره محمد على لإرساله إلى الأستانة عاصمة الخلافة العثمانية والذى تضمن إنفاق أربعة آلاف كيس ذكر محمد على أنها أنفقت فى أمور تخص البلاد ومحاربة المماليك وحفر الترع وخلافه، وقد شكك السيد عمر مكرم فى هذه المصروفات، وقال للرسول الذى حمله إليه " أما ما صرفه على ترعة الفرعونية فإن الذى جمعه وجباه من البلاد يزيد على ماصرفه أضعافا كثيرة، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذه من القطر المصرى من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر " يقول الرافعى حول هذه الواقعة: " كان جوابا جافا شديد اللهجة فلما عاد الرسول إلى محمد على اشتد حنقه وغضبه على عمر مكرم وطلبه من جديد لمقابلته فأصر النقيب عمر مكرم على الامتناع، فلما كثر التراسل بينهما فى هذا الشأن قال السيد عمر إن كان ولابد فأجتمع به فى بيت السادات وأما طلوعى إليه فلن يكون، فلما بلغ الجواب محمد على ازداد حنقه وكبر عليه أن يشترط عليه السيد عمر مكرم أن تكون المقابلة بينهما فى دار غير مقر حكمه، وقال: هل بلغ له أن يزدرينى ويأمرنى بالنزول من محل حكمى إلى بيوت الناس، وصمم على البطش به، ومع بلوغ الأزمة هذا الحد **كان محمد على باشا يحسب حسابا كبيرا لمكانة السيد عمر فى الجمهور**، فلم يفكر فى أن يكون العقاب من نوع ما كان مألوفا فى ذلك العصر من القتل أو السجن، بل اعتزم أن يعزله من نقابة الأشراف وينفيه إلى دمياط ليبعده عن القاهرة، حيث له من النفوذ ما يجعل أهلها رهن إشارة تصدر منه، ورأى بثاقب نظره أن يكون عقابه متفقا فى ظاهره مع الأوضاع الشرعية المألوفة وقتئذٍ وذلك بأن يدعوه إلى الاحتكام فيما شجر بينهما من الخلاف إلى القاضى والشيوخ،

وكان مطمئنا من قبل إلى حكمهم، واثقا من تحيزهم وبهذه الوسيلة يضع السيد عمر مكرم فى موقف حرج فإذا هو أجاب الدعوة وقبل حكم القاضى والشيوخ، خرج من التقاضى مغلوبا؛ وحينئذ يكون لمحمد على باشا أن ينفيه جزاء خروجه بدون حق على ولى الأمر، وإن لم يحضر كان امتناعه فى ذاته خروجا أيضا على السلطة الشرعية، فالمؤامرة كانت إذا محكمة التدبير ولولا نقض الشيوخ للعهود والمواثيق لما استطاع محمد على باشا أن ينال من خصمه منالا.

وفى صبيحة اليوم التاسع من أغسطس سنة ١٨٠٩ هـ نزل محمد على باشا من القلعة إلى الأزبكية، حيث سراى ابنه إبراهيم وطلب القاضى والمشايخ، وأرسل إلى السيد عمر مكرم رسولا من طرفه ورسولا من طرف القاضى يستدعيانه للحضور ليحتكم وإياه لديهم، لكن السيد عمر مكرم أبى ورفض رفضا قاطعا الذهاب إلى محمد على لأنه كان يعلم علم اليقين نتيجة ذلك مقدما، وإزاء هذا الموقف ما كان من محمد على باشا إلا أن أمر فى حضرة القاضى والشيوخ بما يلى:

- **عزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط.**
- **تعيين السيد محمد السادات نقيباً للأشراف بدلاً من عمر مكرم.**

لكن الزعيم عمر مكرم قابل هذه القرارات بالثبات وقال: "أما منصب النقابة فإنى راغب عنه زاهد وليس فيه إلا التعب، وأما النفى فهو غاية مطلوبى.. "

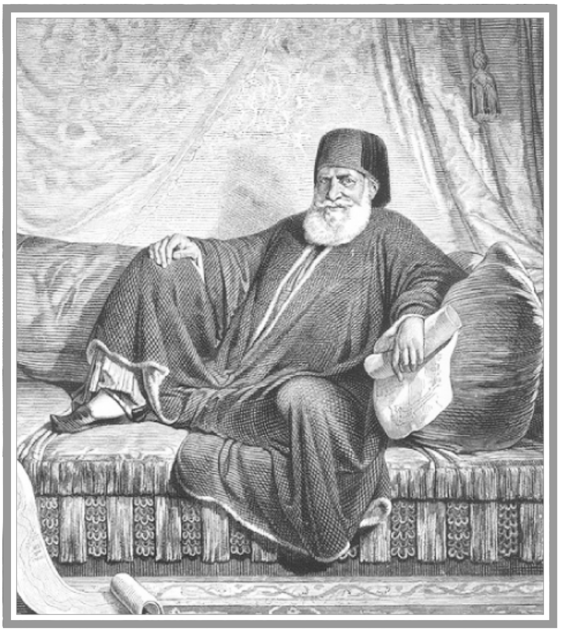
فى مشهد مؤثر وجو حزين غادر الزعيم عمر مكرم القاهرة إلى دمياط (١٨٠٩) حيث استمر بها قرابة أربع سنوات ثم تم نقله إلى طنطا (١٨١٣) والتى استمر بها قرابة خمس سنوات، وفى عام ١٨١٨ طلب السيد عمر مكرم الإذن بأداء فريضة الحج، وكان محمد على قد بلغ قمة المجد كما يقول الرافعى، حيث قضى على الوهابيين وذاع صيته فى الخافقين، وتذكر هذا المنفى العظيم الذى كان له الفضل أكبر الفضل فى إجلاسه على عرش مصر، فتلطف بقبول طلبه، وأذن له بالذهاب إلى القاهرة وأن يقيم بداره إلى أوان الحج، وذكر صديقه القديم بالخير وقال لجلسائه " أنا لم أتركه فى الغربة هذه المدة إلا خوفا من الفتنة، والآن لم يبق شئ من ذلك، فإنه أبى، وبينى

وبينه مالا أنساه من المحبة والمعروف " وأرسل محمد على خطابا رقيقا يجيبه طلبه جاء فيه " أما بعد فقد ورد الكتاب اللطيف، من الجناب الشريف، تهنئة بما أنعم الله علينا وفرحا بمواهب تأييده لنا، فكان ذلك مزيدا فى السرور، ومستديما لحمد الشكور، ومجلبة لثناكم، وإعلانا بنبل مناكم، جزيتم حسن الثناء، مع كمال الوقار ونيل المنى، هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الإذن فى الحج إلى البيت الحرام، وزيارة روضته عليه الصلاة و السلام، للرغبة فى ذلك والترجى لما هنالك، وقد أذناكم فى هذا المرام، تقربا لذى الجلال والإكرام، ورجاء لدعواتكم بتلك المشاعر العظام، فلا تدعو الابتهال ولا الدعاء لنا بالقال والحال، كما هو الظن فى الطاهرين، والمأمول من الأصفياء المقبولين، والواصل لكم جواب منا، ولكم الإجلال والاحترام، مع جزيل الثناء والسلام.

ووصل الزعيم عمر مكرم إلى القاهرة فى عام ١٨١٨ واستقبلته الجماهير استقبالا يليق بوطنيته وزعامته ونظم الشعراء لمقدمه شعرا ودبج الخطباء خطبا وكان محمد على وقتها بالإسكندرية، وبالفعل قام عمر مكرم بأداء الفريضة فى العام نفسه (١٨١٨) ثم عاد من الحج إلى القاهرة، واستمرت إقامته بها حتى عام ١٨٢٢، حيث تم نفيه من جديد إلى طنطا بعد أن خاف محمد على من تأثير الزعيم عمر مكرم على الجماهير التى بدأت بالفعل تستحضر روح الثورة والعزة بعد عودته من منفاه، وتوفى الرجل فى العام نفسه، وقضى الأمر ودانت مصر لمحمد على باشا الكبير.



الفصل السادس



مذبحة القلعة



فى عـام ١١٩٣ مـات القـائد صـلاح الديـن الأيوبى أشـهـر سـلاطين مـصـر، وضـعـفت الدولة الأيوبيـة كـثـيـرا بعـد وفـاته، ودبت الخـلافـات وامـتـدت الانقـسـامـات بين أعـضـاء الأسـرة الأيوبيـة، وكـان الصـراع على السلطة هو العنوان الرئيسى لهذه المرحلة الحرجة، وقام الأيوبيون بشراء ألفين من العبيد صـغـار السن من مـغـول جنكيـز خـان.. هؤلاء العـبـيـد كـانوا من الذين تم اختطافهم من بلادهم إبان الغارات والحروب المدمرة التى كان يقوم بها المغول بقيادة جنكيز خان.. هؤلاء العبيد من أصل قوقازى وكما تقول الكاتبة نيفين يسرى فى كتابها " قسمة " : " كان غالبية هؤلاء الشباب من الشراكسة وتم أولا هدايتهم إلى الإسـلام، ثم تربيتـهم وتدريبهم على فنون الحـرب والإدارة، هذا الشباب ذو طبع فخور ومتهور سرعان ما تحولوا تحت التدريب العسكرى العنيف إلى فرقة شرسة، ومع مرور الوقت أدركت هذه الفرقة مدى قوتها؛ فقاموا بقتل سيدهم والاستيلاء على العرش ليبدأ عصر طغيان السلاطين المماليك ".

استمر حكم سلاطين المماليك قرابة قرنين ونصف القرن من الزمان، حيث سيطروا على مقاليد الأمور من عام ١٢٥٠ وحتى ١٥١٧م، انتزع المماليك راية الحكم من الأيوبيين، وظلوا محـافظين عليها حتى انتـزع العثمانيون الراية نفسها بعد شنق طومان باى فى عام ١٥١٧م على باب زويلة.. تقول نيفين يسرى فى هذا الصدد.. " لكن السلطان العثمانى سليم الأول سمح للمماليك بالاحتفاظ بالثروات الطائلة والأراضى التى كانوا قد استولوا عليها فى فترة نفوذهم وبذلك بقى المماليك أصحاب نفوذ وجبروت، ولم ينسوا أنهم أسياد

هذا البلد لمدة قرنين ونصف القرن من الزمان فظلت تراودهم فكرة استعادة العرش المغتصب منهم وصارت مثل الكابوس.. " كان المماليك يتحينون الفرصة تلو الأخرى للوثوب على الحكم، خاصة أن الولاة العثمانيين كانوا فى حالة من الضعف لا تساعد على التخلص من المماليك وعندما تولى محمد على الحكم كان المماليك بمثابة الشوكة القوية التى تؤلمه كثيرا، لقد حاول محمد على مراراً استخدام دهائه ومواءماته السياسية لتحييد المماليك، لكنه فى كل الأحوال لم يأمن جانبهم يوماً ما، كان يعلم علم اليقين أن المماليك يكرهونه ويحقدون عليه، وعازمون على التخلص منه متى أتيحت الفرصة، لكن مجريات الأحداث كانت متسارعة وعنيفة فلم يستطع الرجل أن يتفرغ يوما ما للتخلص من المماليك، لكن هذه المرة لم يعد أمام الرجل من خيار سوى التخلص منهم بأى وسيلة، كان الجيش المصرى فى انتظار الإشارة للتحرك صوب الحجاز للقضاء على الحركة الوهابية بتكليف مباشر من السلطان العثمانى، وأثناء قيام محمد على بالتجهيزات اللازمة للجيش المصرى وصلته أخبار مؤكدة بأن المماليك بقيادة شاهين بك ينوون استغلال الظروف الصعبة التى يمر بها محمد لاستعادة الحكم، وفرض السيطرة على مصر، كانت الخطة المملوكية تتحين الفرصة.. وهل هناك فرصة مناسبة أفضل من وجود محمد على خارج القاهرة، حيث يذهب للإشراف بنفسه على التجهيزات العسكرية بمدينة السويس، كان العسس والمخبرون التابعون لمحمد على فى غاية النشاط، فكان محمد على يغير خططه وتنقلاته وتحركاته تبعا للأخبار والمعلومات الواردة عن مؤامرات المماليك التى يحيكونها ضده، لكن الوضع ما عاد يحتمل تلك المناورات، فالبلاد فى حالة حرب خارجية، ولا وقت لهذه الصراعات، بيد أن الرجل قد اتخذ قراره.. وكان القرار الأخطر فى حياته.

التصفية الجسدية!!

وجاء وقت التصفية الجسدية التى عرفت فى كتب التاريخ بـ «مذبحة القلعة»، تلك المذبحة التى كان عنوانها الكبير «أشلاء هنا ودماء هناك» وكانت التفاصيل فزعا ورعبا وخوف وجثثا ممزقة متناثرة وجماجم، كانت رائحة الموت تنتشر فى كل مكان، كانت الدماء تتدفق من الرقاب المنحورة والرءوس

المتطايرة لتزيد من حالة الفزع والهياج؛ لقد اختلط صراخ الرجال بصهيل الجياد بأصوات البنادق والسيوف كانت الخطة محكمة وكان محمد على يراقب الموقف بمشاعر جامدة لقد ارتدى معطفا من الثلج وكانت قسمات وجهه كأنها منقوشة على تمثال من شمع، كانت عيونه ذات اللون الأزرق الفولاذى تصدر بريقا ولمعانا لا يقوى إنسان على متابعته بنظراته، كان الرجل يعلم أنه اتخذ القرار الصعب لكنه على يقين بأن هذا القرار كان قرار المماليك أولاً، لقد نهجوا مبدأ «التصفية الجسدية» كطريق للتخلص من الخصوم السياسيين، هو يرى أنه حاربهم بالطريقة نفسها التى يجيدونها ويطبقونها! إذ بات الرجل على قناعة بأنه إما قاتلهم اليوم أو مقتول بأيديهم غداً، كانت مجريات الأمور تحتم أن يختفى أحد الطرفين من الميدان نهائياً، كان المماليك يحاولون بكل ما لديهم من رصيد مؤامراتى رهيب، وكان الرجل يتجنب ذلك بكل ما أوتى من دهاء وجبروت، لقد كان كل منهما يتحين الفرصة للانقضاض على الآخر بيد أن المعركة والصراع لم يكونا فقط على السلطة والحكم، بل كانا بين عصابة العبودية والتخلف والماضى السحيق من ناحية وزمرة الحرية والتقدم والمستقبل المشرق من ناحية أخرى، كان المماليك يحكمون مصر بعقلية العبيد.. فكل الرؤى والاستراتيجيات لدى المماليك كانت تنبثق من فكرة المؤامرة، كانت القاهرة تعيش فى جو سياسى خانق عنوانه العريض «الخوف والرعب والقلق والتآمر»، كان المصريون يحلمون بعصر جديد من الحرية والاحترام والعدل، لقد كان محمد على يمثل الحلم الكبير بالنسبة للمصريين، وهو ما جعل علماء وزعماء مصر بقيادة عمر مكرم يقفون وقفة حاسمة ضد المماليك لصالح محمد على.

إن تفاصيل المذبحة تقشعر منها الأبدان وتنخلع من هولها القلوب، لكن الحق والحقيقة ومتطلبات الأمور كانت تجعل من هذه المذبحة ضرورة لا مفر منها، كانت كالمعادلة الرياضية التى لا جدال فيها، مقدمات ومعطيات يلزمها نتائج وبراهين، وبصرف النظر عن الجوانب الإنسانية والأخلاقية، وبصرف النظر عن مبادئ الشهامة والرجولة وواجبات الضيافة والمواثيق والعهود.. بصرف النظر عن كل ذلك تبقى الضرورة السياسية لهذه المذبحة التى فتحت لمصر آفاق المستقبل على مصاريعها، كانت دماء المماليك هى التربة الخصبة

التى نمت وترعرعت فيها وعليها الإمبراطورية المصرية التى صنعها وبناها وشيدها محمد على باشا.. لم تكن مصر تحتمل مزيداً من فوضى العبيد المماليك، فكانت مذبحة القلعة التى تحملها محمد على وحده أخلاقيا وإنسانيا أمام الله.. وأمام التاريخ لكن مصر الدولة والشعب كانت هى الرابحة لاشك فى ذلك، وهنا أترك للقارئ أن يتخيل الصورة المغايرة أو المقابلة لمذبحة القلعة، أى ماذا لو قتل محمد على وقفز المماليك إلى حكم مصر من جديد؟

وهنا أود استعراض ما قيل عن مذبحة القلعة فى العديد من الكتابات التاريخية، حيث هناك العديد من الرؤى والآراء والقراءات والزوايا أحاطت ببعضها الكاتبة نيفين يسرى فى كتابها الشيق " قسمة " تقول:

" وأثناء وجود محمد على فى السويس للإشراف على سير التجهيزات الخاصة بالحملة على الحجاز علم بنية زعيم المماليك شاهين بك للاستيلاء على الحكم فور رحيل الباشا إلى السويس فكان رد فعله فورياً، فقال لرئيس المخبرين السريين الذى جاء ليخبره بخيانة شاهين بك لقد حان الوقت ليفهم البكوات من الذى يحكم هذا البلد.. إنهم لم يكفوا عن التآمر ضد محمد على وهذه الفوضى وتلك الحروب الداخلية المزمنة عقبة أساسية فى تقدم البلد.. وإنها السبيل الأكيد لانهياره وضياعه. وبعث محمد على بمندوب إلى السلطان العثمانى يقترح عليه تأجيل الحملة على الوهابيين إلى أن تستقر الأمور فى مصر؛ إلا أن السلطان محمود لرغبته فى الخلاص من الوهابيين أمر محمد على بالقيام بالحملة دون تأجيل، وأدرك محمد على استحالة ترك البلاد فى مثل هذه الظروف، ولكنه فى الوقت نفسه لم يرغب فى مخالفة أوامر السلطان والدخول معه فى تصادم صريح، فلجأ إلى حيلة وسط، حيث عين ابنه الأوسط الشاب طوسون باشا قائدا لقوات الحملة على شبه جزيرة العرب بدلا منه، وعلى شرف تلك الترقية أقام حفلا هائلا فى القلعة يتم فيه دعوة المماليك البكوات ومساعديهم وأنصارهم وفى ذلك اليوم وقف الباشا لاستقبال ضيوفه مع حاشيته أمام قصر الجوهرة، ودخل المماليك فى تسلسل، يتقدمهم زعيمهم شاهين بك الذى كان قد

خطط للاستيلاء على العرش عقب سفر الباشا مع الحملة.

وصل المماليك وتبادلوا التحية مع الباشا وقدم المماليك التهنئة الواجبة لتعيين طوسون باشا قائداً لجيش الحملة على شبه جزيرة العرب لإخماد الحركة الوهابية المتطرفة، وكان الحفل رائعا وقدم فيه أشهى المأكولات.. بعد الغداء قدمت عروض موسيقية فى أماكن مختلفة ورقصات الخيل فى الخارج وقام البعض بالتنزه والاستمتاع بمنظر القاهرة الممتد حتى الأهرامات من أعلى القلعة، أما فى الداخل فقد اتكأ المماليك على الأرائك يشاهدون الراقصات يتمايلن على أنغام تركية ويشربون القهوة ويدخنون النارجيلة، وساد الحفل جو من الهدوء والارتياح مع امتداد العصر أعطى شاهين بك إشارة الرحيل فقام البكوات الواحد تلو الآخر يقدمون للباشا شكرهم على هذه الدعوة الرائعة، ثم امتطى كل منهم فرسه وسار الموكب يتقدمهم الأوركسترا العسكرى بمارشات مدوية، يليه سرية من حرس الشرف، ثم المماليك يتقدمهم شاهين بك ومن خلفهم سرية من حرس الباشا كان منظراً رائعاً من حيث العظمة والألوان البهيجة ولم يتنبه أى من المماليك الشكاكين إلى أن الموكب لم يخرج من نفس الطريق الذى كانوا قد دخلوا منه من خلال بوابة الباب الجديد، ولكنه سار فى طريق ضيق على جانبيه جدران عالية ابتداءً من البوابة الداخلية وتسمى " باب وسطانى " إلى البوابة الخارجية للقلعة وتسمى " باب العزب " وكان جنود الباشا ينظرون من أعلى الجدران إلى المماليك وهم يسيرون متلاصقين جنباً إلى جنب، حيث لم يكن ممكناً لأى منهم العودة إلى الخلف، وما أن خطت الفرقة العسكرية البوابة الخارجية للقلعة ومن خلفها سرية حرس الشرف حتى وجد المماليك باب العزب يغلق فى وجوههم كما أغلقت بوابة " الباب الوسطانى " من خلفهم، وبدأ سيل من الرصاص ينهال عليهم من الجنود الواقفين على الجدران والبكوات ومساعديهم وأنصارهم محشورين فى المصيدة لا يستطيعون التقدم ولا التقهقر ما كان منذ دقائق عرضا بهيجا رائعا تحول فى ثوان إلى كابوس بشع، نهر من الدماء كان يسيل على الطريق المنحدر وكانً الصراخ يملأ الأجواء.. صراخ رعب.. صراخ فزع.. صراخ غيظ.. صراخ ألم.. صراخ موت.. كان صدى الموت يرتد من الجدران فيزيد من فظاعة المشهد، وأصيبت الخيل بحالة من الهياج فأخذت تطلق صهيلها وترفس

وتدهس بحوافرها من وقع تحت أقدامها من مصاب ومقتول، أما محمد على فظل جالساً فى صمت ينظر إلى الفراغ.. فماذا كان يدور فى ذهنه فى تلك اللحظة.. لا يعلم ذلك إلا الله!!

الأبشع إنسانياً.. الأروع سياسياً

يقول الجبرتى حول هذه الواقعة الأبشع إنسانيا والأروع سياسياً على مر التاريخ: " فلما أصبح يوم الجمعة ركب الجميع وطلعوا إلى القلعة وطلع المماليك وأتباعهم وأجنادهم فدخل الأمراء عند الباشا وصبحوا عليه وجلسوا معه حصة، وشربوا القهوة، وتضاحك معهم، ثم انجر المركب على الوضع الذى رتبوه فانجر طائفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون على، ومن خلفهم الوالى والمحتسب والأغا والوجاقلية والألداشات المصرية ومن تزيا بزيهم، ومن خلفهم طوائف العسكر الرجالة والخيالة والبيكباشيات وأرباب المناصب منهم وإبراهيم أغا آغات الباب، وسليمان بك البواب يذهب ويجئ ويرتب الموكب.. وكان الباشا قد بيت مع " حسن باشا " " وصالح قوج " " والكتخدا " فقط غدر المماليك وقتلهم، وأسَّر بذلك فى الصباح لإبراهيم أغا آغات الباب، فلما انجر الموكب وفرغ طائفة الدلاة ومن خلفهم من الوجاقلية والألداشات، وانفصلوا من باب العزب فعند ذلك أمر صالح قوج بغلق الباب وعرف طائفته بالمراد فالتفوا ضاربين بالمماليك، وقد انحصروا بأجمعهم فى المضيق المنحدر من الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب مسافة ما بين الباب الأعلى الذى يتوصل منه إلى رحبة سوق القلعة إلى الباب الأسفل وقد أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على علاوى النقر من الحجر والحيطان فلما حصل الضرب من التحتانيين أراد الأمراء الرجوع القهقرى فلم يمكنهم ذلك لانتظام الخيول فى مضيق النقر وأخذهم ضرب البنادق والقرابين من خلفهم أيضاً وعلم العسكر الواقفون بالأعلى المراد فضربوا أيضاً فلما نظروا ما حل بهم «أسقط فى أيديهم» وارتبكوا فى أنفسهم وتحيروا فى أمرهم ووقع منهم أشخاص كثيرة فنزلوا عن الخيول واقتحم شاهين بك وسليمان بك البواب وآخرون فى عدة من مماليكهم راجعين إلى فوق والرصاص نازل عليهم من كل ناحية ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة ولم يزالوا سائرين وشاهرين سيوفهم حتى وصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة وقد سقط أكثرهم.

وأصيب شاهين بك وسقط إلى الأرض فقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى الباشا ليأخذوا عليها البقشيش، وكان الباشا عندما ساروا بالموكب ركب من ديوان السراية وذهب إلى البيت الذى به الحريم وهو بيت إسماعيل أفندى الضربخانة، وأما سليمان بك البواب فهرب من حلاوة الروح وصعد إلى حائط البرج الكبير فتابعوه بالضرب حتى سقط وقطعوا رأسه أيضاً وهرب كثير إلى بيت طوسون باشا يظن الالتجاء به والاحتماء فيه فقتلوهم وأسرف العسكر فى قتل المماليك وسلب ما عليهم من الثياب ولم يرحموا أحداً وأظهروا كامن حقدهم وضبعوا فيهم وفيمن رافقهم متجملا معهم من أولاد الناس وأهالى البلد الذين تزينوا بزيهم لزينة الموكب وهم يصرخون ويستغيثون ومنهم من يقول أنا لست جندياً ولا مملوكاً وآخر يقول أنا لست من قبيلتهم فلم يرقوا لصارخ ولا شاك ولا مستغيث وتتبعوا المتشتتين والهربانين فى نواحى القاعة وزواياها والذين فروا ودخلوا فى البيوت والأماكن وقبضوا على من أمسك حياً ولم يمت من الرصاص أو متخلفاً عن الموكب وجالساً مع الكتخدا كأحمد بك الكيلارجى ويحيى بك الألفى وعلى كاشف الكبير فسلبوا ثيابهم وجمعوهم إلى السجن تحت مجلس كتخدا بك.

ثم أحضروا أيضاً المشاعل لرمى أعناقهم فى حوش الديوان واحداً من ضحوة النهار إلى أن مضى حصة من الليل فى المشاعل حتى امتلأ الحوش من القتلى ومن مات من المشاهير المعروفين وانصرع فى طريق القلعة قطعوا رأسه وسحبوا جثته إلى باقى الجثث حتى أنهم ربطوا فى رجلى شاهين بك ويديه حبلا وسحبوه على الأرض مثل الحمار الميت إلى حوش الديوان.. هذا ما حصل بالقلعة، وأما أسفل المدينة فإنه عندما أغلق باب القلعة وسمع منه بالرميلة صوت الرصاص وقعت الكرشة فى الناس وهرب من كان واقفاً بالرميلة من الأجناد فى انتظار الموكب وكذلك المتفرجون واتصلت الكرشة بأسواق المدينة فانزعجوا وهرب من كان بالحوانيت لانتظار الفرجة وأغلق الناس حوانيتهم وليس لأحد علم بما حصل وظنوا ظنوناً، وعندما تحقق العسكر حصول الواقعة وقتل الأمراء أنبثوا كالجراد المنتشر إلى بيوت الأمراء المماليك ومن جاورهم طالبين النهب والغنيمة فولجوها بغتة ونهبوها نهباً ذريعاً وهتكوا الحرائر وسحبوا النساء والجوارى والخوندات والستات وسلبوا

مـا عليـهم من الحلى والجـواهـر والثـيـاب وأظهـروا الكامن فى نفـوسـهم ولم يجدوا مانعاً ولا رادعاً وبعضهم قبض على يد امرأة ليأخذ منها السوار فلم يتمكن من نزعها بسرعة فقطع يد المرأة وحل بالناس فى بقية ذلك اليوم من الفـزع والخـوف وتوقع المكروه مـالا يوصف لأن المـماليك والاجناد تدخلوا وسكنوا فى الحارات والنواحى وكل أمير له دار كبير فيها عياله وأتباعه ومماليكه وخيوله وجماله وله دار وداران صغيران فى داخل العطف ونواحى الأزهر والمشهد الحسينى يوزعون فيه ما يخافون عليه لظنهم بعدها وحمايتها وصونها عند وقوع الحوادث وكثير من كبار العسكر مجاورون لهم فى جميع النواحى ويرمقون أحوالهم ويطلعون على أكثر حركاتهم وسكناتهم ويتدخلون فيهم ويعاشرونهم ويسامرونهم بالليل ويظهرون لهم الصداقة والمحبة وقلوبهم محشوة من الحقد عليهم والكراهية لهم ولجميع أبناء العرب فلما حصلت هذه الحادثة بدروا لتحصيل مأمولهم وأظهروا ما كان مخفيا فى صدورهم وخصوصا من التشفى فى النساء فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدنى امرأة يتزوج بها فلا ترضى به وتعافه وتأنف قربه وإن ألح عليها استجارت بمن يحميها منه وإلا هربت من بيتها واختفت شهورا وذلك بخلاف إذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك أجابته فى الحال وبات الناس وأصبحوا على ذلك، ونهب فى هذه الحادثة من الأموال والأمتعة مالا يقدره ويحصيه إلا الله سبحانه وتعالى، ونهبت دور كثيرة من دور الأعيان الذين ليسوا من المماليك المقصودين ومن المتقيدين لخدمة الباشا مثل ذى الفقار كتخدا المتولى خوليا على بساتين الباشا التى أنشأها بشبرا وبيت الأمير عثمان أغا الوردانى كاشف المورلى والأفندية الكتبة وغيرهم. وأصبح يوم السبت والنهب والقتل والقبض على المتوارين المختفين مستمرا ويدل البعض على البعض أو يغمز عليه وركب الباشا فى الضحوة ونزل من القلعة وحوله أمراؤه الكبار مشاة وأمامه الصفاشية والجاويشية بزينتهم وملابسهم الفاخرة والجميع مشاة ليس فيهم راكب سواه وهم محدقون به وأمامه وخلفه عدة وافرة والفرح والسرور بقتل المماليك ونهبهم والظفر بهم طافح من وجوههم، فكان كلما مر على أرباب الدرك والقلقات والضابطين ووقف عليهم وبخهم على النهب، وعدم منعهم لذلك والحال أنهم هم الذين كانوا ينهبون أولا ويتبعهم غيرهم.

فمر على العقادين الرومى والشوائين فخرج إليه شخص من تجار المغاربة يسمى العربى الحلو وصرخ فى وجهه وهو يقول " إيش هذا الحال وإيش لنا علاقة حتى ينهبنا العسكر ونحن ناس فقراء مغاربة متسببون ولسنا مماليكاً ولا أجناداً فوقف إليه وأرسل معه نفرا إلى داره فوجدوا بها شخصين أحدهما تركى والآخر بلدى وهما يلتقطان آخر النهب وما سقط من الناهبين فأمر بقتلهما فأخذوهما إلى باب الخلق وقطعوا رأسيهما.

ثم إنه عطف على جهة الكعكيين فلقيه من أخبره بأن المشايخ مجتمعون ونيتهم الركوب لملاقاته والسلام عليه والتهنئة بالظفر فقال: أنا ذاهب إليهم، ولم يزل فى سيره حتى دخل إلى بيت الشيخ الشرقاوى وجلس عنده ساعة لطيفة وكان قد التجأ إلى الشيخ شخصان من الكشافة فكلمه فى شأنهما وترجى عنده فى إعتاقهما من القتل وأن يؤمنهما على أنفسهما فقال له لا تفضح شيبتى يا ولدى واقبل شفاعتى وأعطهما محرمة الأمان فأجابه إلى ذلك، فقال له شفاعتك مقبولة ولكن نحن لا نعطى محارم، وأنا أمانى بالقول أو نكتب ورقة ونرسلها إليك بالأمان فاطمأن الشيخ لذلك. ثم قام الباشا وركب وطلع إلى القلعة وأرسل ورقة إلى الشيخ بطلبهما فقال لهما الشيخ إن الباشا أرسل هذه الورقة يؤمنكما ويطلبكما إليه فقالا وما يفعل بذهابنا إليه فلا شك فى أنه يقتلنا فقال الشيخ لا يصلح ذلك ولا يكون كيف أنه يأخذكم من بيتى ويقتلكم بعد أن قبل شفاعتى، فذهبا مع الرسول فعندما وصلا إلى الحوش وهو مملوء بالقتلى وضرب الرقاب واقع فى المحبوسين والمحضرين قبضوا عليهما وأدرجا فى ضمنهم وفى ذلك اليوم نزل طوسون ابن الباشا وقت نزول أبيه وشق المدينة وقتل شخصا من النهابين أيضاً فارتفع النهب وانكف العسكر عن ذلك، ولولا نزول الباشا وابنه فى صبح ذلك اليوم لنهب العسكر بقية المدينة وحصل منهم غاية الضرر، وأما القبض على الأجناد والمماليك فمستمر، وكذلك كل من كان يشبههم فى الملبس والزى. وأكثر من كان يقبض عليهم حسن باشا الأرناؤوطى فيكبسون عليهم فى الدور وفى الأماكن التى تواروا فيها واستدلوا عليهم فيقبضون على من يقبضون عليه وينهبون من الأماكن ما يمكنهم حمله وثياب النساء وحليهن ويسحبون الواحد والاثنين أو أكثر بينهم ويأخذون عمائمهم وثيابهم وما فى جيوبهم فى أثناء

الطريق وإذا كـان كبيراً أو أميراً يستحيى منه طلبوه بالرفق فإذا ظهر لهم قالوا سيدنا حسن باشا يستدعيك إليه فلا تخش من شئ ويطمئن قليلا ويظن أنهم يجبرونه وعلى أى حال لا يسعه إلا الإجابة لأنه إن امتنع أخذوه قهرا فإذا خرج من الدار استصحبه جماعة منهم وطلع البواقى إلى الدار فأخذوا ما قدروا عليه ولحقوا بهم وجرى على المأخوذ ما يجرى على أمثاله من المأخوذين والبعض توارى والتجأ إلى طائفة الدلاة الفلاحات اللاتى يبعن الجلة والجبنة وذهبوا فى ضمنهم وفر من نجى منهم وتزيا بشكلهم ولبس طرطورا وأجاروه وهرب كثير فى ذلك اليوم وخرجوا إلى قبلى تزيا بزى نساء الفلاحين وخرج إلى الشام وغيرها وأما كتخدا بك فإنه من شدة بغضه فيهم صار لا يرحم منهم أحدا فكان كل من أحضروه ولو فقيرا هرما من المماليك الأمراء الأقدمين يأمر بضرب عنقه وأرسل أوراقا إلى كشاف النواحى والأقاليم بقتل كل من وجدوه بالقرى والبلدان فوردت الرءوس فى ثانى يوم من النواحى فيضعونها بالرميلة وعلى مصطبة السبيل المواجه لباب زويلة وكان كثير من الأجناد بالأرياف لتحصيل الفرضة التى تعهدوا بدفعها عن فلاحيهم وانقضت أجلتهم وطلبوا بالدفع، والفلاحون قصرت أيديهم ولم يقبلوا للملتزمين عذرا فى التأخير، فلم يسعهم إلا الذهاب بأنفسهم لأجل خلاص المطلوب منهم للديوان فعندما وصلت الأوامر إلى كشاف الأقاليم بقتل الكائنين بالبلاد بادروا بقتل من يمكنهم قتله ومن بعد عنهم أرسلوا لهم العساكر فى محلاتهم فيدهمونهم على حين غفلة ويقتلونهم وينهبون متاعهم وما جمعوه من المال ويرسلون برءوسهم يتحيلون على القبض عليهم وقتلهم فصار يصل فى كل يوم العدد من الرءوس من قبلى وبحرى ويضعونها على باب زويلة وباب القلعة ولم يقبلوا شفاعة فى أحد أبدا ويعطون الأمان للبعض فإذا حضروا قبضوا عليهم وشلحوهم ثيابهم وقتلوهم والباشا يعلم من كتخداه شدة الكراهة لجنس المماليك ففوض له الأمر فيهم حتى أنه كان بينه وبين محمد أغا كتخدا الجاويشية سابقا بعض منافرة من مدة سابقة أو لكونه صاهر بعض الألفية وزوجه ابنته وكان غائبا ببلده يقال لها الفرعونية جارية فى أقطاعه وتعهد بما عليها من الفرضة فذهب إليها بنفسه ليستخلص منها الفرضة والمال الميرى فأرسل الكتخدا بك إلى كاشف المنوفية قبل الحادث بيوم يأمره فيه بأمره فأرسل إليه طائفة من العسكر دخلوا عليه

فى الفجرية وهو يتوضأ لصلاة الصبح فقتلوه وقطعوا رأسه وأحضروها إلى مصر وكانوا يأتون بأشخاص من بقايا البيوت القديمة ويمثلونهم بين يد الكتخدا فيسألهم فيخبرون عن أنفسهم ونسبتهم فيكذبهم ويأمر بهم إلى الحبس الأعلى حتى يتبين أمرهم فإما تدركهم الألطاف فينجون بعد معاينة الموت وهذا فى النادر فقتل فى هذه الحادث أكثر من ألف إنسان أمراء وأجناد وكشاف ومماليك ثم صاروا يحملون رممهم على الأخشاب ويرمونهم عند المغسل بالرميلة ثم يرفعونهم ويلقونهم فى حفر من الأرض فوق بعضهم البعض، لا يتميز الأمير عن غيره، وسلخوا عدة رءوس من رءوس العظماء وألقوا جماجمهم المسلوخة على الرمم فى تلك الحفر فكانت هذه الكائنة من أبشع الحوادث التى لم يتفق مثلها ولم ينج من الألفية إلا أحمد بك زوج عديلة هانم بنت إبراهيم بك الكبير فإنه كان غائبا بناحية بوش وأمين بك تسلق من القلعة وهرب إلى ناحية الشام وعمر بك الألفى كان مسافرا فى ذلك اليوم إلى الفيوم فقتلوه هناك، وبعثوا برأسه إلى خمسة أيام ومعها نحو الخمسة عشر رأسا وأرسل دبوس أوغلى حاكم المنيا خمسة وثلاثين رأسا وحضر من ناحية بحرى غير ذلك كثير وختم الله للجميع بالخير فإنه بلغنى ممن عاينهم بالحبوس وفى حال القتل أنهم كانوا يقرءون القرآن وينطقون بالشهادتين والاستغفار وبعضهم طلب ماء وتوضأ وصلى ركعتين قبل أن يرمى عنقه ومن لم يجد ماء تيمم وصلى كذلك ".

أما المؤرخ الرصين عبد الرحمن الرافعى فقد ذكر فى كتابه عصر محمد على تحت عنوان مذبحة القلعة " أول مارس سنة ١٨١١ ":

" لما عاد محمد على باشا من الوجه القبلى أخذ يجهز جيشا ينفذه إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين تلبية لنداء الحكومة التركية وجعل يهيئ معدات الحملة فى أوائل ١٨١١ وعقد لواء قيادتها لابنه أحمد طوسون باشا، وأعد مهرجانا فخما بالقلعة حدد له يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ للاحتفال بإلباس ابنه خلعة القيادة ودعا رجال الدولة وأعيانها وكبار الموظفين العسكريين والملكيين لشهود ذلك الاحتفال الفخم وكان الترتيب أن يلبس طوسون باشا خلعة القيادة ثم ينزل من القلعة فى أبهته وموكبه مخترقا أهم شوارع المدينة ليصل إلى معسكر الحملة فى القبة وكان مثل هذا الاحتفال من

المواكب المشهودة التى تحتشد لها الجماهير، وقد دعا الباشا جميع الأمراء والبكوات والكشاف المماليك وأتباعهم لحضور الحفلة، فعد المماليك هذه الدعوة علامة الرضا من الباشا، وركبوا جميعا فى زينتهم وكبكبتهم، وارتدوا أجمل وأثمن ما عندهم من الملابس، وامتطوا خير ما لديهم من الجياد، وذهبوا صبيحة ذلك اليوم إلى القلعة قبل الموعد المضروب لركوب طوسون باشا.

وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك على محمد على باشا فى قاعة الاستقبال الكبرى فلقيهم بالبشر والحفاوة، وقدمت لهم القهوة، وشكرهم الباشا على إجابتهم دعوته، وألمح إلى ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه فى موكبه، فأجابوه بالشكر، واعتذروا عن تخلف بقية إخوانهم الذين ما زالوا فى الصعيد ولم يحضروا للاشتراك فى الاحتفال، فقابل الباشا الاعتذار بالتجاوز والإعراب عن تسامحه وحسن مقاصده للمتخلفين، وتجاذب هو وضيوفه أطراف الحديث هنيهة ثم ما لبث أن أذن مؤذن الرحيل، فقرعت الطبول وصدحت الموسيقى، فكان ذلك إعلانا بالتأهب لتحرك الموكب.

وعندئذٍ نهض المماليك وقوفا وبادلوا الباشا وبادلهم عبارات التحية والاحترام، وساروا إلى حيث يأخذون مكانهم فى الموكب الفخم، ولما تقلد الأمير طوسون باشا اللواء بدأ الركب يسير منحدرا من القلعة وتحرك الركب، تتقدمه طليعة من الفرسان الدلاة يقودها ضابط يدعى أوزون على، يتبعها والى الشرطة، والأغا " محافظ المدينة " والمحتسب، ويليهم الوجاقلية، ثم كوكبة من الجنود الأرناؤوط يقودهم صالح قوش ثم المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب، ومن بعدهم بقية الجنود الأرناؤوط فرسانا ومشاة، وعلى إثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب.

سار الموكب على هذا النظام منحدرا إلى باب العزب المتقدم ذكره، متسربا فى ذلك الطريق الضيق الوعر الذى وصفناه آنفا فاجتازت الباب طليعة الموكب، ثم رئيس الشرطة، ثم المحافظ ومن معه، ثم الوجاقلية، ولم يكد هؤلاء يجتازون باب العزب حتى ارتج الباب وأقفل من الخارج على حين فجاة إقفالا محكما فى وجه المماليك، ومن ورائهم الجنود الأرناؤوط، فلما رأى هؤلاء

الجنود الباب قد أقفل، وكانوا عالمين بما تدل عليه هذه الإشارة، تحولوا عن الطريق فى صمت وسكون، وتسلقوا الصخور التى تكتنفه وتعلوه يمينا وشمالا، وأخذوا مكانهم على الصخور والأسوار والحيطان المشرفة عليه، ولم يتنبه المماليك بادئ الأمر إلى أن الباب قد أقفل واستمروا يتقدمون متجهين إليه، ولكن لم تكد تبلغه صفوفهم الأولى حتى رأوه مقفلا فى وجوههم إقفالا محكما، وأبصروا الأرناؤوط يتسلقون الصخور المشرفة عليهم، فتوقفوا قليلا عن المسير، وتضامت صفوفهم المتلاحقة بعضها إثر بعض، ولم تمض هنيهة حتى دوى طلق الرصاص من نوافذ إحدى الثكنات، فكان هذا نذيرا بإنفاذ المؤامرة، ذلك أنه لم تكد تلك الطلقات تدوى فى الفضاء حتى انهال الرصاص دفعة واحدة على المماليك وهم محصورون فى هذا الطريق الغائر فى الأرض، فالباب الضخم مقفل فى وجوههم والجنود الارناؤوط من ورائهم، ومن فوقهم،وعن يمينهم، وشمالهم، يتناولونهم برصاص بنادقهم لم يستطع المماليك دفاعا عن أنفسهم، ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة أو الرجوع القهقرى، أو النزول عن جيادهم، لضيق المكان الذى حصروا فيه، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم، وهيهات أن تعمل السيوف فى ذلك الموقف شيئاً، فانصب عليهم الرصاص، وحصدهم حصدا، وجاءهم الموت من كل مكان.

ولما سقطت الصفوف المكشوفة من المماليك تخضبت بدمائها، أمكن للباقين أن يترجلوا عن جيادهم، وأرادوا النجاة بأنفسهم من تلك الحفرة المهلكة التى كانوا مكدسين فيها، فتسلق بعضهم الصخور المحيطة بالطريق بعد أن خلعوا ما كان عليهم من الفراوى والملابس الثمينة والثياب الفضفاضة ليسهل عليهم الفرار، ولكن الرصاص كان يتلقفهم أينما صعدوا، فلا تلبث أن تتساقط جثثهم فى جوف الطريق، ومن هؤلاء شاهين بك الألفى الذى تمكن فى عدة من مماليكه أن يتسلق الحائط وصعد إلى رحبة القلعة وانتهى إلى عتبة قصر صلاح الدين فعاجله الجنود الأرناؤوط برصاصة أردته صريعا، واستطاع سليمان بك البواب أن يجتاز الطريق وجسمه يقطر دما، ووصل إلى سراى الحرملك، واستغاث بالنساء صائحا " فى عرض الحريم " وكانت هذه الكلمة تكفى فى ذلك العهد لتجعل من يقولها فى مأمن من الهلاك، ولكن الجنود

عاجلوه بالضرب حتى قطعوا رأسه، وطرحت جثته بعيدا عن باب السراى، وتمكن بعض المماليك من الوصول إلى حيث كان طوسون باشا راكبا جواده منتظرا أن تنتهى تلك المأساة فتراموا على أقدامه طالبين الأمان، ولكنه وقف جامدا لا يبدى حراكا، وعاجلهم الجنود بالقتل، وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض فى ذلك المضيق، وعلى جوانبه حتى بلغ ارتفاع الجثث فى بعض الأمكنة إلى أمتار، واستمر القتل إلى أن افنى كل من دخلوا القلعة من المماليك، ومن لم يدركه الرصاص ممن وقع تحت جثث الآخرين أو فر فى نواحى القلعة أو تخلف عن الموكب، ساقه الأرناؤوط حياً إلى الكتخدا بك فأجهزوا عليه ضربا بالسيوف، واستمر القتل من ضحوة النهار إلى هزيع من اليل حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث.

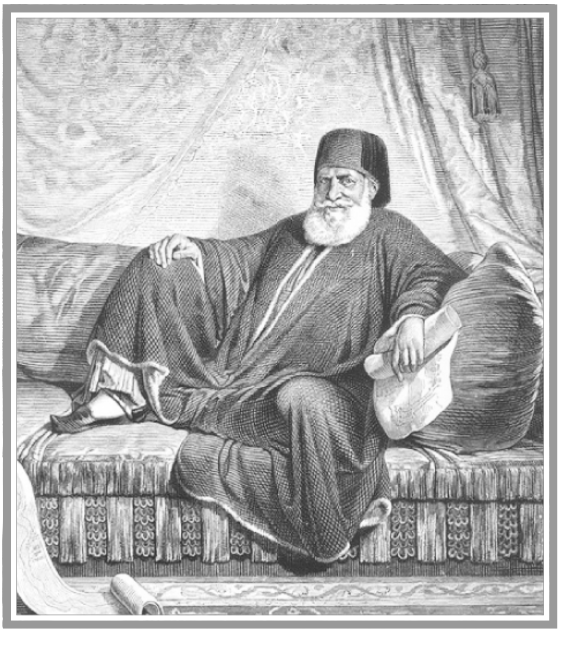
وهكذا دخل القلعة فى صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم، قتلوا جميعا ولم ينج منهم إلا واحد يسمى (أمين بك)، فإنه كان فى مؤخرة الصفوف، فلما رأى الرصاص ينهال على زملائه طلب النجاة فصعد بجواده إلى المكان المشرف على الطريق وبلغ سور القلعة، ورأى الموت محيطا به، فلم يجد منجى إلا أن يرمى بنفسه من أعلى السور إلى خارج القلعة، وكان الخطر المحقق فى تلك المحاولة، إذ يعلو السور عن الأرض ستين قدما، ولكنه خاطر بنفسه مؤثرا الموت عن القتل فلكز جواده فقفز به مترديا ولما صار على مقربة من الأرض قفز هو مترجلا، وترك الجواد يتلقى الصدمة فتهشم الجواد لفوره، ونجى أمين بك من الموت، ومضى يعدو فى طريق الصحراء وما زال يطوى الفدافد متنكراً حتى بلغ إلى جنوب سوريا. أحكم محمد على باشا تدبير المؤامرة فلم يقف على سرها إلا أربعة من خاصة رجاله وهم حسن باشا قائد الجنود الأرناؤوط والكتخدا بك محمد لاظ أوغلى وصالح قوش أحد ضباط الجنود وإبراهيم أغا حارس الباب وصالح قوش كان يقود كوكبة الجنود الأرناؤوط فى الموكب وهو الذى أمر بإقفال باب العزب وأعطى إشارة القتل إلى رجاله وبينما كان صالح قوش يتأهب لتنفيذ المؤامرة كان محمد على باشا جالسا فى قاعة الاستقبال ومعه أمناؤه الثلاثة فقد ظل فى مكانه هادئاً إلى أن بدأ الموكب يتحرك واقتربت اللحظة الرهيبة فساوره القلق والاضطراب وساد القاعة صمت عميق إلى أن سمع إطلاق أول

رصاصة وكانت إيذانا ببدء المذبحة فوقف محمد على وامتقع لونه وعلى وجهه الإصفرار وتنازعته الانفعالات المختلفة، وأخذ يسمع دوى الرصاص وصيحات الذعر والاستغاثة وهو صامت لا ينبس بكلمة، إلى أن حصد الموت معظم المماليك وأخذ صوت الرصاص يتضاءل وكان ذلك إعلاناً بانتهاء المؤامرة، عندئذ دخل عليه المسيو مندريشى طبيبه الإيطالى وقال له لقد قضى الأمر واليوم يوم سعيد لسموكم، فلم يجب محمد على بشىء، وطلب قدحا من الماء فشربه جرعة طويلة وخرج الكتخدا بك، وأخذ يجهز الباقين من المماليك فلم يكن أحد من سكان القاهرة يتنبأ قبل أن تقع المذبحة بما خبأه القدر بين أسوار القلعة فكانت الجماهير يعلوها الابتهاج محتشدة فى الشوارع المعدة لسير الموكب تنتظر مروره، ولقد مرت طليعة الموكب بين جموع المتفرجين وأخذ الناس يترقبون بهف مرور الصفوف التى تليها، ثم انقطع تلاحق الصفوف فعجب الناس وطفقوا يتساءلون عن السبب وذهبت أفكارهم فى تفسير ذلك مذاهب شتى، وفيما هم ينتظرون قدوم الصفوف المتأخرة سمع المحتشدون فى ميدان الرميلة الذى بأسفل القلعة صوت الرصاص يدوى فى الفضاء بعد أن أقفل باب العزب فسرى الذعر إلى الناس، إذ وصل خبر المذبحة إلى الجماهير القريبة من القلعة وصاح صائح " قتل شاهين بك وسرعان ماذاع الخبر بسرعة البرق إلى مختلف الأنحاء فتفرقت الجماهير وأقفلت الدكاكين والأسوار وهرع الناس إلى منازلهم وخلت الشوارع والطرقات من المارة وأعقب هذا الذعر نزول جماعات من جنود الأرناؤوط إلى المدينة يقصدون بيوت المماليك فى أنحاء القاهرة فاقتحموها وأخذوا يفتكون بكل من يلقونه فيها من أتباعهم، وينهبون ما تصل إليه أيديهم ويغتصبون من النساء ما يحملن من الجواهر والحلى والنقود، واقترفوا فى ذلك اليوم واليوم الذى تلاه من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان ولم يكتفوا بالفتك بمن يلقونه من المماليك ونهب بيوتهم واغتصاب نسائهم، بل تجاوزوا بالقتل والنهب إلى البيوت المجاورة وبلغ عدد المنازل التى نهبوها خمسمائة منزل وأصبح اليوم التالى السبت والسلب والنهب والقتل مستمرا فى المدينة، واضطر محمد على باشا إلى النزول من القلعة فى ضحوة ذلك اليوم وحوله رؤساء جنده وحاشيته لوضع حد للنهب والاعتداء؛ فمر بالأحياء المهمة التى كانت هدفا لعدوان الأرناؤوط، وأمر بقطع رءوس من استمر فى النهب

والاعتداء، وكذلك فعل طوسون باشا ونبه على الأرناؤوط بأن يقتصروا على القبض على المماليك الذين بقوا أحياء لتخلفهم عن الذهاب إلى القلعة، فى اليوم المشهود وإرسالهم إلى القلعة فكان الكتخدا بك يأمر بقطع رءوسهم، ولم ينج منهم إلا من هرب من المدينة متخفيا وهاجر إلى الوجه القبلى، وكذلك أصدر محمد على أمره إلى كشاف المديريات باعتقال كل من يلقونه من المماليك وقتلهم، بلغ عدد من قتل من المماليك فى القلعة وفى أنحاء القاهرة والمديريات فى تلك الأيام الرهيبة نحو ١٠٠٠ من أمراء وكشاف وأجناد ومماليك ".



الفصل السابع



التعليم أصل الحكاية



بلغ اهتمام " محمد على " بالتعليم والبحث العلمى مبلغاً عظيماً، كانت طموحاته فى بناء إمبراطورية مصرية بمثابة البوصلة التى يهتدى بها الرجل فى جميع توجهاته ومساراته، أيقن الرجل أن البداية لابد أن تكون من التعليم والبحث العلمى، فالطموحات العملاقة لن يقوى على حملها إلا العمالقة المتعلمون، لقد كان الجهل والتخلف والمرض ثالوثا خطيرا يقبض علىٍ روح الأمة ويحطم آمالها وأحلامها، ولقد انتفض محمد على انتفاضةً مدويةً، وثار ثورة عارمة على الكسل والخمول والتخلف والرجعية والأمية.. كانت رؤى الرجل الإصلاحية تسبق عصره، وتجعله متفردا فى تفكيره، لقد كان التعليم بمثابة حجر الزاوية وضربة البداية فى بناء مصر الحديثة.

لقد قال محمد على قولته الخالدة:" إن فى أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف ".

فعندما استطاع " حسين شلبى عجوة " أحد أبناء مصر البسطاء اختراع آلة لضرب الأرز وتبييضه، وقدم نموذجها لمحمد على قابله الرجل بحفاوة بالغة وهنأه وقدم له الهدايا والمكافآت، وأمر على الفور بتعميم هذا الاختراع فى جميع أنحاء مصر المحروسة، وقال إن فى أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف، كان الرجل يراهن على إمكانيات هذا الشعب العظيم، كان يعلم أن هذا الشعب هو صانع الحضارات التى وعاها التاريخ، وفتح لها صفحاته الناصعة.. كان الرجل قد نوى بناء إمبراطورية مصرية قوية، كانت طموحاته فى حاجة ماسة إلى قوة بشرية وكانت القوة البشرية، تحتاج إلى قاعدة علمية وتعليمية.

ارتكز محمد على فى خطته للنهوض بالتعليم على المحاور الآتية :-

- انتقاء العناصر المميزة من دارسى الأزهر الشريف، ليكونوا نواة العملية النهضوية الشاملة.
- البدء فى إنشاء المدارس العليا المتخصصة لسرعة خلق وتكوين الكوادر التى تستطيع بدء المسيرجة.
- إرسال البعثات التعليمية والعلمية والعسكرية والثقافية المصرية إلى أوربا لنقل العلوم والثقافة.
- إنشاء المدارس المتوسطة والابتدائية ونشرهما فى ربوع القطر المصرى.
- التعليم مجانى فى جميع مراحله ومستوياته للجميع دون تمييز.
- على الدولة أن توفر حياة كريمة لطلاب العلم من حيث الملبس والمأكل وجميع النفقات الحياتية.
- ربط إنتاج العملية التعليمية والبحثية بخطط التنمية والبناء والتشييد فى المجتمع.
- المتابعة الدقيقة لسير العملية التعليمية والبحثية على أعلى مستويات الحكم.
- استقدام الخبرات الأجنبية إلى مصر للمساهمة فى النهوض بالعملية التعليمية.

وقد بدأ محمد على رحلته لإصلاح التعليم وبناء منظومة البحث العلمى باتخاذ الخطوات التالية :-

إنشاء المدارس العليا

● قام محمد على بإنشاء هندسة القلعة، هندسة بولاق، طب أبى زعبل، طب قصر العينى، صيدلة القلعة، ألسن الأزبكية، المدرسة الحربية العليا بأسوان، المدرسة الحربية العليا بفرشوط، المدرسة الحربية العليا بالنخيلة، المدرسة الحربية العليا بجرجا، المدرسة الحربية العليا بقصرالعينى، مدرسة المشاة العليا بالخانكة، مدرسة المشاة العليا بدمياط، مدرسة الفرسان العليا بالجيزة، مدرسة المدفعية العليا بطرة، مدرسة أركان الحرب العليا بالخانكة،

مدرسة الموسيقى العليا العسكرية، المدرسة البحرية العليا بالإسكندرية، مدرسة البحرية المتنقلة العليا (على ظهر البحر)، مدرسة التجارة العليا بالسيدة زينب، مدرسة المعادن العليا بمصر القديمة، مدرسة العمليات والفنون العليا بالقاهرة، مدرسة الزراعة العليا بنبروه، مدرسة الزراعة العليا بشبرا، مدرسة الطب البيطرى العليا برشيد، مدرسة الطب البيطرى العليا بأبى زعبل، مدرسة الطب البيطرى العليا بشبرا .

أولاً ـ المدارس المدنية

١ ـ مدارس الهندسة " المهندس خانة "

هندسة القلعة

فى عام ١٨١٦ أنشأ محمد على مدرسة الهندسة داخل القلعة! يقول الجبرتى " فأمر ببناء مكتب " مدرسة " بحوش السراية بالقلعة ورتب فيه جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا وجعل معلمهم حسن أفندى المعروف بالدرويش الموصلى يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات والارتفاعات واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومى تركى يقال له روح الدين أفندى بللا وأشخاص من الإفرنج، وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنجليز يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمساحة، ورتب لهم شهريات وكساوى فى السنة، واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب وسموه " مهندس خانة " فى كل يوم من الصباح إلى بعد الظهيرة، ثم ينزلون إلى بيوتهم، ويخرجون فى بعض الأيام إلى الخلاء لتعلم مساحات الأراضى وقياسها بالأقصاب وهو الغرض المقصود للباشا.. لما رغب الباشا فى إنشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة عين حسن أفندى الدرويش ليكون معلماً بذلك المكتب، وذلك أنه تداخل بتحيلاته لتعليم مماليك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك ورتب له خروجاً وشهرية، ونجب تحت يده المماليك فى معرفة الحسابيات ونحوها وأعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بأن يفرد مكانا للتعليم ويضم إلى مماليكه من يريد التعليم من أولاد الناس فأمر بإنشاء ذلك المكتب وأحضر إليه أشياء من آلات الهندسة والمساحة

والهيئة الفلكية من بلاد الإنجليز وغيرهم، واستجلب من أولاد البلد ما ينيف على الثمانين شخصاً من الشبان الذين فيهم قابلية للتعليم ورتبوا لكل شخص شهرية وكسوة فى آخر السنة فكان يسعى فى تعجيل كسوة الفقير منهم ليتجمل بها بين أقرانه ويواسى من يستحق المواساة ويشترى لهم الحمير للمساعدة لطلوعهم ونزولهم إلى القلعة فيجتمعون للتعليم فى كل يوم من الصباح إلى بعد الظهر، وأضيف إليه آخر حضر من اسطنبول على معرفة بالحسابيات والهندسيات لتعليم من يكون أعجميا لا يعرف العربية مساعدا للمترجم فى التعليم يسمى روح الدين أفندى ".

وبالطبع كان " محمد على " يؤمن بالنجاح إيمانه بالحياة، كان النجاح يكاد يأتيه خاضعاً ذليلاً، فمازال النجاح يجرى من محمد على مجرى الدم فى العروق، فنجحت المدرسة فى تخريج العديد من الكوادر التى استطاعت حمل الرسالة واستكمال المسيرة الرائعة.

هندسة بولاق

وفى عام ١٨٣٤ أنشأ محمد على مدرسة مدرسة بولاق العليا فى الهندسة والعلوم الرياضية، وكانت تلك المدرسة من أنجح المدارس ليس فى مصر، وإنما على مستوى العالم، تلك المدرسة التى تولى نظارتها على مبارك باشا فيما بعد.. هذا ما ذكره الجبرتى.

والآن.. انظر كيف يفكر الرجل!!

كيف يتخذ القرار ؟!

لقد فكر وتدبر وقرر من أين يبدأ الرحلة..

رحلة بناء الإمبراطورية المصرية العظيمة لابد أن تكون نقطة الانطلاق هى (التعليم)

لكن لماذا اختار محمد على أن ينطلق قطار التعليم من محطة العلوم الهندسية والرياضية؟ ولماذا أصر الرجل أن يكون مقر أول مدرسة عليا فى مصر هو مقر الحكم بالقلعة؟ لقد أيقن الرجل " الأمى " أن طموحاته العريضة لن يقوى على حملها سوى المتعلمين، وطموحاته كانت (عملية) كان الرجل يرفع شعار «**لا وقت للكلام فقد حان وقت العمل**»، فبناء الحضارة يحتاج إلى جيش قوى، والجيش

القوى يحتاج حتما إلى قوة اقتصادية شاملة.. تلك القوة لن يرسم خطوطها ويضع خططها وينفذ خطواتها سوى حملة العلم، لقد كان اختيار فرع العلوم الرياضية من هندسة ومساحة وفلك ومقاييس ليكون البداية الحقيقية هو عين الصواب فبناء الحضارات لا يحتاج إلى ألسنة وحناجر بقدر ما يحتاج إلى عقول خلاقة كان اختيار الرجل للقلعة " مقر الحكم " ليبدأ الرحلة العلمية منها بمثابة رسالة للجميع بأن العلم والتعليم، هو المعركة الحقيقية للجميع بدءا من الحاكم ذاته، لقد كان الرجل صادقا مع نفسه، مخلصاً لقناعاته، وكانت مهاراته الشخصية فى التخطيط والمتابعة هى الضمانة الحقيقية للنجاح.

٢- مدرسة الطب

طلب محمد على من أحد أصدقائه الفرنسيين أن يبحث له عن أحد الأطباء المرموقين فى فرنسا كى يتولى التخطيط والإشراف على منظومة الصحة فى مصر.

كلوت بك

وقد وقع الاختيار على أحد الأطباء المميزين والنابغين الفرنسيين وهو الدكتور " كلوت بك " الذى حضر إلى مصر عام ١٨٢٥، وكان يتميز بالأخلاق الحميدة والعزيمة الصادقة والرؤية الثاقبة، طلب محمد على من الدكتور كلوت بك أن يعيد تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصرى، والتى كان محمد على قد أنشأها قبل ذلك بخمس سنوات، وتم تعيينه رئيساً لأطباء الجيش، وبذل الدكتور كلوت بك جهوداً جبارة، وتم إنشاء مستشفى عسكرى فى ناحية أبى زعبل بجوار معسكرات الجيش المرابطة حول القاهرة وقد استجاب محمد على لاقتراحات الرجل بإنشاء المستشفى.

طب أبى زعبل

وطلب محمد على من كلوت بك أن يبدأ فوراً فى إنشاء مدرسة عليا للطب والصيدلة بجوار المستشفى النموذجى بأبى زعبل، وبالفعل تم إنشاء أول مدرسة عليا للطب فى عام ١٨٢٧، تلك المدرسة التى صارت مبعث النهضة الطبية والعلمية فى مصر، قام محمد على مستعيناً بكلوت بك باختيار مائة

طالب من طلبة الأزهر لدراسة الطب فى هذه المدرسة العليا بالخانكة، وقام كلوت بك باستقدام نخبة من الأساتذة والخبراء والأطباء الأوربيين والفرنسيين ليقوموا بتدريس مواد الجراحة والباطنة والتشريح وعلوم الصحة والصيدلة والطب الشرعى والكيمياء والطبيعة والنبات، بالإضافة إلى استقدام معلمين فرنسيين لتعليم المصريين اللغة الفرنسية.

صيدلة الخانكة

وتم إنشاء مدرسة أخرى للصيدلة وثالثة للولادة كملاحق لمدرسة الطب العليا بأبى زعبل وتخرجت أول دفعة من الأطباء الذين تلقوا العلوم الطبية فى مدرسة الخانكة العليا للدراسات الطبية بعد خمس سنوات من افتتاح المدرسة العليا، وتم توزيع هؤلاء الخريجين على ألوية الجيش وسائر المستشفيات، واستبقى كلوت بك نحو عشرين خريجاً من المتفوقين، ثمانية منهم تم تكليفهم بإعادة إلقاء الدروس على طلاب العلم، فيما اصطلح على تسميتهم بـ«المعيدين» أى معيدين للدروس بعد الأساتذة، وتم إرسال الاثنى عشر الباقين إلى فرنسا لإتقان علومهم وإتمامها، وعندما تم تعيينهم أساتذة فى المدرسة نفسها.. يقول مانجان وهو مؤرخ قريب كثيرا من محمد على: " إن عدد تلاميذ مدرسة الطب بلغ فى عام ١٨٣٧ نحو ١٤٠ طالباً و٥٠ طالباً فى مدرسة الصيدلة.

مستشفى أبى زعبل

ووصف مانجان مستشفى أبى زعبل فقال إنه احتوى على ٧٢٠ سريراً، وإن الغرف منسقة تنسيقاً بديعاً، يتخللها الهواء الطلق وتسودها النظافة، حيث عهد إلى مدرسى مدرسة الطب بملاحظة خدمة المستشفى فجمعوا بين التدريس وملاحظة المستشفى.

طب ومستشفى قصر العينى

وفى عام ١٨٣٧ تم نقل المستشفى والمدرسة العليا إلى قصر العينى بوسط القاهرة، لقد أحدث كلوت بك ثورة طبية هائلة فى مصر، وبذل جهوداً جبارة فى مقاومة الأمراض، وهو الذى أشار باستخدام تطعيم الجدرى لمقاومة

انتشار هذا الوباء فى القطر المصرى، بعدما كان يموت سنوياً نحو سبعين ألفاً من الأطفال سنوياً، وكافح هو وتلميذه وباء الكوليرا الذى وقع بمصر سنة ١٨٣٠، وكما بذل الرجل جهوداً جبارة فى مقاومة الطاعون الذى حل بالبلاد سنة ١٨٣٥ قام كلوت بك بإنشاء حديقة ملحقة بالمستشفى زرع فيها كل ما تنبت الأرض من العقاقير والنباتات النادرة.

٣ ـ مدرسة الترجمة (الألسن)

ألسن الأزبكية

كانت المدارس العليا التى أنشأها محمد على تعتمد اعتماداً كبيراً على الأجانب الذين يتم استقدامهم إلى مصر للتدريس بمدارسها العليا وعلى المصريين المعارين إلى الخارج لتحصيل العلوم والفنون من منابعها، بيد أن عدم معرفة المصريين للغات الأجنبية وعدم معرفة الأجانب للغة العربية كان يمثل عائقاً كبيراً فى التواصل بين الجميع، لذلك كان تفكير " محمد على " فى إنشاء مدرسة عليا للغات والألسن والترجمة تكون بمثابة الحل الأمثل لحل هذه المشكلة فإتقان اللغات الأجنبية يمثل جسراً آمنا للتواصل والتفاعل مع العالم الخارجى، وفى عام ١٨٣٦ تم إنشاء مدرسة الألسن العليا للغات والترجمة بالأزبكية فى المكان نفسه الموجود فيه فندق شبرد حالياً وتولى نظارتها رفاعة الطهطاوى.

٤ ـ مدارس الطب البيطرى العليا

ـ طب بيطرى رشيد ـ طب بيطرى أبى زعبل ـ طب بيطرى شبرا

كانت الثروة الحيوانية فى القطر المصرى فى حاجة إلى عناية لا تقل عن الاهتمام بالبشر، فالثروة الحيوانية هى عصب الاقتصاد الأهلى أو العائلى حينئذ لقد كان الاهتمام بتحسين السلالات ومواجهة الأمراض واستقدام سلالاتٍ جديدة واستخدام الطرق العلمية فى التربية.. كل ذلك يحتاج إلى علم، هذا العلم يحتاج إلى مؤسسة، فقام محمد على بإنشاء أول مدرسة للطب البيطرى بمدينة رشيد على ساحل البحر المتوسط شمال محافظة البحيرة، ثم تم نقلها فيما بعد إلى ضاحية أبى زعبل التى كانت تحتضن

مدارس الطب والصيدلة والولادة والعلوم، ثم تم نقلها بعد ذلك إلى ضاحية شبرا.

٥- مدرسة الزراعة

كان اهتمام محمد على بالزراعة يتصدر أولوياته ويفوق شتى اهتماماته، فمصر كبلد زراعى أرضاً وشعباً ونيلاً، كانت فى حاجة إلى اتباع الأسس العلمية فى طرق الرى والزراعة وتحسين التركيب المحصولى واستحداث زراعات جديدة، مثل القطن طويل التيلة والكتان والنيلة والتوت والمانجو، وكان إنشاء مدرسة عليا للعلوم الزراعية الطريق الوحيد للنهضة الزراعية التى كان يريدها محمد على باشا؛ ومن ثم فقد قام بإنشاء أول مدرسة عليا فى العلوم الزراعية واختار لها مدينة نبروه بجوار مدينة المنصورة بوسط الدلتا، وتم نقلها فيما بعد إلى شبرا، وكانت تلك المدرسة من أنجح المدارس وأهمها على الإطلاق فقد ساهمت فى إحداث طفرة هائلة فى البحوث والتطبيقات الزراعية..

المدارس العليا التخصصية

بعد مدارس الهندسة العليا ومدارس الطب العليا ومدارس اللغات والترجمة العليا أنشأ محمد على العديد من المدارس العليا المتخصصة التى تلبى احتياجات ومتطلبات النهضة المصرية، لقد كانت خطة محمد على تقوم على أساس نشر التعليم الهادف المثمر، لذلك كان التعليم فعالاً ومؤثراً، وكان بحق- ولايزال - قاطرة التنمية والنهضة.

٦- المدارس الصناعية والتعدينية

مدرسة المعادن

كانت الحركة النهضوية شاملة ومتداخلة ومتكاملة؛ فهناك القطاع الزراعى والقطاع العسكرى والقطاع الصناعى والقطاع التجارى، وكل قطاع من هذه القطاعات يحتاج إلى قاطرة علمية تقوده وتوجّهه إلى الأمام، وكما تم إنشاء مدارس عليا للزراعة والطب كان لابد أن يقوم الرجل بإنشاء مدارس عليا

تخدم القطاع الصناعى والمهنى فكان إنشاؤه لمدرسة المعادن بمصر القديمة التى تصب فى هذا الاتجاه.

مدرسة العمليات

كان الحركة الصناعية تحتاج إلى صناع مهرة ومهنيين مدربين فكان إنشاء مثل هذه المدرسة أمراً حتمياً، فالتدريبات المهنية، كانت البوابة الأولى للنهضة الصناعية، لقد كانت الصناعات التى أدخلها محمد على إلى مصر كصناعات الغزل والنسيج وصناعات الورق والعديد من الصناعات الأخرى فى حاجة ماسة إلى كيان علمى يستطيع أن ينهض به ويدفعه إلى الأمام؛ لذلك تم إنشاء أول مدرسة عليل للعمليات فى عام ١٨٣٩.

٧ـ مدرسة المحاسبة

كان محمد على يهتم بالتجارة اهتماماً خاصاً، فهو تاجر التبغ القديم فى «قولة» و«نصرتلى»، كانت التجارة فى قلب محمد على وعقله، إنه يؤمن بالتجارة ويؤمن بأن " تسعة أعشار الرزق فى التجارة "، هذه التجارة تعتمد على السوق والعرض والطلب وأذواق المستهلكين والعلاقات التجارية بين الدول والمناطق الاقتصادية، كل هذا يحتاج بالضرورة إلى قواعد اقتصادية ومحاسبية ترتبط بالأصول العلمية لكل ما سبق كان إنشاء مدرسة عليا فى فنون الإدارة والمحاسبة عام ١٨٣٧ بالسيدة زينب بحى مصر القديمة فى غاية الضرورة.

ثانيا ـ المدارس العسكرية والحربية

عندما تقابل محمد على باشا مع الكولونيل الفرنسى سيف فى عام ١٨١٩ كلفه بتنظيم الجيش المصرى، وبنائه على أسس علمية وفق أحدث النظم الحديثة المطبقة فى أوروبا، لقد وجد محمد على هذا القائد الفرنسى ذا أخلاق حميدة ومهارة عسكرية نادرة، كانت خبرة الرجل العريضة فى ميادين القتال هى التى جعلت محمد على يثق به، ويعهد إليه بأخطر مهمة فى حياة محمد على باشا؛ فقد خاض الكولونيل سيف واقعة «الطرف الأغر» بين إنجلترا وفرنسا، حيث كان ضمن القوات البحرية الفرنسية، ثم تحول إلى

القوات البرية، وانخرط فى الجيش الفرنسى تحت قيادة نابليون بونابرت، ورقى إلى رتبة كولونيل (أميرالاى) وسرعان ما تمت إحالته إلى الاستيداع وخرج من الخدمة بعد نهاية عصر نابليون بونابرت، حيث كان من أمهر القادة فى جيش نابليون، وكان يعرف عنه ولاؤه الشديد وإيمانه الذى لا يتزعزع بهذا القائد الفرنسى العظيم.. اتجه الكولونيل سيف إلى العمل بالتجارة والزراعة، لكن طبيعته العسكرية كانت تقف له بالمرصاد، وكان حنينه إلى الحياة العسكرية لا ينقطع، كان الرجل يعشق الانضباط والحزم إلى أقصى درجة، أخذ الرجل يبحث عن فرصة للعمل كخبير ومخطط عسكرى بأحد الجيوش فى أى دولة بأى ثمن، وفى هذه الأثناء نصحه صديقه الكونت دى سيجور بالذهاب إلى مصر، حيث الفرصة ستكون مواتية له للعمل مع ذلك الرجل الطموح الذى يحاول بناء جيش مصرى على أحدث النظم العالمية، جاء الرجل إلى مصر وتقابل - كما ذكرنا - مع الباشا، وأشهر إسلامه وسمى نفسه سليمان باشا، وفى عام ١٨٢٠ توجه الرجل إلى أسوان لإنشاء أول مدرسة حربية عليا فى مصر تنفيذا لتعليمات محمد على باشا.

لكن.. لماذا أسوان ؟؟

بيد أن محمد على باشا قد اختار أسوان ليكون مشروعه بعيدا عن القاهرة التى كانت مركزا للفتن والدسائس والمؤامرات، كان محمد على يريد أن يبعد الأنظار عن هذا المشروع الذى يمكن أن يثير الفتن بين الجند غير النظاميين ومحمد على، كان الرجل يحاول أن يبتعد بمشروعه إلى أقصى نقطة مستعينا على قضاء حوائجه بالكتمان !!

يقول الرافعى " قد اختار محمد على أسوان لتخريج الدفعة الأولى من ضباط الجيش رجاةً أن ينفذ مشروعه بعيدا عن الدسائس والأنظار معا، ولكى يتم فى سر دون أن يلتفت إليه الناس، فإذا نجح فالنجاح، وإن أخفق لا يكون لإخفاقه رد فعل يزعزع مركزه، وكان ذلك من دلائل بعد نظره وفراسته، ومما رغبه أيضا عن القاهرة خشيته أن يكون تعليم التلاميذ على يد ضابط أوروبى مثاراً لهياج الخواطر فيها، وخاصة بين الجنود غير النظاميين الذين كانوا ينفرون من كل نظام جديد، ثم ليكون التلاميذ بمنجاة من أسباب اللهو بعيدين عن أماكنه فلا يفسد عليهم الأخلاق الحربية" .

١ـ مدرسة أسوان الحربية العليا

كان عددهم ألفاً من الشباب الواعد أقوياء البنية الذين تم اختيارهم بعناية فائقة، وكان قائدهم ومدربهم ومعلمهم قائداً أوربياً خبيراً ومحنكاً صاحب رؤية ورسالة، وكانت الدولة بقيادة محمد على باشا تسخر كل إمكانياتها المادية والفنية و«اللوجيستية» المختلفة لخدمة هذا المشروع القومى غير المسبوق فى تاريخ مصر، كانت فترة الدراسة والتدريب المطلوبة لتخريج أول دفعة من الضباط للجيش نحو ثلاث سنوات متصلة، فكانت مدرسة الحرب بأسوان هى البداية الحقيقية لتأسيس الجيش المصرى، ثم تم إنشاء مجموعة من المدارس الحربية الأخرى على غرارها فى جرجا وفرشوط والنخيلة بصعيد مصر.

٢ـ مدرسة أركان الحرب العليا بالخانكة

كانت خطط محمد على للنهوض بالجيش واضحة ومحددة، ولا تقبل الخطأ، كان الرجل ينظر إلى العنصر البشرى نظرة مختلفة تماما عن أضرابه فى تلك العصور، فكان يرى أن الاهتمام بالعنصر البشرى هو حجر الزاوية فى كل برامجه وخطواته الإصلاحية؛ لذلك كان إنشاء مدرسة عليا لأركان الحرب هو الخطوة التالية لإنشاء المدارس الحربية العليا، كى يصقل مواهب الموهوبين ويرفع من المستوى العام للضباط المصريين، كانت هذه المدرسة ثمرة اقتراح قدمه عثمان نورالدين باشا، وكان الاقتراح يتضمن إقامة المدرسة بجوار المعسكرات العامة للجيش المصرى بضاحية الخانكة.

٣ـ مدرسة البحرية العليا بالإسكندرية

أنشأ محمد على أول مدرسة عليا للبحرية لتخريج الضباط البحريين لخدمة الأسطول المصرى، وكانت هذه المدرسة مقامة فوق إحدى السفن الحربية على سواحل الإسكندرية، وقد تلقى الطلاب الذين تم إلحاقهم بهذه المدرسة العلوم البحرية المختلفة من الرياضيات والفلك والأرصاد والملاحة والهندسة البحرية والميكانيكا، وقد تخرج فى هذه المدرسة العديد من الرجال الذين سطروا أسماءهم بحروف من ذهب فى تاريخ البحرية المصرية، وتم

إيفاد العديد منهم إلى أوروبا لتعميق وتوثيق ما قاموا بدراسته فى مصر، وعاد هؤلاء إلى مصر ليقوموا بتدريس ما تعلموه فى أوروبا للطلاب المصريين، وتبوأ الكثير منهم المناصب المرموقة فى الأسطول المصرى.

٤ - مدرسة البحارة برأس التين

لم يكن الأسطول المصرى فى حاجة إلى الضباط فحسب، بل كان فى أمس الحاجة للخدمات البحرية المساعدة، فوجود بحارة مدربين تدريباً جيداً، ولديهم حصيلة علمية حديثة على أعمال البحر المختلفة هو الضمانة الأساسية لإنجاح عمل الضباط البحريين وهؤلاء هم الدعامة الأساسية لتحديث الأسطول المصرى، وقد تم انتقاء نحو عشرين ألفا من الشباب المصرى من جميع أنحاء الجمهورية ليلتحقوا بهذه المدرسة، وتم تخصيص إحدى المراكب الراسية على الشاطئ بسواريها وقلاعها لتعليم هؤلاء الشباب كل فنون العمل البحرى على سفن الأسطول المصرى.

٥ - مدرسة المشاة العليا بالخانكة

كان سلاح المشاة من أهم الأسلحة المكونة للجيش المصرى، وكان محمد على يرى أن قوة هذا السلاح تعكس قوة الجيش نفسه، فالتاريخ العسكرى يحفظ فى ذاكرته العديد من المعارك التى تم حسمها عن طريق فيالق المشاة، فسلاح المشاة بالنسبة لمحمد على هو السلاح الأهم على الإطلاق؛ لذلك أنشأ الرجل مدرسة المشاة العليا لتخريج الضباط المتخصصين، أنشأ محمد على المدرسة فى ضاحية الخانكة واختار ٤٠٠٠ طالب، وتم تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات كانت المدرسة تعلمهم الإدارة الحربية والتمرينات واللغات العربية والتركية والفارسية، تم نقل المدرسة إلى دمياط ثم إلى أبى زعبل.

٦ - مدرسة المدفعية العليا بطرة

اقترح ضابط إسبانى يدعى انطونيو دى سيجرا على محمد على باشا وابنه إبراهيم باشا فكرة إنشاء مدرسة عليا لتخريج ضباط المدفعية لخدمة الجيش المصرى، وجاء تطوير سلاح المدفعية كتطور طبيعى لسلاح المشاة الذى بدأه محمد على - كما سبق وأوضحنا فى عرضنا للمدرسة العليا

للمشاة – بدأت المدرسة فى ناحية طرة بثلاثمائة طالب من خيرة الشباب المصرى الذين تخرجوا فى مدرسة قصر العينى الإعدادية، وكانت المناهج الدراسية فى هذه المدرسة متنوعة بين علوم اللغة والحساب والجبر والهندسة والميكانيكا والرسم والاستحكامات، وكانت تدريبات الرماة من أهم التدريبات التى يتم تنظيمها فى هذه المدرسة.. يقول الرافعى حول هذه المدرسة " ولم يغرب عن بال محمد على باشا أهمية هذه المدرسة فأراد أن يرى بنفسه سير التعليم فيها، فزارها واختبر شئونها فأبدى ارتياحه وسروره من أساتذتها وتلاميذها ومعداتها، وكافأ الكولونيل سيجيرا بالإنعام عليه برتبة البكوية مع ترقيته إلى رتبة لواء، وألحق بالمدرسة أورطة للمدفعية المشاة وأورطة أخرى للمدفعية الركبان، وأنشأ لها ميداناً لضرب النار للجنود والتلاميذ، وضع بها أربعا وعشرين بطارية من المدافع للتمرين عليها، وكان للمدرسة مستشفى خاص يديره طبيب يساعده صيدلى لمعالجة المرضى.

وقال على مبارك باشا عن هذه المدرسة: " وكان بطرة مدرسة الطوبجية، وهى مدرسة جليلة من إنشاءات العزيز محمد على، تربى بها جملة من الأمراء، برعوا فى فنون الطوبجية.

٧- مدرسة الفرسان العليا بالجيزة

عندما عاد إبراهيم باشا بن محمد على من حرب المورة، قرر أن يطبق ما سبق ورآه فى هذه الحرب من وجود سلاح راق للفرسان، منظم تنظيما رائعا، ويظهر فى أثناء المعارك بمظهر يأخذ العقولَ والألباب، قرر إبراهيم باشا إنشاء سلاح للفرسان أو للخيالة على النمط الأوروبى؛ لذلك قام بالاستعانة بقادة ومعلمين ومدربين من أوروبا لديهم الخبرة والدراية الكافية لتنفيذ رغباته وتم اختيار نخبة من الشبان المصريين قدر عددهم بنحو ٣٦٠ تلميذا وتم كسوتهم ومنحهم الأدوات اللازمة كى يكونوا فرساناً على أعلى مستوى، وتم تخصيص قصر مراد بك المملوكى ليتحول إلى مدرسة عليا للفرسان، يتعلمون فيها كل قواعد المبارزة وترويض الخيل والموسيقى العسكرية التى تستعمل فى فرق الفرسان، وبعد زيارته لهذه المدرسة كتب المارشال مارمون " عندما شاهدت هؤلاء الطلبة فى الميدان يقومون بالمناورات خيل لى أنى أمام

طابور من أرقى آليات الخيالة عندنا، ولئن كان ينقص المدرسة لتصل إلى درجة الكمال بعض دروس فى اللغة والرسم وغير ذلك، ولكن ومما لا نزاع فيه أنها من جهة تنظيم فرق الفرسان لا ينقصها شىء؛ فالطلبة يجيدون ركوب الخيل، والمناورات التى يقومون بها تجرى بخفة ودقة وإحكام، ونظامهم وهندامهم على أحسن ما يكون، والروح المعنوية فيهم على ما يرام، فهم جنود بكل معانى الكلمة، وحملة الأبواق يؤدون عملهم بإتقان " .

٨ـ المدرسة التجهيزية العسكرية بقصر العينى

تم إنشاء هذه المدرسة بقصر العينى لتقوم بتغذية المدارس الحربية العليا بالطلبة المؤهلين تأهيلاً مبدئياً يليق بالالتحاق بالمدارس العليا، وكان عدد الطلاب الذين بدأت بهم المدرسة ٥٠٠ طالب و تم نقل تلك المدرسة إلى أبى زعبل.

٩ـ مدرسة الموسيقى العسكرية العليا بالخانكة

فى سعيه الدءوب لبناء جيش مصرى متكامل وعصرى ويضارع أعظم الجيوش الأوروبية قرر محمد على باشا إنشاء مدرسة عليا للموسيقات العسكرية وألحق بها نحو ١٣٠ طالباً واستقدم لها خبراء موسيقات عسكرية، بالإضافة إلى الآلات والمعدات الموسيقية المتنوعة والمطلوبة للأغراض التعليمية، وقد برع الطلاب المصريون براعة عظيمة فى التقاط الخيط من المعلمين الأوربيين، مما جعل المسيو مانجان يقول " إن أولئك الشبان الفلاحين قد أبدوا من السهولة فى توقيع الألحان الصعبة من النوتات ما أدهش العارفين بالفن، خاصة الإفرنج الذين اجتذبهم إلى وادى النيل شهرة محمد على " .

إيفاد البعثات العلمية التسع إلى أوروبا

(١٨١٣م / ١٨٤٧م)

٣١٩ مبعوثاً بتكلفة إجمالية ٣٠٣٣٦٠ جنيهاً

إن بناء دولة عصرية وامبراطورية مترامية الأطراف لن يتحقق إلا على قاعدة علمية يحيطها سياج أخلاقى بلون الوطنية.. كان محمد على باشا بعيد النظر، ثاقب الرؤية عندما أنشأ المدارس واستقدم لها المعلمين والخبراء من أوروبا، لكنه وصل إلى حد العبقرية والتفرد عندما بدأ فى تنظيم وإرسال البعثات والإرساليات العلمية المصرية إلى أوروبا.

كانت خطة محمد على تقوم على أن : «تنطلق هذه المحاور المتعددة من نقطة واحدة هى التعليم والبحث العلمى، حيث تتحرك هذه المحاور كلُ فى المسار المرسوم والمحدد له، ثم تلتقى تلك المحاور مرة أخرى فى نقطة واحدة هى الجيش المصرى، وكانت الدول الأوربية تتحرك فى مستويات عليا من التقدم والرقى، وكانت منبعا ومصدرا للفنون والعلوم وجميع النظم الحديثة، فى الوقت الذى كان الشرق نائما هائما فى المؤامرات والصراعات على السلطة وكانت مصر إحدى دول ذلك الشرق الحزين تعيش فى جو ملوث بالمؤامرات والفتن بين المماليك والعثمانيين من ناحية، وبين الأطماع الفرنسية والإنجليزية من ناحية أخرى، كانت مصر تعيش فى دائرة مفرغة خبيثة من الجهل والفقر والمرض والتخلف أراد محمد على أن يكسر هذا الطوق الذى يحيط بمصر وأن يحطم هذه الدائرة الخبيثة وكانت أدواته هى التعليم والبحث العلمى وحسن الإدارة والإخلاص، ومن ثم كانت البعثات العلمية المصرية إلى الخارج تهدف إلى سرعة اللحاق بركب الحضارة والمدنية ونقل العلوم والفنون إلى مصر، وبالطبع سيكون المبعوثون هم حملة الراية العلمية والتعليمية فى مصر بعد عودتهم إلى مصر محملين بذخائر العلم والتكنولوجيا ومشهيات الفنون والآداب، والموجة الأولى للبعثات المصرية إلى أوروبا.

فى عام ١٨١٣ بدأ محمد على ينفذ خطته لإرسال بعثات علمية من مصر إلى

أوروبا وقد بدأت البعثات تتوجه إلى إيطاليا، حيث مدن روما وميلانو وفلورنسا وليفورن لدراسة العلوم الهندسية وبناء السفن وبعض العلوم العسكرية.

فى عام ١٨١٦ أرسل محمد على " نقولا مسابكى " إلى إيطاليا ليتعلم فنون الطباعة وسبك الحروف وصناعة قوالبها وبالفعل وبعد أربع سنوات عاد المبعوث " مسابكى " إلى مصر ليتولى إدارة مطبعة بولاق، حيث بدأت مصر عهدا جديدا فى فنون الطباعة والصحافة والنشر والترجمة وأخذ محمد على يرسل بعثاته إلى إنجلترا وفرنسا للاستفادة من موجات التحديث والتطوير الحاصلة هناك، وبلغت أعداد المبعوثين خلال الموجة الأولى للبعثات ٢٨ مبعوثاً كان أشهرهم نكولا مسابكى الذى صار رائداً لحركة الطباعة فى مصر وعثمان نور الدين الذى أصبح قائدا للأسطول المصرى فيما بعد.

بعثات مصر إلى أوروبا

وفى عام ١٨٢٦ قرر محمد على الإسراع فى حركة البعثات إلى الخارج؛ نظرا لشدة احتياج البلاد الناهضة إلى ذوى الخبرات، أرسل الرجل فى هذا العام نحو ٤٤ طالبا إلى فرنسا لتلقى العلوم بشتى صنوفها ونقلها إلى مصر.

اهتم محمد على باشا عظيم الاهتمام بتلك البعثات العلمية التى أرسلها إلى أوروبا، لم يكتف الرجل بالتخطيط لتسيير البعثات، بل نفذ مخططاته بكل دقة، ولم يقف عند هذا الحد، بل كان يتابع أداء ونتائج المبعوثين أولاً بأول، كان الرجل يشعر الجميع بأنه معهم أولاً بأول، وكان الرجل لديه همة نادرة جعلت منه نموذجاً للقادة على مر التاريخ، فقد أورد أحد أشهر المبعوثين فى عصر محمد على " رفاعة رافع الطهطاوى " إحدى الرسائل التى أرسلها محمد على باشا إلى طائفة من المبعوثين فى كتابه الأشهر " تخليص الإبريز فى تلخيص باريز " نموذجاً لهذه الرسائل، أوردها كما هى للتدليل على مدى اهتمام الرجل بشئون تلك البعثات العلمية تقول الرسالة " قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم، ننهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة

لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة، وما فهمنا منها شيئا وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون، فقياساً على قلة شغلكم فى هذه المدة، عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمنا غما كثيراً، فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار شغله وآثار مهارته فإذا لم تغيروا هذه الباطلة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فإن ظنكم باطل؛ فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه، فبناءً على ذلك إنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة وتركتم أنفسكم للسفاهة، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك، ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا وتوجهنا إليكم لتتميزوا بين أمثالكم، فإذا أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم، وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم، ويكتب فى كل شهر ما يتعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق، وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه، وهو إما من عدم اعتنائكم أو تشويشكم وأى تشويش لكم، هل هو طبيعى أو عارض، وحاصل الكلام إنكم تكتبون حالتكم كما هى عليها حتى نفهم ما عندكم، وهذا مطلوبنا منكم فاقرأوا هذا الأمر مجتمعين وافهموا مقصود هذه الإرادة، وقد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى الإسكندرية بمنة منه تعالى فمتى وصلكم أمرنا هذا فاعملوا بموجبه وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه (٥ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ) "

لقد أرسل محمد على بعثات تسعاً إلى أوروبا بإجمالى نحو ٣١٩ طالبا كلفوا الدولة ٣٠٣٣٦٠ جنيها مصريا، وقد تخصص وبرع هؤلاء المبعوثون فى العلوم والآداب والفنون كل فى تخصصه، وعادوا إلى مصر وتبوأ كل منهم موقعا مرموقا فى تخصصه، وصاروا روادا لحركة النهضة التى شهدتها مصر

فى عهد محمد على باشا.

علوم المبعوثين

تعددت الفروع العلمية التى اهتم بها محمد على وابتعث من أجلها المبعوثين إلى الخارج.. وتشمل:

- الفنون العسكرية والقتالية - الإدارة العسكرية - القانون والعلوم الإنسانية
- العلوم السياسية والتاريخ
- الملاحة البحرية وبناء السفن - الهندسة الحربية - فنون وعلوم المدفعية - الطب والجراحة وطب وجراحة العيون - العلوم والهندسة الزراعية وهندسة الرى - هندسة المعادن والمناجم - علوم الهندسة الميكانيكية - صنع الأسلحة وصب المعادن - الطباعة والحفر - علوم الكيمياء والطبيعة والكيمياء الصناعية - الآداب والفنون والترجمة - صناعة الصياغة والجواهر - نسج الأقمشة الحريرية - صناعة السيوف والدروع - صناعة البنادق والطبنجات وصب القنابل والمدافع - صناعة إنشاء السفن وإصلاحها - صناعة الآلات الجراحية - صناعة الساعات والصينى والفخار - صناعة شمع العسل - صناعة النقش والدهان - صناعة الأحذية والتنجيد والفراشة - صناعة آلات البوصلة وميزان الهواء والنظارات ومقاييس الأبعاد وآلات الدوائر المنعكسة والآلات الفلكية - صناعة الآلات الهندسية والميكانيكا.

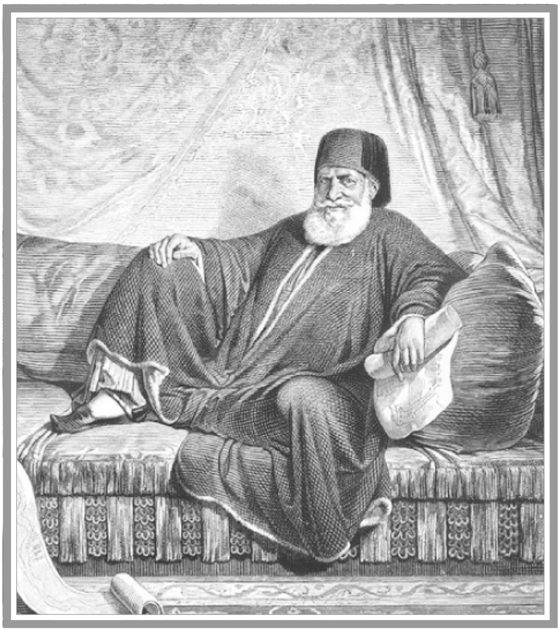
إنشاء ديوان المدارس العمومية

كان من الطبيعى، بل من الضرورى أن يكون هناك كيان مؤسسى لإدارة المنظومة التعليمية والبحثية والبعثية، فبعد أن أنشأ محمد على المدارس العليا المتخصصة فى جميع الأفرع العلمية المدنية والحربية، قام بأول وأكبر حركة بعوث فى الشرق من مصر إلى أوروبا لنقل العلوم والفنون كانت الخطوة الحتمية إنشاء ذلك الديوان ليكون أول كيان مؤسسى، يضم تلك المنظومة؛ ففى عام ١٨٣٧ م صدر قرار محمد على بإنشاء ديوان المدارس ليحل محل مجلس شورى المدارس الذى كان موجوداً من قبل.. كان هذا الديوان بمثابة أول وزارة للمعارف العمومية، أو أول وزارة للتربية والتعليم فى

مصر وأسند إدارة هذا الديوان إلى خريجى البعثات الأولى وأوائل المدارس العليا كى يظهروا مواهبهم ويتبوأ كل منهم موقعه فى مسيرة التحديث والتطوير التى تشهدها البلاد، وتكوَّن هذا الديوان من نخبة من العلماء المتخصصين برئاسة مصطفى بك مختار وكان من أعضائه المعروفين كلوت بك، رفاعة الطهطاوى، وقد بدأ المجلس إنجازاته بإنشاء وتنظيم التعليم الابتدائى فى مصر وكان ذلك عام ١٨٣٧ م، وكان النظام يقضى بإنشاء خمسين مدرسة ابتدائية على مستوى القطر المصرى منها ٤ بالقاهرة وواحدة بالإسكندرية، وخمس وأربعون على مستوى البلاد؛ لنشر التعليم بين طبقات الأمة بجميع أطيافها ومستوياتها الاجتماعية، وقد قرر الديوان أن تكون كثافة المدارس بالقاهرة والإسكندرية ٢٠٠ طالب وفى سائر أنحاء القطر المصرى ١٠٠ طالب بالمدرسة الواحدة وكان التعليم مجانيا فى جميع مراحله، وكانت الحكومة تنفق على التلاميذ، وتوفر لهم الغذاء والكساء والمسكن، وكانت تنظم لهم الأرزاق والمرتبات، وقد بلغ عدد التلاميذ فى أنحاء القطر المصرى فى عهد محمد على ٩٠٠٠ طالب فى جميع مراحل العملية التعليمية.



الفصل الثامن



البنيان الاقتصادى

الرى.. الزراعة الصناعة.. النقل.. التجارة



بعدما رست " سفينة " محمد على عند " مرفأ " حكم مصر، بدأ الرجل رحلة البحث عن دعائم بناء إمبراطورية مصرية مترامية الأطراف، كانت رؤية الرجل ثاقبة وصائبة، فقد أيقن أن طموحاته العريضة لابد أن تقلع من قواعد متعددة فى وقت واحد.. قاعدة " التعليم والبحث العلمى "، قاعدة " المنظومة الاقتصادية "، قاعدة " الجيش والأسطول ".

كانت القاعدة الاقتصادية ذات طابع خاص وأهمية متفردة، فقوة البنيان الاقتصادى هى الضمانة الوحيدة لنجاح جميع البرامج التعليمية والعسكرية التى تحتاج حتماً إلى أموال طائلة لا يمكن أن تتوافر دون برامج وخطط اقتصادية فعالة وغير مسبوقة، كان الفكر الاقتصادى عند محمد على يقوم على أساس المنظومة التنموية الشاملة والمركبة التى لا تعتمد على نشاط دون آخر، فالاعتماد على النشاط الزراعى فقط محفوف بالمخاطر، إذ كانت الزراعة فى مصر قبل محمد على تعيش حالة من التخلف والنمطية، من حيث أنواع الزراعات وطرق الزراعة و الرى البدائية والعتيقة فكان لزاماً على الرجل أن يقوم بتطوير طرق الرى أولاً، وكان تحديث طرق الزراعة الخطوة التالية الضرورية لإنشاء كيان صناعى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالزراعة من ناحية، وبالموارد الطبيعية التى حبا الله بها مصر من ناحية أخرى، ولأن محمد على كان تاجراً بحكم الماضى إبان «قولة» و«نصرتلى»، حيث أرباح تجارة التبغ الطائلة التى لم ينسها مطلقاً، فقد كان من الطبيعى أن يهتم والى مصر بملف التجارة من وإلى مصر، لقد فتح محمد على ملفات الزراعة والصناعة والتجارة ليشيد فى النهاية بنيانا اقتصاديا قامت على أساسه النهضة المصرية الشاملة.

أولاً : قطاع الري والموارد المائية

سد ترعة الفرعونية

لما طغى ماء البحر على ماء النيل عبر الترعة التى كان منبعها فرع دمياط ومصبها فرع رشيد وكانت تمتد من منطقة بير شمس وتمر بمدينة منوف لتصل فرعى النيل ببعضهما، وكان الغرض من هذه الترعة تغذية فرع رشيد من مياه فرع دمياط، كانت هذه الترعة تسحب كميات كبيرة من مياة فرع دمياط، مما يؤدى إلى انخفاض منسوب المياه بها فتتدفع مياه البحر المالحة لتطغى على المياه العذبة وتختلط بماء النيل «هذا ملح أجاج وهذا عذب فرات» وترتفع نسبة الملوحة؛ مما يفسد تلك المياه العذبة مما أضر ضرراً بالغاً بالبلاد والعباد، و تأثرت الأراضى الزراعية، خاصة منطقة المنصورة ومعظم المناطق الشمالية المحيطة بفرع دمياط، وتأثرت زراعات الأرز، وبات الناس فى ضنك يشتكون.. لذلك قرر محمد على سد تلك الترعة عند منبعها من فرع دمياط ليحمى الأراضى من البوار والدلتا من الغرق وقام بشق بعض الترع والقنوات التى تعوض المياه التى كانت تنقلها ترعة الفرعونية يقول الجبرتى " وطلبوا المراكب لنقل الأحجار من الجبل إلى جهة السد وجمع العمال والفلاحين وسيقت إليه المراكب المملوءة بالأحجار، ثم سافر السيد المحروقى وبذل جهده ورموا بها من الأحجار ما يضيق به الفضاء من الكثرة، وفى أواخر شهر ربيع الأول نزل الباشا للكشف على الترعة فغاب يومين وليلتين هناك لمتابعة سير العمل بنفسه، وتم استكمال سد الترعة فى أبريل ١٨٠٩ م الموافق ١٢٢٤ هـ بعد ستة أشهر، وصرف عليها من الأموال ما لا يحصى وجرى مجرى البحر الشرقى، وغزر ماؤه وجرت فيه السفن من دمياط بعد أن كان مخاضة، وملحت عذوبة النيل بما انعكس فيه وخالطه من ماء البحر الملح إلى قبلى فارسكور.

شق الترع والقنوات

كانت استراتيجية محمد على تقوم على أساس الاستفادة من مياه النيل ومحاولة توصيلها إلى ربوع مصر لنشر الخير والنماء فى كل مكان، لذلك

اهتم محمد على بشق الترع والقنوات وفق خطة محكمة مستعيناً فى ذلك بأهل الخبرة من الأجانب والمصريين ونجح محمد على فى شق ٣٨ ترعة على مستوى مديريات مصر لأغراض الزراعة والصيد والشرب كما يلى:

أولاً - الوجه القبلى

وقد تم شق الترع التالية فى الوجه القبلى:

ترعة البرانقة ببنى سويف، ترعة الفشن بالمنيا، ترعة السبخة بجرجا، ترعة المرعشلى بجرجا، ترعة الشنهورية فى قنا، ترعة براجيا فى إسنا، ترعة الرمادى بقنا، ترعة العقيلى بقنا، ترعة الشال بإسنا، ترعة النابة بإسنا

ثانيا - الوجه البحرى

وفى الوجه البحرى تم شق الترع التالية:

ترعة المحمودية بالبحيرة، ترعة الخطاطبة بالبحيرة، ترعة الجعفرية بالغربية، ترعة الخضراوية بالغربية، ترعة النعناعية بالمنوفية، ترعة السرساوية بالمنوفية، ترعة الباجورية بالمنوفية، ترعة الوادى بالشرقية، ترعة المسلمية بالشرقية، ترعة مشتول بالشرقية، ترعة الصادى بالشرقية، ترعة الرمل بالشرقية، ترعة بردين بالشرقية، ترعة بلبيس بالشرقية، ترعة البوهية بالمنصورة، ترعة المنصورية. ترعة الشرقاوية بالمنصورة، ترعة أم سلمة بالمنصورة، ترعة دويدة بالمنصورة، ترعة الزعفرانة بالقليوبية، ترعة الباسوسية بالقليوبية، ترعة القرطامية بالقليوبية، ترعة البولاقية بالقليوبية، ترعة قنبة بالقليوبية، ترعة مصرف العموم بالقليوبية، ترعة بجيرم بالغربية، ترعة الشرقاوية بالقليوبية، ترعة المحمودية.

أما بالنسبة للمشروعات العملاقة التى قام بها محمد على فى مجال الرى فتأتى ترعة المحمودية لتكون خير شاهد على عبقرية هذا الرجل وبعد نظره، فما هى قصة ترعة المحمودية إذن؟

فى المسافة الممتدة من مدينة دمنهور عاصمة إقليم البحيرة حتى مدخل ميناء الإسكندرية مرورا بمدن أبو حمص وكفر الدوار تمتد تلك الترعة العظيمة التى غيرت من جغرافية المكان، وتحولت بها أقاليم البحيرة إلى

حدائق غناء، وامتد العمران حول الترعة وشيدت القصور وامتدت الضياع بيد ان أهمية الترعة لم تقتصر على الزراعة فحسب بل امتدت أهميتها إلى مجالات النقل النهرى الذى حمل تجارة مصر الخارجية الصادرة منها أو الواردة إليها، لقد تحولت تلك الترعة فى ذلك العصر إلى شريان للحياة لا تخطئه عين، كانت الفكرة للقائد محمد على.. وكان التنفيذ من نصيب أبناء هذا الشعب العظيم الذى بذل الغالى والنفيس من أجل رفعة بلاده ونهضتها الشاملة، ومازالت هذه الترعة خير شاهد على حقائق عدة وعاها التاريخ وأفرد لها صفحاته، لكنها الآن صفحات ممزقة، منسية تحتاج لمن يجمعها ويعيد تقديمها إلى هذا الجيل الذى يحتاج إلى قراءة واعية فى التاريخ، قراءة تضع بين يديه بوصلة يفرق بها بين الغث والسمين يقول الرافعى فى كتابه «عصر محمد على» حول ترعة المحمودية " إذا ذهبت يوما إلى دمنهور واخذت الطريق الزراعى المعبد الذى يصل بك إلى الإسكندرية، رأيت ترعة المحمودية تنساب بمنظرها البديع ومائها الرقراق بين بلدان عامرة، وحدائق غناء، ومزارع نضرة وأشجار باسقة، طيور تحلق زرافات فى السماء أو تغرد فوق الأغصان المتهدلة على جانبى الطريق، ووجدت على امتداد البصر مناظر تملأ النفس بهجة وسرورا، وكلما سرت فى الطريق رأيته مكتظا بالمركبات والدواب تنقل الناس من مختلف البلاد، وتحمل حاصلاتهم ومتاجرهم، وترى الترعة ذاتها لا ينقطع فيها عبور المراكب والصنادل والبواخر حاملة المتاجر ذاهبة وآتية بين الإسكندرية ودمنهور، فحيثما ذهبت تجد معالم العمران المترامى مداه، وتلمح دلائل الحياة والنشاط والتقدم مرتسمة على كل ما يقع عليه نظرك من مشاهد الطبيعة والخلائق، فإذا سرحت الطرف فى تلك المناظر البهجة فاذكر أن الفضل فى ذلك العمران يرجع لمن حفروا بأيديهم ترعة المحمودية، وبذلوا مهجهم وأرواحهم حتى جرى ماء النيل فى تلك النواحى حاملا إلى الخلائق والناس والأراضى عناصر الخصب والحياة، وإذا تأملت فى كل ذلك فاذكر تضحيات الآباء والأجداد، ومبلغ ما بذلوه فى سبيل رفاهية الأجيال والأعقاب، وتمهل فى سيرك قليلا، واستمطر الرحمة على من استشهدوا فى سبيل ذلك العمران».

يواصل الرافعى: " وقد عنى ـ يقصد محمد على باشا ـ بفتح هذه الترعة عناية كبيرة، فكان يتعهد الأعمال فيها بنفسه، وبذل همة عالية فى سبيل إتمامها، وكان غرضه من شقها إحياء الأراضى الزراعية فى مديرية البحيرة، وجعل الترعة طريق المواصلات النيلية بين الإسكندرية وداخل البلاد، وكانت المواصلات من قبل بطريق رشيد، ولكن صعوبة اجتياز البوغاز كانت تعطل المواصلات من هذا الطريق، وكان ذلك من أهم البواعث التى حفزت محمد على باشا إلى إنشاء الترعة، وقد عهد بتصميم حفرها إلى مهندس فرنسى، ولما تم حفرها افتتحها فى ٢٤ يناير سنة ١٨٢٠ م، وذهب خصيصا إلى الإسكندرية لحضور الافتتاح وقد اقتضى حفر هذه الترعة بذل مجهودات هائلة ومتاعب جسيمة وضحايا كثيرة احتملها المصريون، واحتسبوا فيها وصابروا وصبروا، ويكفيك لتعرف مبلغ الضحايا التى بذلت فى هذا السبيل ما كتبه فى هذا الصدد " مانجان "، حيث ذكر أنه مات من الفلاحين الذين اشتغلوا فى حفر ترعة المحمودية اثنا عشر ألفا فى مدة عشرة أشهر، وأن هؤلاء الموتى دفنوا على ضفتى الترعة تحت أكداس التراب الذى يرفعونه من قاعها، وقال إن معظمهم مات من قلة الزاد والمؤونة، أو من الإعنات فى العمل فقد كانوا يعملون بدون توقف من الفجر حتى الليل، وقال إن عدد من اشتغلوا فى حفرها بلغ ٣١٣٠٠٠ من الفلاحين جئ بهم من مديريات البحيرة والغربية والشرقية والدقهلية والمنوفية والقليوبية والجيزة، وقد أتت هذه الترعة بثمرات عظيمة، فمن جهة المواصلات صارت تجرى فيها السفن بين الإسكندرية والداخل تحمل حاصلات البلد أو وارداته، وكانت سببا فى عمران البلد الذى مرت به فى إقليم البحيرة وإحياء أراضيه، وأفاد عمران الإسكندرية منها فائدة كبرى، إذ جعلتها الترعة ملتقى المتاجر الذاهبة إلى داخل البلد أو الآتية منها، فاتسعت حركة التجارة والعمران فيها، فضلا عن أن مياه الترعة قد ساعدت على الإكثار من الزرع وغرس الأشجار والحدائق فى ضواحى المدينة، فاتسع نطاق العمران، وابتنى الأغنياء القصور وأنشأوا البساتين على ضفاف الترعة فى جهات كانت من قبل مقفرة وجرداء يقول الجبرتى: " وكان الباشا سافر إلى الإسكندرية بسبب ترعة " الأشرفية " المحمودية، وأمر حكام الجهات بالأرياف جمع الفلاحين للعمل، فأخذوا فى جمعهم، فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم المراكب، وتعطلوا

عن زرع الدراوى الذى هو قوتهم، وقاسو شدة بعد رجوعهم من المرة الأولى بعد ما قاسوا ما قاسوه، ومات الكثير منهم من البرد والتعب، وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه الروح !!

إقامة القناطر وتشييد الجسور

كان فكر محمد على خلاقا سباقا، كان الرجل يؤمن بالعمل إيمانه بالحياة ذاتها، لقد وضع خطته الإصلاحية الشاملة، وبدأ رحلة التنفيذ والمتابعة والإصلاح، لم يعمل بمفرده بل كان العمل الجماعى هو سمة هذا العصر، كان الرجل يؤمن إيمانا راسخا بالمبدأ الاقتصادى العظيم «التخصص وتقسيم العمل»، كان يستقدم الخبرات الأجنبية ليمزجها مع النوابغ من أبناء الوطن ليصنع جيلاً جديداً من الخبراء الوطنيين، كان محمد على يخطط للحفاظ على مياه النيل ويرشد استهلاك المياه من خلال الاستخدام الأمثل للموارد المائية، كانت إقامة القناطر على الممرات المائية هى الحل السحرى الذى وضعه محمد على لضبط حركة المياه والتحكم فى كمياتها المندفعة من المنبع إلى المصب.. لقد أنشأ محمد على العديد من القناطر نوجزها فيما يلى: -

١- القناطر الكبرى ذات العيون التسعة على بحر موريس بالزقازيق

٢- قناطر المسلمية.

٣- قناطر بحر مشتول.

٤- قناطر الصفرا.

٥- قناطر العلاقمة.

٦- قناطر فاقوس بالشرقية.

٧- قناطر البريجات بالبحيرة.

٨- قناطر المحمودية بالبحيرة.

٩- قناطر البوهية بالقهلية.

١٠- قناطر المنصورية بالدقهلية.

١١- قناطر السنطة بالغربية.

١٢- قناطر الراهبين بالغربية.

١٣ـ قناطر دميرة بالغربية.

١٤ـ قناطر وتيرة بالغربية.

١٥ـ قناطر بيلا بكفر الشيخ.

١٦ـ قناطر النعناعية بالمنوفية.

١٧ـ قناطر القرينين بالمنوفية.

١٨ـ قناطر السرساوية بالمنوفية.

١٩ـ قناطر الباجورية بالمنوفية.

٢٠ـ قناطر ميت عفيف بالمنوفية.

٢١ـ قناطر الشرقاوية بالقليوبية.

٢٢ـ قناطر الزعفرانية بالقليوبية.

٢٣ـ قناطر أبى المنجى بالقليوبية.

٢٤ـ قناطر طامية بالفيوم.

٢٥ـ قناطر سنورس بالفيوم.

٢٦ـ قناطر جسر شوشة ببنى سويف.

٢٧ـ قناطر الرقة بالجيزة.

٢٨ـ قناطر منبال بالمنيا.

٢٩ـ قناطر الجرنوس بالمنيا.

٣٠ـ قناطر سنشتاد بالمنيا.

٣١ـ قناطر الطحاوية بالمنيا.

٣٢ـ قناطر الطهنشاوى بالمنيا.

٣٤ـ قناطر العتامية بمنفلوط.

٣٥ـ قناطر أبو عفريتة بملوى.

٣٦ـ قناطر على بك بأبنوب.

٣٧ـ قناطر بسرة بالوجه القبلى.

٣٨ـ قناطر أسيوط.

٣٩. قناطر بنى سميع بالوجه القبلى.

٤٠. قناطر قلاى بأسيوط.

٤١. قناطر السوهاجية.

٤٢. قناطر الشباسات.

٤٣. قناطر سمهود .

٤٥. قناطر المصالحة بجرجا .

٤٦. قناطر المراشدة بفرشوط.

٤٧. القناطر الخيرية.

٤٨. قناطر بطن البقرة.

القناطر الخيرية

كانت الخريطة الزراعية المصرية ترتبط ارتباطا وثيقا بالفيضان من حيث توقيته وكميات المياه التى يخلفها، كان نظام الرى السائد فى الوجهين القبلى والبحرى هو نظام الحياض، وكان هذا النظام يقضى بأن يقتصر موسم الزراعة على الزراعات الشتوية فقط، وكانت الزراعات الصيفية تتم فى أضيق نطاق على شواطئ الأنهار والترع والقنوات التى سبق وحفرها محمد على الذى أراد أن يعيد رسم الخريطة الزراعية المصرية من خلال إدخال الزراعات الصيفية إلى التركيب المحصولى لمصر، لكن توجهات محمد على اصطدمت بالظروف القاسية التى يخلفها الفيضان، كانت القناطر العديدة التى أقامها «محمد على» على الترع والقنوات قد ساعدته على تنفيذ جزء من مخططه؛ بإدخال الزراعات الصيفية فى العديد من الأراضى القريبة من المجارى المائية لكن كميات المياه المهدرة والتى تضيع هباءً فى مياه البحر دفعت محمد على إلى الفكير من جديد فى إقامة مشروع ضخم لضبط مياه النيل، كان النهر بمياهه التى تندفع بشراسة يحتاج إلى من يكبح جماحه ويضبط إيقاعه ويتحكم فى إيراداته المائية، كانت منطقة " بطن البقرة " وهى نقطة انفراج النيل إلى فرعيه تمثل المكان المثالى لإقامة قناطر ضخمة تحقق

الأهداف المطلوبة وكلف محمد على مجموعة من كبار المهندسين المصريين بقيادة مصطفى بهجت باشا

واستعان محمد على بالخبير الفرنسى «مسيو موجيل» الذى أبدع فى إنشاء حوض السفن بميناء الإسكندرية، مما كان له أثر فى إعجاب محمد على به، فكلفه بتصميم قناطر ضخمة فى منطقة بطن البقرة، كان المشروع يقضى بإنشاء القناطر فى حوض النهر مباشرة، حيث يتم إنشاء قنطرتين يصل بينهما رصيف ويخرج من مجرى النهر ثلاثة مجار مائية كبيرة توزع المياه على أراضى الوجه البحرى بالكامل كما يلى: ـ كان الرياح البحيرى والرياح المنوفى والرياح التوفيقى وفى احتفال مهيب قام محمد على وهو على مشارف الثمانين بوضع حجر الأساس لهذا المشروع الضخم مشروع القناطر الخيرية الذى حمى مصر من أخطار الفيضانات، وفتح أفاقا جديدة للتنمية الزراعية التى لم تشهدها البلاد من قبل .

إقامة الجسور والسدود

كان إصلاح منظومة الرى يتطلب إقامة العديد من الجسور لمواجهة طغيان مياه النهر المتمردة التى تثور بلا سابق إنذار؛ مما يهلك الحرث والنسل، وكان إصلاح نظم الرى يتطلب إقامة جسر ضخم يمتد من الجنوب، حيث جبل السلسلة حتى مصب النهر عند الإسكندرية، ووضع الرجل الخطة وجعل البلاد تشترك جميعها فى إقامة هذا الجسر بما يخص كل بلدة، وكان إصلاح جسر أبى قير وسد فتحة بحيرة أبوقير من أعظم الإنجازات التى قام بها محمد على، حيث كان إصلاح وإقامة هذا السد بمثابة طوق النجاة الحقيقى الذى حمى مياه النيل من طغيان مياه البحر ليحولها من مياه عذبة إلى ملح أجاج.

ثانياً ـ قطاع الزراعة

النهضة الزراعية فى عهد محمد على

بدأ محمد على ثورته الزراعية الشاملة بالتزامن مع ثورته الإصلاحية الضخمة فى قطاعات الرى والموارد المائية، كانت حزمة الإصلاحات ضخمة وشاملة وجذرية كما أوضحنا، حيث شق الترع والقنوات المائية وأقام السدود

والقناطر؛ لضبط حركة المياه والتحكم فيها لتصل إلى جميع الأراضى الصالحة للزراعة فى مناطق الدلتا المختلفة، وقد بدأ محمد على إصلاحاته الزراعية من خلال ثلاثة محاور أساسية متداخلة ومتزامنة كما يلى : ـ

المحور الأول

قام محمد على بتحديث الزراعات الموجودة من خلال استقدام أصناف ذات جودة عالية وإنتاجية وفيرة، كما اهتم بالزراعات القائمة فى مصر آنذاك، وكان أهمها الخضر والفاكهة والقمح والشعير والفول والبصل والأرز والعدس والحمص والترمس والذرة والبرسيم والزعفران وقصب السكر والتيل والنيلة والكتان والحناء والدخان والسمسم، قام محمد على بوضع خطته للنهوض بهذه الزراعات التقليدية لزيادة الإنتاجية من خلال الاهتمام بالهندسة الزراعية واستنباط تقاو وبذور جديدة من الخارج، وكان الرجل يعلم أن مصر دولة زراعية فى المقام الأول لذلك كانت خطته الإصلاحية تتعامل مع المحور الزراعى على أنه محور أصيل وقاعدة أساسية من قواعد العمل والانطلاق نحو أفاق النهضة.

المحور الثانى

استقدام وجلب أصناف جديدة لم تكن موجودة فى مصر من قبل والتوسع فى زراعاتها كما يلى:ـ

القطن

كانت مصر تزرع القطن منذ أزمنة بعيدة قبل محمد على، لكنه كان قطناً رديئاً لا يصلح إلا للتنجيد وبعض الاستخدامات البسيطة أغلبها يدوية، وكان هناك نوع من القطن طويل التيلة؛ يزرع فى الحدائق وأمام البيوت لأغراض الزينة، وكانت النساء يقطفن لوزات القطن من أمام منازلهن ويقمن بغزله يدوياً واستخدامه فى بعض الاستخدامات البسيطة، واستمرت زراعة القطن هكذا حتى عام ١٨٢١ م، حيث أصدر محمد على قراراً بتعميم زراعة القطن طويل التيلة فى أنحاء الدلتا وقام بإنشاء السواقى اللازمة لعمليات الزراعة، ووضع نظاماً جديداً لشراء المحصول الجديد من مزارعيه بأسعار تغرى الفلاح على معاودة الزراعة مرة أخرى، لم يتوقف محمد على عند تعميم

زراعة ذلك النوع من القطن الذى كان يستخدمه المصريون فى الزينة بل قام باستقدام نوعيات جديدة من الخارج ولم تمض سنوات خمس على تلك التجربة حتى أصبح القطن المصرى ذا شهرة عالمية واسعة، حيث نجح محمد على فى تصدير كميات ضخمة من القطن المصرى طويل التيلة إلى العديد من الدول الأوربية؛ وفى عام ١٨٢٧ كانت الصادرات المصرية من القطن نحو ٣٤٤ ألف قنطار، وكانت الحكومة تشترى القنطار زنة ١٢٠ رطلا بسعر يصل إلى ١٧٥ قرشا، مما أغرى الفلاحين فى الاستمرار والتوسع فى زراعته، وقامت الحكومة بإنشاء العديد من الشون والمخازن لتشوين القطن المصرى تمهيدا لتجهيزه للتصدير.

الزيتون

أدخل محمد على زراعة أشجار الزيتون فى الوجهين البحرى والقبلى، لاستخراج الزيت لاستخدامه فى تغذية الجنود والبحارة، وكانت شجيرات الزيتون تنتشر فى إقليم الفيوم فقط، ويندر ظهورها فى سائر المناطق والأقاليم، وعمل «محمد على» على نشر زراعة أشجار الزيتون فى جميع المناطق، ونجحت زراعة الزيتون نجاحاً عظيماً.

التوت

اهتم محمد على باشا بزراعة أشجار التوت من أجل تربية دودة القز لإنتاج الحرير الطبيعى، واختار منطقة الشرقية ليبدأ بها مشروعه الضخم، وقام بتخصيص مساحة ثلاثة آلاف فدان، وقام بحفر أكثر من ألف ساقية، واختار نحو ألفين من الفلاحين للقيام بعمليات الزراعة، بجانب تربية ستة آلاف رأس ماشية خصصها لهم محمد على، وقام باستقدام العديد من الصناع والزراع المتخصصين فى تربية دودة القز تمهيدا لتصنيع الحرير، وانتشرت زراعات التوت فى جميع أنحاء القطر المصرى حتى بلغت عدد الأشجار المزروعة عشرة ملايين شجرة توت على مساحات تزيد على عشرة آلاف فدان.

الأفيون

أدخل محمد على زراعة الأفيون إلى مصر لاستخراج الزيوت التى تدخل

فى العديد من الصناعات الدوائية وصناعات الطاقة، وقام باستقدام مجموعة من المزارعين المهرة المتخصصين فى زراعة الأفيون من أزمير إلى مصر، حيث قاموا بزراعته على نطاق واسع وبلغت الكميات المنتجة فى عام ١٨٣٣ ما يقرب من ١٥ ألف أوقة وكان سعر الأوقة وقتها ١١٠ قرش صاغ.

النيلة

قام محمد على باستيراد بذور وتقوى النيلة الهندية ذات الإنتاجية والجودة العالية، وتوسع فى زراعتها حتى بلغ إنتاج مصر من النيلة بعد عام ١٨٢٦ نحو ٧٨ ألف أوقة فى السنة، وكانت النيلة موجودة فى مصر قبل محمد على، لكنها كانت تزرع فى مساحات ضيقة وبجودة منخفضة وإنتاجية ضعيفة، لكن فكر محمد على المنفتح كان صائباً، فالزراعة الناجحة كانت عبارة عن أرض خصبة + فلاحا ماهرا + بذورا وتقاوى جيدة، كانت أرض مصر خصبة، وكان فلاحوها يتسمون بالنمطية والتقليدية والاستكانة ومقاومة كل جديد بيد أن المصريين كانوا ـ وما زالوا ـ يقاومون كل خطط التطوير والتحديث، ظنا منهم أن القادم هو الأسوأ على الدوام، وكان المصريون يزرعون «النيلة» على استحياء، وقام محمد على باستقدام مجموعة من المزارعين الهنود المهرة والمتخصصين فى زراعة النيلة إلى مصر لنقل خبراتهم إلى المصريين، وفى الوقت نفسه الذى قام بجلب البذور الجيدة والتقوى الحديثة، فاكتملت بذلك منظومة الزراعات الناجحة.

التيل

أدخل محمد على زراعة التيل " القنب " إلى مصر، وتوسع فى زراعته، ونجحت تلك الزراعة نجاحا باهرا وعلى نطاق واسع، وازدادت الإنتاجية، وكان هدفه من التوسع فى زراعة التيل هو إنتاج الأمراس والحبال لأغراض الصناعة ولخدمة الأسطول، حيث متطلبات رباط السفن التجارية والحربية وكذلك العائمات النيلية.

البن

كان محمد على عاشقاً للقهوة التركية، وكان فنجان القهوة لدى محمد على

يعنى الكثير، لذلك حاول محمد على إدخال زراعة البن إلى مصر.. وفى البداية جلب محمد على تقاوى شجيرات البن من اليمن لكن تلك الشجيرات لم تثمر، ولم تنجح المحاولة، كرر محمد على المحاولة مع بذور غير يمنية، لكن تلك المحاولات باءت بالفشل نظراً لأن البن لا تنجح زراعته إلا فى المناطق الحارة والاستوائية، وتمت محاولات أخرى لزراعة التبغ لكنها كانت محاولات غير موفقة لنفس الأسباب الخاصة بزراعة البن.

الأشجار الخشبية

توسع محمد على فى زراعة الأشجار الخشبية فى أنحاء القطر المصرى، فعلى ضفاف الترع والقنوات وعلى رءوس الأراضى والغيطان والحقول وأمام البيوت والمنازل تم نشر زراعة الأشجار المنتجة للأخشاب، كان محمد على قد قام بقطع معظم الأشجار القديمة لاستخدامها فى بناء الأسطول والمراكب والصنادل، وفى إقامة السواقى التى انتشرت فى ربوع مصر لتشجيع زراعة القطن وجميع الزراعات الحديثة التى أدخلها محمد على، كان الدفع بالتوسع فى الزراعات الشجرية قرارا نابعاً من الحاجة الماسة إلى منتجات تلك الأشجار من الأخشاب فى الأغراض التصنيعية كما أسلفنا، بيد أن الوقت المستغرق بين زراعة وغرس الأشجار واستخدامها فى الأغراض الصناعية وقتاً كبيراً يقدر بالسنوات وليس بالشهور وهذا خير دليل على بعد نظر محمد على ورؤيته المستقبلية والإصلاحية الشاملة.

المحور الثالث

يقوم على وضع سياسة تسويقية فعالة للحاصلات الزراعية خاصة القطن بما يضمن الحصول على أكبر عائد مادى لتلك المحاصيل، فعندما توسع محمد على فى زراعة العديد من المحاصيل القائمة، وأدخل العديد من المحاصيل الجديدة، لم يترك الفلاح يزرع وينفق لينتج محاصيل لا يستطيع تسويقها كانت خطة محمد على تقوم على أساس يقترب كثيرا من الفكر الحديث فى تسويق الحاصلات الزراعية، وهو نظام صناديق موازنات الأسعار، إذ كانت الحكومة تقوم باستلام المحاصيل من الفلاح مقابل سعر عادل، حيث أخذ فى الاعتبار تكاليف الزراعة وإيجار الأراضى وأجرة الفلاح

وتحقيق ربح معقول، يشجع الفلاح على معاودة الزراعة وتجويدها وبذل الجهد فى عمليات التطوير والتحديث، كان المحصول الأساسى الذى تعتمد عليه مصر فى صادراتها هو القطن المصرى طويل لتيلة الذى أصبحت له شهرة عالمية، يحتاج إلى آلية جديدة لتسويقه وتصديره مع تحقيق أفضل المكاسب للمزارع والتاجر والحكومة المركزية، وكانت بورصة القطن التى أنشأها محمد على بالإسكندرية هى السوق الحقيقى والمتطور لتجارة الأقطان المصرية سواء على المستوى المحلى أو الدولى.

ثالثاً ـ قطاع الصناعة

النهضة الصناعية فى عصر محمد على

شهدت مصر فى عصر محمد على نهضة صناعية عظيمة، وعمَّت تلك النهضة جميع أرجاء البلاد، وتحولت مصر إلى قلعة صناعية كبيرة، إذ شهدت ولأول مرة فى تاريخها هذا الكم الضخم من الصناعات الثقيلة التى أسهمت فى بناء هذه الامبراطورية الضخمة بطريقة مباشرة وتنوعت تلك الصناعات كما يلى :-

١ ـ مصنع الغزل والنسيج (الخرنفش)

فى عام ١٨١٦ أنشأ محمد على أول مصنع يدار بالماكينات الضخمة للغزل والنسج، حيث صناعة القطيفة والساتان الخفيف وتم استقدام عمال وفنيين مهرة من إيطاليا لتدريب العمال المصريين ولتشغيل الماكينات فى بداية المشروع وبعد أن أدخل محمد على القطن تم تحويل خطوط الإنتاج ووضع مغازل بديلة لغزل وحلج القطن وتصنيع الأقمشة القطنية، وتم تركيب ١٠٠ (دولاب) تم تخصيص ١٠ منها للغزل السميك بـ ١٠٨ مغازل على خط إنتاج واحد و٩٠ للغزل الرفيع ب ٢١٦ مغزلا تم تزويد المصنع بمائة وأربعين ماكينة، نصفها لتجهيز القطن قبل غزله، بالإضافة إلى عدد ٣٠٠ نول لنسج القطن أقمشة بأنواع متعددة " البافتة "، " الموسلبين " " البصمة " " الشاش " " الباتست "

وكانت تلك المصانع بمثاية مجمع صناعى متكامل، حيث نشأ العديد من الصناعات التكميلية والمساعدة والورش الفنية التى تعمل على إصلاحات

المعدات والماكينات التى قد يصيبها الأعطال أثناء الاستخدام.

٢ـ مصانع التبييض والصباغة

كان من الطبيعى أن يقوم محمد على بإنشاء مصانع لتبييض ما تم صناعته من أقمشة قطنية وحريرية قام محمد على بإنشاء قلعة صناعية على شاطئ النيل فى المنطقة الواقعة بين شبرا وبولاق أطلق عليه " المبيضة " وكانت عبارة عن مجموعة كبيرة من الهناجر والعنابر المعدة لتبييض الأثواب الواردة من المصانع الأخرى، كانت المبيضة تتبع أحدث الأساليب العلمية الحديثة وكان إنتاجها يتميز بالجودة والجمال والإتقان مما جعل الجماهير يقبلون على هذه المنتجات ويتركون المنتجات الواردة من أوروبا؛ مما قلل الواردات كثيرا من هذه الأصناف.

٣ـ مصنع بولاق " مالطة "

على غرار مصنع الخرنفش قام محمد على بإنشاء مصنع آخر بمنطقة بولاق لغزل ونسج القطن واستقدم له عمالة مدربة من مالطة، حتى أطلق عليه مصنع مالطة أو فابريقة مالطة حسب التسمية السائدة فى ذلك العصر، وقد عهد محمد على إلى أحد الخبراء الأجانب ويدعى مسيو جومل بإدارة هذا المصنع، ويعود الفضل لهذا الرجل فى إقناع محمد على بالتوسع فى زراعة القطن طويل التيلة لما رآه ينبت بطريقة مثيرة فى الحدائق وأمام البيوت، كان عدد الأنوال فى هذا المصنع نحو ٢٠٠ نول داخل ٢٨ دولاباً و٢٤ ماكينة تدور من خلال أربعة عشر طنبوراً يجرها ثمانية ثيران وكان كل دولاب يعمل عليه رجل وثلاثة صبية يقومون بعقد الخيوط التى تقطع بحركة الماكينة.

كانت هذه القلعة الصناعية تستوعب العديد من الصناعات المغذية والتكاملية فنشأت العديد من الورش والحرف الأخرى التى تخدم تلك المصانع والمصانع الأخرى التى انتشرت فى الوجهين البحرى والقبلى، كما نشأ العديد من الصناعات الأخرى مثل ورش النجارة والحدادة والخراطة وجميع الصناعات المعدنية ذات الصلة المباشرة وغير المباشرة بصناعات الغزل والنسيج.

٤ـ مصنع " فابريقة السبتية "

كان التوسع فى زراعة القطن مدعاة للتوسع فى صناعات الغزل والنسيج فكان قرار محمد على بإقامة مصنع جديد فى منطقة السبتية بتخصيص فى صناعات الغزل والنسيج على غرار مصنعى الخرنفش وبولاق لكنه كان ذا حجم أصغر نسبيا .

٥ـ مصنع إبراهيم أغا " فابريقة إبراهيم أغا "

كان المصنع يتخصص فى تجهيز الأقطان للمغازل كصناعات مغذية للصناعة الأساسية، وهى صناعات الغزل والنسج، وكان المصنع مزودا بما يزيد على أربعين ماكينة ودولاباً .

٦ـ مصنع أمشاط الغزل

أنشئ هذا المصنع بحى السيدة زينب لإنتاج أمشاط الغزل التى تستخدمها مصانع الغزل والنسيج كما يقوم بإصلاح الأمشاط التى أصابها العطب والتلف فى تلك المصانع .

٧ـ مصنع الحرير بالخرنفش

لما توسع محمد على فى زراعة أشجار التوت كان الغرض الأساسى من هذا التوسع هو إنتاج الحرير لطبيعى الذى تنتجه دودة القز، فقام محمد على بإنشاء مصنع ضخم لإنتاج الحرير واستقدم لهذا الغر ض العديد من الصناع المهرة من الأستانة.

٨ـ مصنع الحبال

كان قرار محمد على بالتوسع فى زراعة التيل نابعا من احتياج البلاد إلى الحبال، وكان من الضرورى أن تقوم الحكومة بإنشاء مصنع لإنتاج الحبال والأمراس نظرا لاستخداماته المختلفة خاصة فى رباط السفن، فكان المصنع الذى أنشأه محمد على فى القاهرة يستلم التيل من المزارعين ويقوم بتصنيع الحبال ويتم إرسالها إلى الإسكندرية وبقية الموانى المصرية لخدمة الأساطيل التجارية والعسكرية.

٩ـ مصنع المنتجات الصوفية

كـان الصـوف السـمـيك الـوارد من الوجـه القـبلى يسـتـخـدم فى صناعـة البطاطين والأحرمة التى يستخدمها المصريون فى أغطية النوم، وأنشأ محمد على مصنعا للمنتجات الصوفية لإنتاج البطاطين والملابس الخاصة بالبحارة

١٠ـ مصنع الطرابيش

اسـتـخـدم المصـريون الطرابيش بكثـرة، وكـان يتم اسـتـيـرادهـا من الخـارج بأسعار مرتفعة، فقرر محمد على إنشاء مصنع للطرابيش اختار له منطقة فوة بشمال مصر، واستقدم لهذ الغرض تاجرا مغربيا لديه خبرة عريضة فى مجال صناعة وتجارة الطرابيش.

١١ـ مصنع الجوخ ببولاق

كان محمد على يريد أن يلبى احتياجات الجيش بصناعات محلية ويريد أن يحقق الاستقلال الحقيقى!

هذا الاسـتـقـلال لن يتـحقق إلا إذا تحـقق الاكتـفـاء الذاتى من احـتـيـاجـات الجيش، فكيف يختلف محمد على مع دولة وهو يستورد منها احتياجاته ؟ فما بالك إذا كان يريد محاربتها؟ لقد كان الجيش هو محور اهتماماته وكانت تلبية احتياجات ذلك الجيش هى شغله الشاغل، وكان مصنع الجوخ أحد أهم المصانع التى توفر للجنود والقوات ملابسهم العسكرية لقد استقدم محمد على العديد من الخبـراء وأرسل العـديد من المبـعـوثين من أجل نجـاح هذا المصنع ذى الأهمية الاستراتيجية، وبالفعل تحقق لمحمد على ما يريد وأصبح المصنع يلبى جميع احتياجات الجيش.

كمـا تم إنشـاء مـصنع قليوب للغـزل والنسـيج، مـصنع شـبـين الكوم للغـزل والنسيج، مصنع زفتى لغزل والنسيج، مصنع ميت غمر للغزل والنسيج، مصنع المنصورة للغزل والنسيج، مصنع دمنهور للغزل والنسيج، مصنع دميـاط للغزل والنسيج، مصنع وة للغزل والنسيج، مصنع رشيد للغزل والنسيج، مصنع المحلة الكبرى للغزل والنسيج، مصنع أسيوط للغزل والنسيج،مصنع بنى سويف لغزل والنسيج، مصنع المنيا للغزل والنسيج،

مصنع فرشوط للغزل والنسيج، مصنع طهطا للغزل والنسيج، مصنع جرجا للغزل والنسيج، مصنع قنا للغزل والنسيج، مصنع الكتان، مصانع النيلة بشبرا، مصنع النيلة بميت غمر، مصانع النيلة بالمنصورة، مصانع النيلة بالمحلة الكبرى، مصنع النيلة ببركة السبع، مصنع النيلة بمنوف، مصنع النيلة بإبيار، مصنع النيلة بأشمون، مصنع النيلة بالجيزة، مصنع النيلة بأبى تيج، مصنع النيلة بملوى، مصنع النيلة منفلوط، مصنع النيلة بطهطا، مصنع النيلة بأسيوط، مصنع النيلة بالفشن، مصنع الصابون ببنها، مصانع الورق، صناعات عصر الزيوت، مصانع الزجاج، مصانع الخزف والصينى، مصانع الشمع، مصانع الجلود برشيد، مصانع النحاس، معامل ومصانع السكر بملوى " الروضة، معامل السكر بساقية موسى، معامل ومسابك الحديد.

ويتضح من هذا العرض السريع لملامح هذه النهضة الصناعية الكبرى أنها كانت مخططة ومتكاملة ومرتبطة ارتباطا وثيقا بالنهضة الزراعية ومكملة لها، حيث اعتمد «محمد على» على معادلة تنموية سهلة وبسيطة؛ لكنها نجحت بكفاءة وفاعلية، وكان قطاع الرى هو المدخل الأساسى لقطاع الزراعة، وكان قطاع الزراعة هو المدخل الأساسى لقطاع الصناعة وقطاع الصناعة هى المدخل الأساسى للجيش والجيش هى المدخل الأساسى للاستقلال والريادة والاستقلال والريادة هما المدخل الاساسى للتقدم والرفاهية.

لقد تطورت الصناعة فى عهد محمد على تطوراً مذهلاً، خاصة صناعة الغزل والنسيج التى تعتبر قاطرة الثورة الصناعية.. لقد تطورت صناعة الغزل والنسيج تطوراً كبيراً فى عهد محمد على، وبلغت عدد الدواليب فى جميع مصانع الغزل والنسيج فى أنحاء القطر المصرى نحو ١٤٥٩ دولاباً، منها ١٤٥ دولاباً للغزل السميك، وتنتج ١٥ ألف رطل من الخيوط فى كل يوم من أيام الصيف و١١ ألفا فى كل يوم من أيام الشتاء و١٣١٤ للغزل الدقيق تنتج ١٣١٤٠ رطلا فى كل يوم من أيام الصيف و٨٥٤٠ فى كل يوم من أيام الشتاء، وكانت معظم المنتجات يتم تصديرها إلى دول حوض البحر الأبيض المتوسط إيطاليا وألمانيا وسوريا وتركيا وغيرها من الدول.

رابعاً ـ قطاع التجارة

نشطت حركة التجارة الخارجية فى عهد محمد على نشاطاً ملحوظاً بعد إصلاح ميناء الإسكندرية وبناء الأسطول التجارى البحرى المصرى فى البحرين الأبيض والأحمر من ناحية، وبعد دخول مصر عصر الإنتاج التصديرى زراعياً وصناعياً من ناحية أخرى وبلغت متحصلات مصر من الصادرات فى عام ١٨٣٦ نحو ٢,١٩٦,٠٠٠ (مليونين ومائة وستة وتسعين ألف جنيه)

وتشكلت صادرات مصر من العديد من المنتجات الزراعية والصناعية كما يلى :ـ

القطن ومصنوعاته

الأرز والحبوب والصمغ

الأنسجة الكتانية

الصودا والتمر

الخضر الجافة

الأفيون والحناء والأقمشة القطنية والحريرية والكتانية

الجوخ والطرابيش وغيرهما.

وكانت واردات مصر من :ـ

الأخشاب ومصنوعاتها والعقاقير والعطارة والبن والفحم السكر والزجاج والنبيذ والمشروبات الروحية وغيرها.

وقد أراد محمد على باشا أن يعيد لمصر مكانتها كنقطة التقاء لحركة التجارة العالمية، خاصة أن التجارة الدولية كانت تتخذ من طريق رأس الرجاء الصالح سبيلاً وحيداً لمرور التجارة من بلاد الشرق والهند إلى أوروبا؛ لكن محمد على قرر أن يعيد لمصر مكانتها التجارية، فقام بالإجراءات والتدابير التالية:ـ

- القضاء على جميع أشكال القرصنة بالبحر الأحمر وخليج عدن.

● إنشاء طريق آمن مزود بمحطات واستراحات لنقل حركة التجارة الدولية من السويس إلى القاهرة، حيث تنقل بالنهر إلى الإسكندرية ثم إلى أوروبا.

● إنشاء ديوان للنقل والمرور بالأزبكية.

وبهذه الإجراءات أعاد محمد على طريق التجارة الدولية عبر الأراضى المصرية بعدما تم استبداله بطريق رأس الرجاء الصالح من قبل، وقد أقنع محمد على السفراء الأجانب بمصر بأن طريق التجارة عبر مصر أكثر أمانا وأقصر زمنا وأقل تكلفة، مقارنة بطريق رأس الرجاء الصالح أو الطريق عبر البصرة والفرات وحلب والإسكندرونة ونجح محمد على فى إعادة حركة التجارة والسياحة ونقل الطرود البريدية من الشرق إلى الغرب عبر الأراضى المصرية.

خامساً ـ قطاع النقل والاتصالات

كان اهتمام محمد على بالنقل والمواصلات والاتصالات اهتماماً بالغاً، نظراً لأن هذه القطاعات تمثل قاطرة للتنمية الزراعية والصناعية والتجارية، لقد أولى الرجل هذا القطاع جل اهتمامه ومنذ اليوم الأول لاعتلائه عرش مصر وهو يضع نصب عينيه حقيقة واحدة أن هذا البلد يمكنه أن يسود العالم بإمكانياته المهولة وبمواهب أبنائه المخلصين، وكان نصيب قطاع النقل من حركة النهضة غير قليل وعلى جميع المستويات، وكانت حركة التجارة تقوم على تنوع حركة النقل بين النقل البرى والبحرى والسكة الحديد وبين حركة الاتصالات، حيث البريد والتلغراف، وهو ما يمكن الإشارة إليه كما يلى :ـ

● **نقل نهرى:** حفر ترعة المحمودية لخدمة الملاحة النهرية من الإسكندرية إلى القاهرة والعكس.

● **نقل بحرى:** بناء الأسطول التجارى البحرى المصرى، وتزويده بكل السبل العلمية التى تمكنه من منافسة أعظم الأساطيل العالمية.

● **نقل برى :** إعادة تشغيل طريق السويس – القاهرة؛ لنقل حركة التجارة من الشرق إلى الغرب عبر الأراضى المصرية.

- **لوجستيات:** إنشاء ديوان النقل والمرور لمراقبة حركة النقل والمرور فى عموم البلاد.
- **اتصالات:** ترتيب حركة البريد برا على أيدى السعاة وعلى ظهور الجياد، وبحراً على ظهور السفن.
- **اتصالات:** إنشاء خطوط التلغراف من خلال بناء أبراج ممتدة على شكل واحد وعلى كل منها جهاز التلغراف فكانت الرسالة تستغرق نصف ساعة بين القاهرة والإسكندرية.
- **سكة حديد:** الشروع فى مد خط سكة حديد بين القاهرة والسويس، لكنه توقف لأسباب أمنية.
- ملاحة وسلامة بحرية: القضاء على قراصنة البحار فى البحر الأحمر لتأمين حركة التجارة إلى مصر.

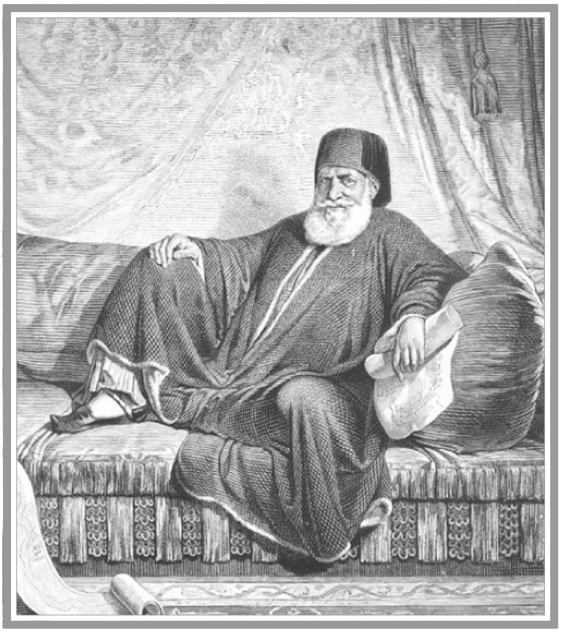
سادساً ـ قطاع التشييد والبناء

كانت حركة العمران فى عهد محمد على علامة بارزة فى هذا العهد، وامتدت حركة التشييد والبناء والعمران فى عموم البلاد وما زالت آثارها العظيمة باقية حتى الآن خير شاهد على عظمة هذا العصر الذهبى، ومن أهم ما قام به محمد على فى هذا المضمار ما يلى :

- إنشاء قصر الجوهرة بالقلعة وكان مقرا للحكم، إنشاء قصر شبرا، إنشاء سراى رأس التين بالإسكندرية، إنشاء الدفتر خانة لحفظ وثائق وأعمال الحكومة،إنشاء مرصد بولاق " رصدخانة "،تأسيس دار الآثار وقرر محمد على منع خروج الآثار القديمة، إنشاء مدينة الزقازيق ، إنشاء إدارة التلغراف، إنشاء إدارة البريد، إنشاء جامع محمد على بالقلعة، حيث أوصى بأن يدفن فيه.



الفصل التاسع



الجيش المصرى
البناء الجيد والانطلاقة الكبرى



«إن الجندية مهمة نبيلة يحط من قدرها أن تصبح فى متناول الفلاحين»!!

كان هذا هو المفهوم السائد والمسيطر على النخبة الحاكمة فى مصر قبل محمد على، بيد أن الرجل كانت له رؤية ثاقبة صائبة تماماً، حيث كان محمد على يؤمن إيماماً راسخاً بأن إمكانيات الشعب المصرى هائلة وغير محدودة، وتنتظر من يكتشفها، ثم يفجرها ثم يوظفها فى المكان والزمان الصحيحين.. بهذا الإيمان ولهذه القناعات بدأ الرجل رحلة بناء الجيش المصرى بصبر وجلد وصمود، وتحدى تلك الرحلة الشاقة والمثيرة والعنيفة نقلت الجيش المصرى من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، وأصبحت شهرته تناطح السحاب كواحد من أفضل جيوش العالم، كان فكر الرجل، وهو بصدد بناء ذلك الجيش العظيم، يقوم على محاور عدة، تتفرع جميعها من العنصر البشرى لتعود إليه من جديد فى حركة ديناميكية رائعة، فالاهتمام الشديد الذى أولاه محمد على للموارد البشرية كان متوائما ومتناسقا مع أصل الحقيقة، وهى أنه لا تقدم بدون بشر، فالبشر هم محور التنمية وأساس النهضة، لقد كان الفكرة السائدة عن المصريين قبل محمد على تدعو إلى الإحباط واليأس، لكن الرجل فتش بمهارة شديدة عن الكوامن الرائعة فى الشخصية المصرية، واستطاع أن يصل إليها ويحقق المعجزات، لقد تبدلت الصورة القاتمة، وتحولت الانهزامية إلى تحديات متتالية ومستمرة حتى أصبح المصرى يفخر بمصريته، وتحول المصرى إلى موضع اهتمام المحللين والخبراء والمراقبين وأصبحت «الحالة المصرية» موضع إعجاب وتقدير الجميع، وتبدلت النظرة

الدونيـة إلى الفـلاح المصـرى إلى نظرات إعـجـاب دائمـة، حـروب ومـواقع وانتصارات وانكسارات، لكن تبقى الحقيقة الساطعة أن المصريين هم خير أجناد الأرض.

وهنا أوجز أهم الآراء التى قيلت فى الجيش المصرى: ـ

يقول كلوت بك أحد قادة عصر النهضة فى عصر محمد على فى كتابه «لمحة عامة إلى مصر»" : ربما يعد المصريون أصلح الأمم، لأن يكونوا من خيرة الجنود، لأنهم على الجملة يمتازون بقوة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة والقدرة على العمل، واحتمال المشاق، ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر، والشجاعة، والثبات عند الخطر، والتذرع بالصبر فى مقابلة الخطوب والمحن، والإقدام على المخاطر، والاتجاه إلى خط النار بلا وجل ولا تردد ".

وفى السياق ذاته يقول «المسيو مورييه»: لما انتظم الفلاحون فى صفوف الجيش النظامى، ألفوا بسرعة حياتهم الجديدة، وبعد أن كانوا معتادين الذل فى قراهم استشعروا تحت راية الجيش بكرامتهم الإنسانية، وأخذوا يفخرون بأنهم جنود محمد على، ويقابلون غطرسة الترك بمثلها.. "

● ويقول عبد الرحمن الرافعى: فى كتابه عصر محمد على: " ولا يغيبن عنك أن نجاح تجربة تجنيد المصريين فى عهد محمد على وما برهن عليه الجيش من الكفاية والنظام يدل على مبلغ استعداد الأمة المصرية لأن تكون أمة حربية، ويكفيك أن تتأمل فيما كان عليه الجيش من الفوضى والتأخر حينما كان مؤلفا من الأرناؤوط وغيرهم من أخلاط السلطنة العثمانية، وكيف استعصى على محمد على أن ينشئ من تلك العناصر جيشاً نظامياً، وكيف انقاد له ذلك حينما اعتمد على المصريين دون سواهم، فألف منهم الجيش الذى تردد ذكره فى الخافقين لما ناله من الانتصارات الباهرة فى ميادين القتال، " ولا شك فى أن انضواء الجنود والضباط تحت علم الجيش مما يعودهم حب النظام والنظام هو من العوامل الرئيسة لارتقاء الأمم وتقدمها، فليس ثمة نهضة من غير أن يكون النظام رائدها، وكذلك من خصائص الحياة العسكرية أن تبث الشجاعة فى نفوس الأمة وتغرس فيها مبدأ افتداء الوطن بالنفس والنفيس، ذلك المبدأ الذى هو من أقوى دعائم الاستقلال

والحرية، فالروح الحربية المصرية قد تجلت تحت راية الجيش النظامى وساعدت على تأليفه، كما أن تكوين الجيش نفسه كان له أثر فعال فى نمو تلك الروح وبروزها واكتمالها، هذا فضلا عما فطر عليه المصرى من الإيمان والقناعة والطاعة والصبر على المكاره والاطمئنان على قضاء الله وقدره.. كل هذه الصفات جعلت من الفيالق المصرية النظامية جيوشا ضارعت أرقى الجيوش الأوربية فى التدريب والكفاية والشجاعة "

ويقول المسيو مريو : فى كتابه مصر الحديثة من ١٨٤٠ إلى ١٨٥٧ :" إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى وأتباعه وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الأعداء، كل هذه الميزات قد قامت عليها البيّنات لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب، وسورية فى عصر محمد على فحسب، بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا فى حرب القرم الأخيرة ".

● وقال المارشال مارمون : فى كتابه رحلة المارشال مارمون " إن المصرى له حظ عظيم من المقدرة على التقليد تبلغ درجة النبوغ، وهو متصف بالاستقامة والنشاط والغيرة مع المرونة والطاعة، وبهذه الصفات يمكن الوصول إلى تحقيق كل ما يريد الإنسان، وبفضل هذه المزايا صار العمال الذين خرجوا من صفوف الفلاحين إخصائيين فى الفنون التى تدربوا عليها كل فيما خصص له، ولم يقتصر الأمر على تدريبهم على أعمال الخشابين والنجارين والحدادين، بل تخصص منهم كثيرون لأعمال بلغت غاية الدقة فنجحوا فى صنع آلات البحرية كالبوصلات والنظارات، وقد شاهدت بنفسى المعامل التى تصنع فيها هذه الآلات والعمال الذين يصنعونها، ورأيت الإتقان فى صنعها، والعمال الفنيون الذين يصنعونها لم يمض عليهم سنتان فى التمرن على تلك الأعمال ومن الحق أنه يقال إنه لا ينتظر الوصول إلى هذه النتيجة بمثل هذه السرعة من عمال أوربيين يأخذون من صفوف الفلاحين مهما كانت الأمة التى يختارون منها ".

ويقول المسيو مانجان: " إن محمد على بهدمه الجيش غير النظامى، وتجنيده الفلاحين على النظام الأوربى قد أكسب شعبه تقدماً عظيماً، ورد إلى مصر قوميتها ".

● ويقول البارون بوالكونت فى كتابه رسائل البارون بوالكونت: " إن

المصريين هم خير من رأيتهم من الجنود؛ فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان، وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار، يحدوهم الشد والعناء، ولقد رأيتهم فى موقعة «قونية» يبقون سبع ساعات متوالية فى خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جأش تدعوان إلى الإعجاب دون أن تختل صفوفهم أو يسرى إليهم الملل أو يبدو منهم تقصير فى واجباتهم وحركاتهم الحربية ".

● ويقول كادلفين وبارو فى كتاب «حرب محمد على ضد الباب العالى» "إن المصريين من سكان وادى النيل لم يكن لهم منذ الفتح العثمانى حق الانتظام فى الجيش ولكن محمد على قد أعاد اليهم هذا الحق وهو بتجنيدهم ولو أن ذلك كان على كره منهم، قد رفع من شأنهم وانتشلهم من الوهدة التى نزلوا إليها، وقد استردوا سمعتهم بما أظهروه من الشجاعة فى ميادين الحروب التى خاضوها ".

أعلى عليين

والذى نفسى بيده كأنها معجزة تفلتت من عصر لم يعد يعرف المعجزات، فمن أسفل سافلين إلى أعلى عليين، ومن الضياع إلى المجد، ومن الدونية إلى الكبرياء أما كيف كانت البداية.. فتلكم هى الرواية من البداية..

محاولات فاشلة

كانت المحاولة الأولى التى قام بها محمد على فى عام ١٨١٥ بعد عودته من حرب الحجاز، حيث أدخل محمد على نظاماً جديداً للتدريب وأمر بتطبيقه على إحدى الفرق العسكرية لابنه إسماعيل باشا، وأعلن محمد على من بولاق تفاصيل النظام الجديد وحذر مهددا كل من يتخلف عن هذا النظام أو يقاومه بأى شكل من أشكال المقاومة بالعذاب الأليم.. وبعد مغادرة محمد على بولاق متجها إلى شبرا علم بعصيان الجند وتمردهم على هذا النظام الجديد، وكان الجند قد أعلنوا تمردهم وعصيانهم ورفضهم القاطع لتطبيق تلك النظم العسكرية الجديدة، وكان هذا التمرد بمثابة فرصة حقيقية لبعض قادة الجند للخروج على ولى الأمر فى محاولة للتخلص منه وعزله، فاجتمع

هؤلاء ووضعوا خطة محكمة لتحقيق أهدافهم، وعلم عابدين بك أحد قادة الجند الأرناؤوط بتفاصيل تلك المؤامرة وكان عائدا لتوه مريضا من حرب الحجاز فسارع الرجل بإبلاغ محمد على بالتفاصيل التى كانت تقضى بمهاجمة محمد على فى قصره بالأزبكية، وبسرعة البرق تسلل محمد على ليلا من قصر الأزبكية إلى القلعة التى دخلها فى الثلث الأخير من الليل من طريق باب الجبل، وعلى الجانب الآخر قام المتمردون بمحاصرة سراى الأزبكية، ووقعت اشتباكات عنيفة مع الحراس، وما ان علموا بعدم تواجد محمد على بالقصر حتى حركهم غضبهم صوب المتاجر والأسواق فأحدثوا موجة عنيفة من السلب والنهب وترويع المواطنين، استمرت حالة العصيان واستفحلت لكن محمد على تعامل بحكمة بالغة مع هذا التمرد العنيف الذى كاد ينجح قادته فى عزل الرجل وإقصائه عن ولاية مصر..

أسرع محمد على بتشكيل لجنة برئاسة نقيب التجار الشيخ محمد المحروقى لتقدير الخسائر والتلفيات التى خلفتها حركة التمرد وتقدير التعويضات العادلة لجميع المتضررين، ساعد هذا القرار على امتصاص غضبة الجماهير وزاد من شعبية محمد على، وتحولت الجماهير إلى تأييده والوقوف بجانبه للسيطرة على هذه الفوضى العارمة، أظهر محمد على استياءه الشديد من حركة التمرد والعصيان التى كانت دافعا قويا كى يتمسك بوجهة نظره فى ضرورة تسريح هذا الجيش غير النظامى المكون من مجموعة مرتزقة لا يربطها بالوطن سوى الرواتب والمزايا الأخرى.

بدأ محمد على خطته فى تسريح تلك القوات؛ وذلك بتشتيتهم وتوزيعهم إلى الأقاليم البعيدة حتى تضعف عزيمتهم وتنكسر شوكتهم وتنعدم سبل اتحادهم من جديد، وكان يرسل أبناءه طوسون وإسماعيل على رأس بعض القوات إلى بعض تلك الأقاليم؛ حتى لا يشعر هؤلاء الجنود بأنهم هم المستهدفون من هذا الإبعاد، لقد استمرت خطة التشتيت والتسريح قرابة أربع سنوات كاملة تحلى فيها محمد على بالصبر والحكمة والدهاء السياسى.. يقول الجبرتى: " أمر الباشا جميع العساكر بالخروج إلى الميدان لعمل التعليم والرماحة خارج باب النصر، حيث قبة العزب فخرجوا من ثلث الليل الأخير؛ وأخذوا فى الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود

على طريقـة الإفـرنج، وذلك من قـبـيل الفـجـر إلـى الضـحـوة، ولما انقـضى ذلك رجعوا داخلين إلى المدينة فى كبكبة عظيمة حتى زحموا الطرق بخيولهم من كل ناحية، وداسـوا أشـخاصـا من الناس بخيولهم بل وحميـرا أيضا وأشيع أن الباشـا قصـده إحصاء العسكر وترتيبهم على النظام الجديد وأوضـاع الإفرنج ويلبسـهم الملابس المقـمطة ويغيـر شكلهم وركب فى ثانى يوم إلى بولاق وجمع عسـاكر ابنه إسـمـاعيل باشـا وصفهم على الطريقة المعروفة بالنظام الجـديد وعـرفهم قـصـده وفـعل ذلك بجـمـيع العـسـاكـر ومن أبى ذلك قـابله بالضـرب والطـرد والنفى بعـد سلبـه حـتـى ثيـابه ثم ركب من بولاق وذهـب إلى شـبـرا وحصل فى العسكر قلقلة ولغط وتناجوا فيما بينهم وتفرق الكثيـر منهم عن مـخـادمهم وأكابرهم ووافـقـهم على النفور ببعض أعيانهم، واتفقـوا على غدر البـاشـا ثم إن البـاشـا ركب من قـصـر شـبـرا وحـضـر إلى بيت الأزبكيـة ليلة الجمعـة وقد اجتمع عند عـابدين بك بداره جمـاعـة من أكابرهم فى وليمـة وفيهم حجوا بك وعبدالله أغا صارى وحسن أغا الأزرجانلى؛ فتفاوضوا بينهم فى أمر البـاشـا وما هو شـارع فيه واتفقوا على الهجوم على داره بالأزبكية فى الفجر ثم إن عابدين بك غافلهم وتركهم فى أنسهم وخرج متنكرا مسرعا إلى البـاشـا وأخبـره ورجع إلى أصـحـابه فـأسـرع البـاشـا فى الحـال إلى الركوب فى سـادس سـاعـة من الليل وطلب عسـاكر طاهر باشـا فـركبوا معه وأحـاط المنزل بالعساكر ثم أخلف الطريق وذهب إلى ناحية الناصرية ومرمى النشاب وصعد إلى القلعـة واتبعه من يثق به من العـسـاكر وانحـزم أمـر المتوافـقـين ولم يسعهم الرجـوع عن عـزيمـتـهم فـصـاروا إلى بيت البـاشـا يريدون نهبـه فـمـانعـهم المتـرابطون وتضـاربوا بالرصـاص والبنـادق وقـتل بينهم أشـخـاص ولم ينالوا غـرضـا فـصـاروا إلى ناحـيـة القلعـة واجـتـمـعـوا بالرميلة وقـراميـدان " يقـول الجـبـرتى " رجع البـاشـا من غـيـبـتـه من الإسكندرية وأول مـا بدأ به إخـراج العسـاكر مع كبرائهم إلى ناحية بحرى وجه البحيرة والثغور فنصبوا خيامهم بالبـر الغربى تجاه الرحمانيـة وأخذوا صحبتهم مدافع وبارودا وآلات الحـرب واستمر خروجهم فى كل يوم وذلك من مكايدة معهم وإبعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة فخرجوا أرسـالا واسـتهل شـهـر ربيع الأول ١٢٣١ هـ، وفـيـه سافر طوسون باشا وأخوه إسماعيل إلى ناحية رشيد ونصبوا عرضيهما عند الحمـاد وناحـيـة أبى منصـور وحسين بك دالى باشـا وخـلافـه مثل حسن أغـا

ومحو بك وآخرين جهة البحيرة، وكل ذلك توطين وتلبيس للعساكر بكونه أخرج حتى أولاده العزاز والكثير من كبرائهم إلى جهة البحر الشرقى ودمياط "

بناء القدرات

الانطلاقة الكبرى (١٨٢٠)

بعد مرور خمسة عشر عاما على جلوسه على كرسى الحكم، واثنى عشر عاماً على طرد الإنجليز من مصر، وتسع سنوات على التخلص من المماليك، وخمس سنوات على حركة التمرد والعصيان.. بعد كل هذه السنوات، بدأ قطار النهضة يتحرك نحو بناء جيش مصرى حديث على غرار الجيوش الأوربية فعندما تقابل محمد على باشا مع الكولونيل الفرنسى سيف فى عام ١٨١٩ كلفه بتنظيم الجيش المصرى وبنائه على أسس علمية وفق أحدث النظم الحديثة المطبقة فى أوروبا، ولقد وجد محمد على هذا القائد الفرنسى ذا أخلاق حميدة ومهارة عسكرية نادرة، كانت خبرة الرجل العريضة فى ميادين القتال هى التى جعلت محمد على يثق به، ويعهد إليه بأخطر مهمة فى حياة محمد على باشا، لقد خاض الكولونيل سيف واقعة «الطرف الأغر» بين انجلترا وفرنسا كما ذكرنا آنفاً، حيث كان ضمن القوات البحرية ثم تحول إلى القوات البرية، وانخرط فى الجيش الفرنسى تحت قيادة نابليون بونابرت، ورقى إلى رتبة كولونيل (أميرالاى) لكن سرعان ما تمت إحالته إلى الاستيداع وخرج من الخدمة بعد نهاية عصر نابليون بونابرت، حيث كان يعد من أمهر القادة فى جيش نابليون وكان يعرف عنه ولاؤه الشديد وإيمانه الذى لا يتزعزع بهذا القائد الفرنسى العظيم، اتجه الكولونيل سيف إلى العمل بالتجارة والزراعة لكن طبيعته العسكرية كانت تقف له بالمرصاد، وكان حنينه إلى الحياة العسكرية لا ينقطع، كان الرجل يعشق الانضباط والحزم إلى أقصى درجه، أخذ الرجل يبحث عن فرصة للعمل كخبير ومخطط عسكرى بأحد الجيوش فى أى دولة بأى ثمن، وفى هذه الأثناء نصحه صديقه الكونت دى سيجور بالذهاب إلى مصر، حيث الفرصة ستكون مواتية له للعمل مع

ذلك الرجل الطموح الذى يحاول بناء جيش مصرى على أحدث النظم العالمية، فجاء الرجل إلى مصر وتقابل - كما ذكرنا - مع الباشا وأشهر إسلامه وسمى نفسه سليمان باشا، وفى عام ١٨٢٠ توجه الرجل إلى أسوان لإنشاء أول مدرسة حربية عليا فى مصر تنفيذاً لتعليمات محمد على باشا لكن.. لماذا أسوان؟؟

اختار محمد على باشا أسوان ليكون مشروعه بعيدا عن القاهرة التى كانت مركزاً للفتن والدسائس والمؤامرات، كان يريد أن يبعد بهذا المشروع الوليد عن الأنظار وما يمكن أن يثيره من الفتن بين الجند غير النظاميين ومحمد على، كان الرجل يحاول أن يبتعد بمشروعه إلى أقصى نقطة مستعيناً على قضاء حوائجه بالكتمان!! يقول الرافعى حول هذه النقطة: " قد اختار محمد على أسوان لتخريج الدفعة الأولى من ضباط الجيش رجاةً أن ينفذ مشروعه بعيداً عن الدسائس والأنظار معاً، ولكى يتم فى سر دون أن يلتفت إليه الناس، فإذا نجح فالنجاح، وإن أخفق لا يكون لإخفاقه رد فعل يزعزع مركزه، وكان ذلك من دلائل بعد نظره وفراسته، ومما رغبه أيضاً عن القاهرة خشيته أن يكون تعليم التلاميذ على يد ضابط أوروبى مثاراً لهياج الخواطر فيها، خاصة بين الجنود غير النظاميين الذين كانوا ينفرون من كل نظام جديد، ثم ليكون التلاميذ بمنجاة من أسباب اللهو بعيدين عن أماكنه فلا يفسد عليهم الأخلاق الحربية " ثم توالى إنشاء المدارس العسكرية التى ذكرناها بالتفصيل حينما تعرضنا للنهضة التعليمية من قبل : وهى مدرسة أسوان الحربية العليا، مدرسة البحرية العليا بالإسكندرية، مدرسة البحارة برأس التين، مدرسة المشاة العليا بالخانكة، مدرسة المدفعية العليا بطرة، مدرسة الفرسان العليا بالجيزة، المدرسة التجهيزية العسكرية بقصر العينى، مدرسة الموسيقى العسكرية العليا بالخانكة.

تجنيد السودانيين

كان خريجو هذه المدارس العسكرية من الضباط على درجة عالية من الكفاءة العلمية والتدريبية وكانت الخطوة التالية اختيار الأشخاص الذين يصلحون للجندية، كان محمد على لا يريد أن يعتمد على الأرناؤوط أو

الأتراك، حيث إنهم يميلون دائماً إلى التمرد والعصيان والجنوح على المألوف، فى الوقت نفسه كان من الصعب أن يعتمد الرجل على المصريين فقط،، حيث إن المصريين لم يعتادوا الالتحاق بالتجنيد، وكان متوقعاً أن يثور المصريون ويقاوموا تجنيدهم بالهرب أو التكاسل، لذلك كان اتجاه محمد على إلى السودان، حيث كلف ابنه إسماعيل باشا وصهره أن يجمعا له كل من يصلح للجندية من إقليمى كردفان وسنار، نجح الرجلان فى اختيار أكثر من عشرين ألفاً من السودانيين، وقام محمد على بوضع برنامج تدريبى على أعلى مستوى، وأرسلهم إلى منطقة بنى عدى، وأخذ الضباط الذين تخرجوا فى مدرسة أسوان فى قيادة تلك التدريبات العنيفة، واهتمت الحكومة بأمر هؤلاء الجنود وخصصت لهم الثكنات الكافية والمؤن والملابس والأسلحة والعتاد والمستشفيات وجميع الخدمات، لقد بذل محمد على جهوداً جبارة من أجل إنجاح هذا المشروع وحول هذه التجربة.. يقول الرافعى: " على أن تجربة تجنيد السودانيين لم تصادف النجاح المرغوب فإن معظمهم وقع فيهم الموتان لعدم موافقة جو مصر لمزاجهم وصحتهم؛ ولأنهم لم يطيقوا أعباء الخدمة العسكرية فأخذ محمد على يفكر فى الالتجاء إلى تجنيد المصريين ".

تجنيد المصريين (١٨٢٣)

بعد فشل تجربة تجنيد السودانيين لم يعد أمام محمد على إلا تجنيد المصريين، وبدأ فى وضع النظام الذى بمقتضاه يتم اختيار المجندين، لقد وضع الرجل معايير صارمة، وعمل بكل قوته على تطبيقها حتى يكون البناء سليماً من الأساس، لقد واجه محمد على الكثير من الصعوبات التى وصلت إلى درجة التمرد والعصيان ومقاومة فكرة الالتحاق بالجندية، لكن الرجل التزم الحكمة والروية لامتصاص غضبة المصريين الذين كانوا يكرهون الجندية كرهاً لم تعرفه الأمم الأخرى إذ لم يألف المصريون الحياة العسكرية النظامية من قبل، وكانت توجهاتهم الحياتية منحصرة فى الزراعة وانتظار المحصول ومقاومة الفيضانات، أما شئون الجندية والتدريبات، وما يتبعها من قتال وخلافه فلم يألفوه من قبل، لكن المصريين بعد أن انضموا إلى الجيش وآمنوا برسالته وتحركت مشاعرهم الوطنية ضربوا أعظم الأمثلة وأروعها فى الجدية والالتزام والفدائية والروح القتالية العالية، حتى صاروا مضرب

الأمثال ومثار إعجاب الجميع يقول الرافعى: " وفى يناير سنة ١٨٢٣ تألفت الأورط الست الأولى من الجيش النظامى وجعل المماليك الذين تخرجوا فى مدرسة أسوان ضباطا ومضت سنة ١٨٢٣ ثم الأشهر التالية إلى يونيه سنة ١٨٢٤ فى اتقان تدريب تلك الأورط فاغتبط محمد على بهذه النتيجة الأولى وأراد أن يشهد بنفسه درجة نجاح مشروعه فأمر بنزول الأورط النظامية إلى القاهرة وعرضها فى الخانكة وكانوا عدة آلاف من المشاه البيادة شاكى السلاح كاملى العدة قاموا بمناورات حربية أثبتوا فيها دربتهم وحسن نظامهم فأعجب بهم محمد على واغتبط بنجاح مسعاه وأنشأ معسكرا عاما للجيش فى الخانكة، كان يحتوى دواما من عشرين إلى خمسة وعشرين ألفا من الجنود النظاميين وصارت الخانكة وأبو زعبل قلعة للتعليم العسكرى وما إليه ففى أبى زعبل أنشأ المستشفى العسكرى الأول ثم مدرسة الطب، وأنشأ المدرسة الحربية للمشاة ومدرسة أركان الحرب فى الخانكة واعتزم تجربة جنوده النظاميين فى ميادين القتال فأنفذ الأورطة الأولى إلى الحجاز، حيث كانت الثورات لا تخمد جذوتها والثانية إلى السودان والأربع الأخرى إلى بلاد المورة لمحاربة اليونانيين تحت قيادة إبراهيم باشا ".

قدرات المصريين

تحول الجيش المصرى فى عهد محمد على إلى جيش من أكبر جيوش العالم من حيث العدد والعتاد ولنا أن نتخيل تلك النقلة الهائلة التى شهدها الجيش المصرى، حيث كان عدد قوات الجيش المصرى فى بدايات حكم محمد على لا يزيد على عشرين ألفا من الجنود المرتزقة غير النظاميين الذين يتخذون من الجندية حرفة ووظيفة.

وبعد نجاح خطط محمد على فى بناء الجيش النظامى، وبعد ما تعرضت له تلك المحاولات من صعوبات جمة نجحت التجربة أيما نجاح، وأصبح عدد القوات المقاتلة فى الجيش المصرى فى عام ١٨٣٣ يقترب من مائتى ألف مقاتل موزعين على جميع التخصصات والأفرع البرية والبحرية وغيرها.

وفى عام ١٨٣٩ بلغ عدد القوات البرية نحو ربع مليون مقاتل موزعين كذلك بين جميع أفرع القوات المسلحة التى كانت تنتشر، حيث أماكن النفوذ

المصرى فى السودان والحجاز والمدينة المنورة ومكة المكرمة والدرعية وينبع وسوريا فى حلب وطرطوس ودمشق وأنطاكية واليمن والحديدة وعدن وكريت واليونان وفلسطين فى عكا وحيفا وبيت المقدس والخليل ونابلس وبيسان، بالإضافة إلى القوات الموجودة فى مصر والثغور المصرية .

إنشاء ديوان الجهادية

كان اتساع نطاق المؤسسة العسكرية فى عهد محمد على - كما أوضحنا - من حيث العدد والعتاد تتطلب وجود كيان مؤسسى على أعلى مستوى يقوم بعمليات التنظيم والترتيب والتدريب وجميع عمليات الإدارة العسكرية فكان ديوان الجهادية أو نظارة الحربية هو أول تجربة مؤسسية تشهدها العسكرية المصرية فى تاريخها الحديث بل والمعاصر، وكانت تلك النظارة أو الديوان تقوم بالمهام التالية:

-توفير الطعام والملابس للجنود والضباط، وتوفير المعدات والأسلحة، ووضع البرامج التدريبية اللازمة وتجهيز القوات المطلوبة للحروب القائمة والمحتملة، وتوفير الخدمات الصحية، والطبية للقوات النظامية، وتوفير الرواتب للجند، والضباط، وتنمية الروح الوطنية وحب الجندية وقيم الولاء والإخلاص، والتطوير المستمر وملاحقة التطوير الحاصل فى أوروبا.

الصناعات الحربية

بعد تكوين الجيش بضباطه وجنوده، وبعد إنشاء الكيان المؤسسى للجهادية اتجه فكر محمد على إلى ضرورة التصنيع الحربى للأسلحة والذخيرة والمعدات الحربية حتى يستطيع الرجل أن يكون صاحب قرار مستقل، ولا يقع فريسة للمنع المذل، أو المنح بمقابل سياسى، لذلك اتجه الر جل إلى اتباع سياسة تصنيعية رائدة نوجزها فيما يلى: ـ

ترسانة القلعة للصناعات الحربية

كانت تلك الترسانة تنتج من ٦٠٠ إلى ٦٥٠ بندقية تكلفة البندقية الواحدة عشرة قروش مصرية آنذاك بصفة شهرية، وكان يعمل بهذه الترسانة ما يقترب من ألف عامل مصرى، وتم إقامة العديد من الصناعات الأخرى ذات

الصلة مثل صناعات زناد البنادق والسيوف والرماح ولوازم الجنود من حمائل السيوف ومواسير البنادق وصناديق البارود وألواح النحاس التى تستخدم فى صناعة السفن.

مصنع الحوض المرصود للبنادق

فى عام ١٨٣١ أنشأ محمد على المصنع الثانى للبنادق، حيث لم يكتف بمصنع القلعة، وكان مصنع الحوض المرصود ينتج شهريا ١٠٠٠ بندقية مختلفة الأحجام والأشكال والأنواع حسب الاستخدام، وكان متوسط تكلفة البندقية الواحدة نحو أربعين قرشاً فى ذلك الوقت، وكان يعمل بهذا المصنع نحو ١٢٠٠ عامل مصرى يعملون بكفاءة نادرة أثارت إعجاب العديد من المراقبين والخبراء المعنيين وكان إدارة المصنع تقوم بعمل برنامج تجريبى للمصنوعات العسكرية بصفة أسبوعية.

مصنع صب المدافع

كان يعمل بهذا المصنع ما لا يقل عن ألف وخمسمائة عامل ينتجون أربعة مدافع عيار ٤ أو ٨ أرطال، كما ينتج هذا المصنع مدافع الهاون ٨ بوصات ومدافع أخرى بقطر ٢٤ بوصة.

مصانع ومعامل البارود

فى أقصى طرف جزيرة الروضة أنشأ محمد على مصنعاً للبارود، واستقدم له أحد الخبراء الفرنسيين ويدعى مسيو مارتل، وكان المصنع ينتج يومياً نحو ٣٥ قنطاراً من البارود، وكان يعمل بهذا المصنع نحو ١٠٠ عامل تم توزيعهم بين أقسام العمل، ثمانية عشر عاملا يقومون بخلط الكبريت والفحم وملح البارود، و٢١ عاملا يقومون بتقليب البارود فى الطواحين العشرة ولكل طاحونة عشرون مدقة تحركها عشر آلات تجرها البغال ويقودها عشرة رجال وأربعون عاملاً يقومون بصنع الرش، وقد اعتنى محمد على اهتماماً عظيما بمصانع البارود، وتوسع فيها كثيرا وأنشأ العديد من المصانع كما يلى: «معمل القاهرة وينتج نحو ٩٠٠٠ قنطار، ومعمل البدرشين وينتج نحو ١٦٠٠ قنطار، ومعمل الطرانة وينتج نحو ٤٠٠ قنطار، ومعمل أهناس وينتج نحو ١٢٥٠

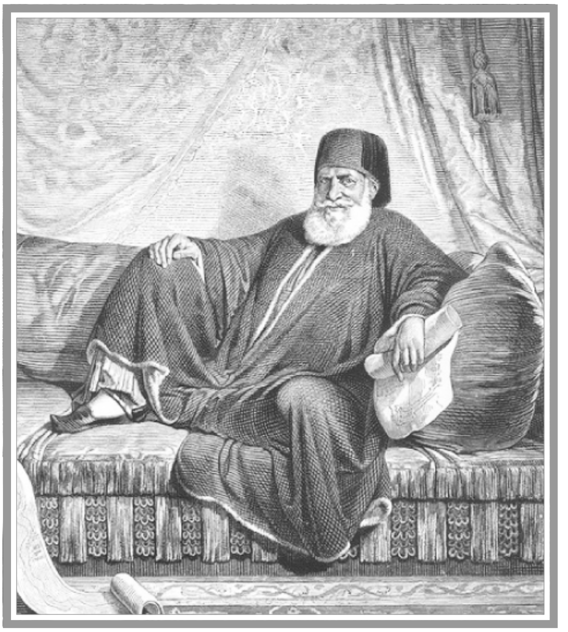
قنطاراً ومعمل الفيوم وينتج نحو١٣٠٠ قنطارا ومعمل أشمون وينتج نحو ١٥٠٠ قنطار.

مخازن البارود والقنابل

اهتم محمد على اهتماما كبيراً بتخزين المنتجات الحربية من أسلحة وذخائر، وكانت القنابل والبارود أهم ما يشغل محمد على، حيث إن سوء إدارة المخزون أدى إلى العديد من الكوارث والحرائق والانفجارات المدوية؛ لذلك قام محمد على بإنشاء مجموعة من المخازن المؤمنة بنظم إنذار وتأمين حديثة، وكانت هناك نظم رقابية صارمة على حركة المخزون؛ حتى لا يتسرب السلاح فى يد أعداء محمد على.



الفصل العاشر



بناء البحرية المصرية



عبقرية المكان وعبقرية القرار

تتميز مصر بموقع عبقرى بين قارات العالم جعلها مطمعاً للقوى الاستعمارية على مر العصور والدهور، وكانت ومنذ القدم ملتقى لحركات التجارة بين المشرق والمغرب، وبعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح خفتت تلك الأهمية لزمن ليس بالقصير ومع وصول محمد على باشا إلى حكم مصر أدرك ببصيرته الحادة أن هذا الموقع عبقرى غير مسبوق ومن ثم فهو يحتاج إلى قرارات عبقرية وغير مسبوقة أيضاً، فلقد كانت حدود مصر من ناحيتى الشرق والشمال تحتم على قادتها أن تكون أولوياتهم هى بناء أسطول بحرى يضارع الأساطيل العالمية، وبالفعل ودون تردد كانت أولويات الرجل واضحة لا لبس فيها وكان- وكما هى عادته دائماً- يسير بشكل مخطط، وفق محاور ومعايير واضحة بعيداً عن العشوائية والتخبط وقد بدأ الرجل رحلته فى هذا المضمار من خلال المحاور التالية: -

- نشر التعليم البحرى وإرسال البعثات التعليمية إلى الخارج إقامة قاعدة ضخمة من الترسانات المتخصصة فى بناء وإصلاح السفن إنشاء العديد من الصناعات المكملة والضرورية لتشغيل الأسطول المصرى، إنشاء المدارس والمعاهد الفنية لتخريج البحارة والعمالة البحرية المتخصصة.

وقد نجح محمد على فى خطة بناء الأسطول من خلال التزامه بالمحاور

السابقة وقد سبق وأوضحنا كيف أنشأ الرجل المدارس العليا والمتخصصة فى الإسكندرية ورأس التين ونوردها هنا كى تكتمل الصورة فيما يخص بناء الأسطول المصرى.

مدرسة البحرية العليا بالإسكندرية

أنشأ محمد على أول مدرسة عليا للبحرية لتخريج الضباط البحريين لخدمة الأسطول المصرى، وكانت هذه المدرسة مقامة فوق إحدى السفن الحربية على سواحل الإسكندرية، وقد تلقى الطلاب الذين تم إلحاقهم بهذه المدرسة العلوم البحرية المختلفة من علوم الرياضيات والفلك والأرصاد والملاحة والهندسة البحرية والميكانيكا وقد تخرج فى هذه المدرسة العديد من الرجال الذين سطروا أسماءهم بحروف من ذهب فى تاريخ البحرية المصرية، وقد تم إيفاد العديد منهم إلى أوروبا لتعميق وتوثيق ما قاموا بدراسته فى مصر، وعاد هؤلاء إلى مصر ليقوموا بتدريس ما تعلموه فى أوروبا للطلاب المصريين، وتبوأ العديد منهم مناصب مرموقة فى الأسطول المصرى.

مدرسة البحارة برأس التين

لم يكن الأسطول المصرى فى حاجة إلى الضباط فحسب، بل كان فى أمس الحاجة للخدمات البحرية المساعدة، فوجود بحارة مدربين تدريباً جيداً ولديهم حصيلة علمية حديثة على أعمال البحر المختلفة هو الضمانة الأساسية لإنجاح عمل الضباط البحريين، وهؤلاء هم الدعامة الأساسية لتحديث الأسطول المصرى، وقد تم انتقاء نحو عشرين ألفاً من الشباب المصرى من جميع أنحاء الجمهورية ليلتحقوا بهذه المدرسة، وتم تخصيص إحدى المراكب راسية على الشاطئ بسواريها وقلاعها لتعليم هؤلاء الشباب كل فنون العمل البحرى على سفن الأسطول المصرى.

ميلاد الأسطول الحربى (١٨١٠)

كانت الحركة الوهابية وما تبعها من حروب ومعارك خاضها الجيش المصرى فى أرض وعرة وصحراء قاحلة ومقاومين يتسمون بالشراسة، ويحتمون بالعقيدة الدينية، هى التى دفعت محمد على إلى سرعة بناء الأسطول المصرى لكى يقوم بنقل الجنود والسلاح والعتاد من ساحل السويس إلى الجانب الآخر من البحر الأحمر على سواحل الحجاز وشبه جزيرة

العرب، ففى العام ١٨١٠ قام محمد على بإحضار الأخشاب اللازمة لبناء السفن من الأناضول ومن جميع المناطق المصرية، حيث أمر بقطع أشجار التوت والنبق المنتشرة فى جميع الأصقاع المصرية لتضاف إلى تلك الأخشاب الواردة من الأناضول ويتم تجهيزها فى ترسانة بولاق ثم يتم نقلها بالإبل إلى السويس ليتم تركيبها هناك لتدخل الخدمة ويتم تدشينها فى احتفالات مهيبة، لقد خصص محمد على ما يزيد على عشرة آلاف من الإبل لنقل الأخشاب المجهزة والمهمات المختلفة اللازمة لبناء السفن من القاهرة إلى السويس فكان ذلك عملاً شاقاً غير يسير، لقد نجح محمد على فى إنشاء ثمانى عشرة سفينة ضخمة كاملة العدد والعتاد فى وقت قياسى لا يتجاوز عشرة أشهر.. لعمرى إن ذلك لعمل جليل يستحق الشكر والثناء والتقدير، ثمانى عشرة سفينة يتم بناؤها وتدشينها فى عشرة أشهر.. بمعدل سفينة كل أسبوعين !!

فى ظل هذه الظروف الصعبة والحياة القاسية وانعدام الطرق والأمن ووسائل الإتصال وتضاؤل الإمكانيات وضعف الخبرات وطول المسافة !!

أى فكر هذا؟ بل أى إرادة تلك أى عزيمة أى مضاء؟ كانت المنظومة اللوجستية تسير وفق مخططات واضحة ورؤى واضحة وأهداف أكثر وضوحا .. لذلك كان النجاح والتفوق والتفرد هو النتيجة الحتمية.. يقول الجبرتى " واستهل شهر ذى الحجة سنة ١٢٢٤ سنة ١٨١٠ وفيه شرع الباشا فى إنشاء مراكب لبحر القلزم (الأحمر) وطلب الأخشاب الصالحة لذلك وأرسل المعينين لقطع أشجار التوت والنبق من القطر المصرى القبلى والبحرى وغيرهما من الأخشاب المجلوبة من الروم (الأناضول) وجعل بساحل بولاق ترسانة وورشات وجمعوا الصناع والنجارين والنشارين فيهئونها وتحمل أخشاباً على الجمال ويركبها الصناع بالسويس ثم يقلفطونها ويبيضونها ويلقونها فى البحر فعملوا أربع سفن كباراً إحداها يسمى الإبريق وخلاف ذلك داوات لحمل السفار والبضائع ".

ترسانات بناء السفن وإصلاحها

أنشأ محمد على ترسانات ضخمة لبناء وإصلاح السفن التى احتاجها

الجيش المصرى فى حروبه العديدة التى خاضها ولتلبية احتياجات حركة التجارة المصرية النامية.

ترسانة بولاق

كانت ترسانة بولاق هى الأهم فى تاريخ البحرية المصرية فهى فاتحة الخير على الأسطول البحرى المصرى، لقد تم إنشاؤها فى وقت كانت البلاد فيها تحبو نحو مستقبل ضبابى غير مضمون، ولقد كانت ترسانة بولاق هى التى خدمت الحروب المصرية فى بلاد الحجاز يقول الجبرتى فى عام ١٢٢٧ وفيها أن الباشا عمل ترسخانة عظيمة بساحل بولاق، واتخذ عدة مراكب بالإسكندرية لجلب الأخشاب المتنوعة، وكذلك الحطب الرومى من أماكنها على ذمته، ويبيعه على الحطابين بما حدده عليهم من الثمن، ويحمل فى المراكب المختصة به بأجرة محددة أيضاً، واستمر ينشىء المراكب الصغار والكبار التى تسرح فى النيل من قبلى إلى بحرى ومن بحرى إلى قبلى، ولا يبطل الإنشاء والعمل على الدوام، وكل ذلك على ذمته ومرمتها وعمارتها ولوازمها وملاحوها بأجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان فى السابق ولهم قومة ومباشرون بذلك الليل والنهار.. وأرسل الباشا لقطع الأشجار المحتاج إليها فى عمل المراكب مثل التوت والبق من جميع البلاد القبلية والبحرية فانبعث المعينون لذلك فى البلاد فلم يبقوا من ذلك إلا القليل لمصانعة أصحابه بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم ما يتركون فيجتمع بترسخانة الأخشاب لصناعة المراكب مع ما ينضم إليها من الأخشاب الرومية شىء عظيم جدا يتعجب منه الناظر من كثرته، وكلما نقص منه شىء فى العمل اجتمع خلافه أكثر منه.. والعمل والإنشاء مستمر بالترسخانة على الدوام والرؤساء والملاحون يخدمون فيها بالأجرة وعمارة خللها وأحبالها وجميع احتياجاتها على طرف الترسانة ولذلك مباشرون وكتاب وأمناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد، وهذه الترسخانة بساحل بولاق بها الأخشاب الكثيرة والمتنوعة وما يصلح للعمائر والمراكب ويأتى إليها المجلوب من البلاد الرومية والشامية إذا ورد شىء من أعمال

الأخشاب سمحوا للخشابة بشىء يسير منها بالثمن الزائد ورفع الباقى إلى الترسخانة " .

ترسانة الإسكندرية القديمة

بعد نجاح ترسانة بولاق فى إمداد الجيش باحتياجاته فى حوض البحر الأحمر، أيقن محمد على إنشاء أسطول مصرى فى الشمال، حيث حركة التجارة مع أوروبا من ناحية ولحماية استقلال مصر والدفاع عنه من الأطماع الأوربية، لقد بدأ محمد على فى تكوين الأسطول الحربى بعد انتهائه من بناء الجيش المصرى، حيث بدأ فى شراء بعض السفن الحربية من بعض الدول الأوربية كما أصدر تعليماته ببناء بعض السفن والقطع المقاتلة فى بعض الموانى والثغور الاوروبية خاصة موانى فرنسا، وبدأ فى تزويدها بالمدافع التى صنعها المصريون فى القلعة كما عهد بقيادتها إلى مجموعة من خريجى المدارس العليا وطعمهم بمجموعة من الخبرات الأوروبية وفى عام ١٨٢١ أحضر أحد الربابنة الفرنسيين ويدعى المسيو بيسون وكان قائداً لإحدى السفن الحربية الفرنسية وعينه محمد على ملاحظاً على السفن التى أمر ببنائها إلى الدول الأوربية أو تلك التى أمر بشرائها من الدول الأوروبية، لكن هذا الأسطول قضى عليه تماماً فى موقعة «نفارين» البحرية وكان هذا دافعاً قوياً للتفكير فى بناء أسطول جديد .

دار الصناعة الكبرى بالإسكندرية

أنشأ محمد على ترسانة ضخمة لبناء السفن الحربية واستعان بأحد الخبراء الفرنسين المشهور بالكفاءة والصدق والإخلاص والحنكة ويدعى «سريزى» وقد تخصص فى بناء السفن والترسانات، وصل الرجل إلى مصر عام ١٨٢٩، وتولى إعادة بناء الأسطول المصرى الذى تم تدميره من قبل.. يقول الرافعى فى كتابه «عصر محمد على» تحت عنوان كيف أسست الترسانة:

" درس المسيو سريزى مشروع ترسانة كبيرة بدل الترسانة القديمة، وبعد أن تم دراسته وضع تصميمها وقدم الرسوم اللازمة لإنفاذ المشروع إلى محمد على فى ٩ يونيه سنة ١٨٢٩ فأمعن النظر إليها ثم وافق عليها

وشـرع من فـوره يخـرج المشـروع إلى حـيـز العـمل ولم تمض هنيـهـة على إقـراره حتى كـان عـدة آلاف من الجند يحفـرون الأسـاس للمبـانى اللازمة واشـتـرى بعض أمـاكن على شـاطئ الميناء بخط الصيـادين من أصـحـابه، وألحـقـهـا بمشـروع الترسـانة واسـتدعى من سـائر أنـحـاء القطر الشـبـان والعمال الذين يعهد إليهم العمل فى إتمام الترسانة والتوفر على الأعمال البـحـرية فكان منهم النجـارون والحـدادون والقـلافطة والسـبـاكـون والميكانيكيـون، وتألفت هذه الفـرق تدريجـيـاً وأخـذ المسـيـو سـريزى هو والحـاج عـمـر فى تدريب الشـبـان على التـدريب البـحـرى حـتى تخـرج الأنباشية والجاويشية والضباط ممن امتازوا بالهمة والنشاط والذكاء، وصاروا تحت ملاحظة الحاج عمر المذكور وتم بناء الترسانة سنة ١٨٣١ ووجد المسـيـو سـريزى من ذكـاء المصـريين وحسن اسـتـعـدادهم وحذقـهم الصناعـات من قـبل بيـئـة صـالحـة لإتمام بنـاء الترسـانـة وإنشـاء السـفن البحرية فيها، وقد جعله محمد على باشمهندس الترسانة ورقاه إلى رتبة البكوية ثم رقـاه إلى درجـة لواء، وتولى تدريب العـمـال على مـبـاشـرة الأعـمـال كل فى الصناعـة التى أختـيـر لمزاولتـهـا وبذلك صـار العـمل فى إقامة المبانى وتدريب العمال على مختلف الصناعات سيرا مطردا وكان محمد على لايألو جهدا فى تنشيط العمل وتشجيع العمال فكان كثيراً ما يحضر بنفسه إلى دار الصناعات ويستحث الصناع على العمل ويعطيهم المثل فى الجد والمثابرة وكذلك كان يفعل ابنه إبراهيم باشا فكان لعملهما تأثير كبير فى تقدم العمل حتى تم فى يوم ٣ يناير ١٨٣١ إنشاء بارجة حربية ذات مائة مدفع نزلت إلى البحر تتهادى فابتهج محمد على باشا لهذه النتيجة العظيمة ورأى أن مشروعه فى إحياء البحرية المصرية بعد واقـعـة «نفـارين» قـد خطا الخطوة الأولى فى النجـاح واطـرد العـمل ونما حـتى صـار لمصـر فى عـدة من السنين أسطول حـربى عـوضـهـا على مـا فـقدته فى «نفـارين» وزادت قوتـهـا على مـا كـانت عليه وصـارت ترسـانة الإسكندرية من أعظم المنشآت الحربية والبحرية كما كانت معهداً لتعليم الشـبـان المصـريين بناء السـفن وترمـيـمـهـا ومـا يلزمـهـا من آلات فكانوا يوزعـون على أقـسـامـهـا لتـتـخـصص كل جـمـاعـة فى فـرع من فـروع هذه الصناعـة، وأنشئ بالترسـانة خمسـة مـزلقـانات لبناء السـفن عليـهـا واهتم

المسيو سريزى بك والحاج عمر بتعميق البحر من ناحية الترسانة الجديدة حتى جعلاه فى عمق كاف لرسو أكبر السفن الحربية واتسعت أعمال الترسانة وكثر عمالها حتًى بلغ عددهم نحو ٨٠٠٠ عامل من الأهالى حذق منهم ١٦٠٠ صناعة بناء السفن فاستغنت مصر عن ابتياع السفن من الخارج.

أقسام الترسانة وورش الترسانة

تضم الترسانة ورشاً كثيرة، وهى ورشة الحبال، ورشة الحدادين، ورشة القلوع، ورشة السوارى، ورشة البوصلات والنظارات، ورشة صب وسبك الحديد، ورشة البوية لصنع الدهانات، ورشة المخرطة لأعمال البكرات، ورشة الترزية لعمل الأعلام والرايات، ورشة صناعة الفلائك والزوارق، ورشة النجارين، ورشة الطلمبات، ورشة القلافطة، ورشة البورغوجية لثقب الأخشاب والذخائر والمهمات.

حوض إصلاح وصيانة السفن

فى عام ١٨٤٤ كلف محمد على أحد المهندسين الفرنسيين ويدعى موجيل بك بإنشاء وتصميم حوض بثغر الإسكندرية لا يقل كفاءة عن الأحواض المنتشرة فى ثغور أوروبا والدول المتقدمة، اشترك معه من المصريين مهندسان مصريان من خريجى مدارس الهندسة العليا ومن نتاج البعثات العلمية والتعليمية إلى فرنسا، وهما مظهر باشا وبهجت باشا.

وتم إنشاء الحوض الجاف والقزقات، بالإضافة إلى إنشاء رصيف شحن بالميناء، وتم ربطه بخط السكك الحديدية الذى سبق وأنشأه محمد على لنقل الغلال والبضائع من الداخل إلى الميناء.

تطوير وإصلاح الميناء

- بدأ محمد على خطته لتطوير ميناء لإسكندرية بإنشاء علامات إرشادية لإرشاد السفن والربابنة أثناء دخول وخروج السفن إلى البوغاز وقد أنشأ محمد على أرصفة متخصصة لاستقبال البضائع التى يتم تفريغها من السفن القادمة إلى الميناء ولشحن البضائع إلى السفن المغادرة للميناء - وقد مد

محمد على خطوط السكك الحديدية من وإلى الميناء لتسهيل حركة نقل البضائع من وإلى الميناء، وقرر محمد على السماح للمراكب والسفن الأجنبية إلى دخول الميناء الغربى بعدما كان ذلك ممنوعا منذ عهد المماليك وبدأ محمد على تطوير الميناء بأكبر عملية تعميق وتكريك للمجرى الملاحى ليتمكن الميناء من استقبال السفن العملاقة واستقدم لهذا الغرض الكراكات والمعدات من أوروبا ـ أنشأ محمد على العديد من الساحات والملاحق ومكاتب الجمرك لتحصيل الرسوم والضرائب المقررة على البضائع المستوردة وقام بردم مساحات واسعة لتوسيع الميناء لاستيعاب حركة التجارة والملاحة المتنامية.

إنشاء فنار الإسكندرية

ويعتبر فنار الإسكندرية من أعظم الأعمال وأجلها فى عهد محمد على على الإطلاق، أسند محمد على لأحد أبنائه المصريين الذين سبق وتخرجوا فى المدارس العليا للهندسة والبعثات الخارجية بضرورة وسرعة تشييد فنار يكون علامة بارزة يهتدى بها الربابنة القادمون إلى مصر، قام مظهر باشا بتصميم وتنفيذ هذا الفنار الذى تحول إلى أهم معلم من معالم الإسكندرية والذى يقول عنه كلوت بك :" لقد أحرزت هذه البناية الجليلة وجزئياتها إعجاب من شاهدوها من السياح وهو مما يكلل بالفخر المهندس المصرى مظهر أفندى الذى تلقى العلم فى فرنسا ويوجب مدحه والثناء عليه ".

الأسطول المصرى يمخر عباب البحار

اشتد عود الأسطول المصرى الوليد وبدت ملامح قوته وتفوقه ومضارعته أعتى الأساطيل العالمية ويظهر من الإحصاءات الواردة فى كتاب المسيو فيلكس مانجان عن أعداد وعتاد الأسطول المصرى عام ١٨٣٧ ما يلى :ـ

بلغ عدد السفن العاملة فى الأسطول ٢٤ سفيناً وعدد السفن تحت الإنشاء أربع سفن، وبيانها كما يلى:ـ السفينة مصر ـ السفينة عكا ـ السفينة المحلة الكبرى ـ السفينة المنصورة ـ السفينة إسكندرية ـ السفينة أبو قير ـ السفينة رشيد ـ السفينة البحيرة ـ السفينة شير جهاد ـ السفينة كفر الشيخ ـ السفينة واسطة جهاد ـ السفينة دمياط ـ السفينة سمند جهاد ـ السفينة طنطا ـ السفينة جناح بحرى ـ السفينة جهاد بيكر ـ السفينة واشنطن ـ السفينة شاهين دريا ـ السفينة الصاعقة ـ السفينة تمساح ـ

احتفالات دخول السفن الخدمة ونزولها البحر

يقول رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابه القيم، «تخليص الإبريز فى تلخيص باريس» وكان محمد على يديم النظر للسفن عند صناعتها ويصور الغرض منها، وكلما شارفت الإتمام ازداد فرحاً وسروراً، وإذا نزلت سفينة فى البحر لم يتمالك نفسه مع ما كان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار أن يظهر أمارة السرور فلهذا أكملت عنده دونتمة ملوكية طبق مرامه وطقمها بالمدافع والعساكر ونظمها على نسق نظام العساكر البرية، وأنشأ مدرسة بحرية بثغر الإسكندرية ليخرج منها من الضباط ما تحتاج إليه هذه الدونتمة وترجم العلوم البحرية وصار لها كتب كافية كسائر العلوم الأخرى.. يضيف رفاعة الطهطاوى بقوله وإنا لذاكرون هنا ماجاء بالوقائع المصرية فى وصف تلك الحفلات ننقله بنصه " إن الغليون (المركب الحربى) ذا الهيئة السنية، المحلى باسم الإسكندرية تعريف إنشاء آلته البهية وعمل أدواته الحربية ووصف أبعاده الثلاثية قد تقدم ذكره الشائع واندرج فى سلك السطور والوقائع والمراد ذكره الآن قطع حبال تعلقاته من القطر البرى ليطير بأجنحة العنقاء إلى العالم البحرى، وقد وافق هذا غرة شعبان المعظم فى الساعة الرابعة من النهار، حيث تجلت مشاهد الأنوار وكان ذلك بحضرة جميع الأمراء والعظماء وزمرة الصلحاء والعلماء وقناصل الدول المستأمنين وقاطبة الأهليين مع جملة أولادهم الكبار وعيالهم الصغار وكانوا لدى ساحة الترسانة الواسعة الأرجاء منتشرين كنجوم السماء وأن سعادة أفندينا ولى النعم فإنه ركب الفلك بحراً وهلم جراً واستصحب بمعيته أحد رجال الدولة العليا المأمور بتشريف الديار المصرية، أعنى به مصطفى أفندى نظيف حتى إذا وضع لدى موضع الترسانة قدمه الشريف مكان الغليون إذ ذاك قد بادر إلى قطع أكثر العلائق ووداع الخلائق وحضور المهندس الذى لكل منقبة حاوى الخواجة سريزى الفرنساوى فتقدم الموما إليه لدى ساحة مكارم ولى النعم، وأشار إلى أن هذا هو وقت الدعاء من زمرة العلماء فتقدموا إلى جهة الغليون

الرسى كالطود المتين ولدى دعائهم قال الحاضرون آمين فتلا حينئذٍ لسان حال الغليون عم يتساءلون ثم نبذ باقى العلائق وأنشد بمحضر الخلائق

لست أخشى عسف الرياح إذا ما بنت من ساحل ورست بحراً

شهادات للتاريخ

لقد وصلت البحرية المصرية إلى مستوى يضارع أعتى البحريات العالمية، لقد كانت الثورة التى شهدتها البحرية المصرية ذات أبعاد ومحاور متداخلة ومتوازية ومتكاملة فبين الاهتمام بالتعليم البحرى والصناعات البحرية وبناء السفن وتدشينها واختيار العناصر البشرية اللائقة لركوب البحر وبين حروب محمد على المتتالية يكمن السر فى النجاح الذى أبهر العالم بأسره، لقد انبهر الخبراء والمراقبون من التجربة المصرية الرائدة، وكان إعجاب الجميع بالإنسان المصرى وإمكانياته هو النقطة الأكثر إثارة وإدهاشا، إذ كان الجميع ينظر إلى المصريين على أنهم مجموعة من الفلاحين عديمى الهمة والخبرة، كان الجميع يظن أن هؤلاء ليس لهم علاقة بالعلوم والفنون ولا بالحروب والجيوش، لكن واقع الحال كان شيئا يفوق الخيال..

يقول المارشال مارمون فى كتابه «رحلة المارشال مارمون» قال بعد أن زار ترسانة الإسكندرية: زرت الترسانة والأسطول وكنت شديد اللهفة لزيارة هذه المنشآت المدهشة التى لم يكن يتصور العقل تأسيسها، ففى سنة ١٨٢٨ لم يكن بالإسكندرية إلا ساحل مقفر ولكن هذا الساحل أصبح فى سنة ١٨٣٤ مغطى بترسانة كاملة بنيت على مساحة واسعة وأحواض للسفن ومخازن ومعامل ومصانع لكل نوع، ومما استوقف نظرى ورشة الحبال التى يبلغ طولها ١٠٤٠ قدماً؛ أى فى طول ورشة الحبال فى طولون، وقد شاهدت فى الترسانة عمالا يعملون فى مختلف معاملها، ولهم مهارة فى كل ما يعهد إليهم من الأعمال البحرية، وهم جميعاً من المصريين، ويسود بينهم النظام والعمل والنشاط، وهذه الترسانة التى لم يمض على إنشائها أكثر من ست سنوات قد صنع فيها عشر بوارج سلاح، كل منها مائة مدفع، وقد تم تسليح سبع منها تمخر العباب الآن، أما الثلاث الأخرى فلا تزال بالحوض على وشك نزولها إلى الماء، هذا عدا السفن التى من نوع الفرقاطة والكورفيت والإبريق، مما

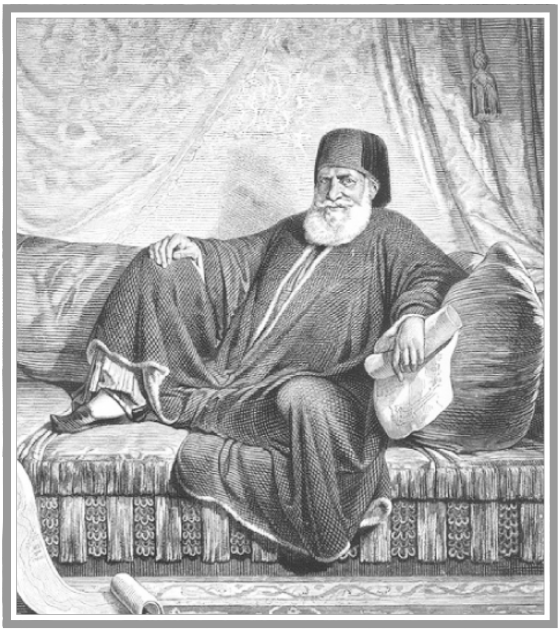
جعل عدد الأسطول يزيد على ثلاثين سفينة حربية، وقد تمت هذه المنشآت ووصلت البحرية المصرية إلى هذه النتائج المدهشة فى ذلك الزمن القصير فى بلاد ليس فيها أخشاب ولا حديد ولا نحاس، ولم يكن فيها عمال ولا بحارة ولا ضباط مجربون، أى أنها كانت مفتقرة إلى كل العناصر اللازمة لإنشاء أسطول، وهذه همة لا نظير لها فى التاريخ والفضل فى هذا العمل الجليل راجع إلى كفاءة المسيو سريزى وإلى عزيمة محمد على الحديدية التى تغلبت على كل الصعاب، وقد كان العمل يتولاه الرجال الفنيون، ولكن محمد على كان يقضى أياما بأكملها وسط العمال فكان حضوره يبعث فى نفوسهم روح النشاط والهمة ويذلل العقبات التى تعترض العمل ويحمل كل واحد من العمال على بذل كل ما فى طاقته من الجهود، ويضيف مارمون: إن المصرى له حظ عظيم من المقدرة على التقليد تبلغ درجة النبوغ، وهو متصف بالاستقامة والنشاط والغيرة مع المرونة والطاعة، وبهذه الصفات يمكن الوصول إلى تحقيق كل ما يريده الإنسان وبفضل هذه المزايا صار العمال الذين خرجوا من صفوف الفلاحين إخصائيين فى الفروع والفنون التى توفروا عليها كل فيما خصص له، ولم يقتصر الأمر على تدريبهم على أعمال الخشابين والنجارين والحدادين بل تخصص منهم كثيرون لأعمال بلغت غاية الدقة فنجحوا فى صنع آلات البحرية كالبوصلات والنظارات، وقد شاهدت بنفسى المعامل التى تصنع فيها هذه الآلات والعمال الذين يصنعونها ورأيت الإتقان فى صنعها، والعمال الفنيون الذين يصنعونها لم يمض عليهم سنتان فى التمرن على تلك الأعمال، ومن الحق أن يقال إنه لا ينتظر الوصول إلى هذه النتيجة بمثل هذه السرعة من عمال أوروبيين يأخذون من صفوف الفلاحين مهما كانت الأمة التى يختارون منها نزلت إلى الميناء لزيارة البوارج المصرية الراسية بها، وكان عددها سبعا عادت حديثاً من جولة فوق ظهر البحار على سواحل آسيا (سوريا والأناضول) قضت فيها ستة أشهر وكل بارجة منها مسلحة بمائة مدفع ومدافعها كلها من عيار واحد وقذائفها من حجم واحد ولا شك أن وحدة العيار لها فائدة كبرى عندما تشتبك البوارج فى القتال ومن المدهش أن هذه الميزة السهلة فى ذاتها لم تلتفت لها الدول البحرية الكبرى وأن ابتكارها يجئ على يد دولة حديثة تبدأ عهدها بالحضارة ".

يقول كلوت بك فى كتابه «لمحة عامة إلى مصر»:

مما لا ريب فيه إن إيجاد ترسانة وإنشاء أسطول على ذلك الوجه من السرعة لما يقض بالعجب ويدل على قوة العبقرية فقد كان شاطئ البحر بالإسكندرية كالصحراء الخالية من كل أثر لكائن فلم تمضى سنوات أربع حتى عمرت بترسانة كاملة الأدوات، مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات فمن قواعد منحدرة لإنشاء السفن عليها وتزليجها إلى البحر وورش ومخازن ومصنع للحبال تمتد بنايته طول ١٠٤٠ قدماً أى كطول مصنع الحبال فى ثغر طولون وأنشئت خلال تلك المدة دوننممة مؤلفة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعتاد والرجال، وجربت للمرة الأولى من إنشائها فى مطاردة أحد الأساطيل العثمانية، وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحرية المصرية أساطين علم البحر وثقاته سواء بدقة حركات السفن وضبطها أو بدربة البحارة وحسن قيامهم على الأعمال المنوطة بهم، وقد أصبح المصريون وهم شعب مفطور على الامتثال ومحامد الخصال كأنهم خلقوا لممارسة البحر.. وترسانة الإسكندرية التى يصنع فيها كل شىء بأيدى المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا وذلك دليل ناطق على مبلغ ما يمكن الاستفادة به من العمال المصريين ويقينى أن عامة الشعب فى أوروبا لا يستطيعون أن يؤدوا من جلائل الأعمال ما يؤديه العمال المصريون فى مثل الوقت القصير الذى يقومون بها فيه.



الفصل الحادى عشر



الحروب المصرية
بين صهيل الخيول ودوى المدافع



حرب السنوات السبع

الحروب المصرية فى الحجاز والجزيرة العربية

الحرب الوهابية ١٨١١ - ١٨١٩

١ ـ معركة ينبع.

٢ ـ معركة بدر.

٣ ـ معركة الصفراء الأولى.

٤ ـ معركة الصفراء الثانية.

٥ ـ دخول المدينة المنورة.

٦ ـ احتلال جدة.

٧ ـ دخول مكة.

٨ ـ احتلال الطائف.

٩ ـ معركة الحناكية.

١٠ ـ معركة تربة

١١ ـ وصول محمد على لقيادة المعارك ١٨١٣.

١٢ ـ احتلال " قنفدة "وحصار " تربة ".

١٣ ـ معركة " بسل " ١٨١٥م.

١٤ ـ احتلال " تربة " و" رنية " و"بيشة " .

١٥ ـ احتلال " الرس "و "الشبيبية " .

١٦ ـ معركة " الصويدرة " .

١٧ـ الاستيلاء على " الحناكية " .

١٨ ـ معركة " الرس " والحصار المميت.

١٩ ـ احتلال " الخبر.

٢٠ ـ معركة " عنيزة " .

٢١ ـ دخول "الرس " .

٢٢ ـ احتلال " بريدة ٢٣ ـ معركة " الشقراء " .

٢٤ ـ معركة " ضرمة " .

٢٥ ـ الدرعية ومعارك فاصلة.

الحروب المصرية فى الحجاز والجزيرة العربية

١٨١١/ ١٨١٩

حرب السنوات السبع

من هم الوهابيون؟ ماهو مضمون دعوتهم.. إلى أين وصل نفوذهم الدينى.. وكيف اختلطت الدعوة الدينية بالطموحات السياسية .. لماذا انزعج العثمانيون، وشعروا بالخطر بعد تعطل الحج.. كيف تحملت مصر تبعات فشل العثمانيين فى مواجهة الحركة.. وكيف سارت المعارك الحربية بين المصريين والوهابيين.. وكيف كانت حالة الجيش المصرى تحت قيادة طوسون باشا.. ولماذا ذهب محمد على لقيادة القوات المصرية بنفسه.. ولماذا استمر بقاء محمد على عامين كاملين بالجزيرة العربية؟

لماذا تم تكليف إبراهيم بقيادة القوات المصرية بدلا من طوسون.. وما هى تفاصيل لحظات الانتصار ولحظات الانكسار للجيش.. وما هى تفاصيل مبادرات السلام ورد الفعل المصرى.. وكيف سقطت الدرعية عاصمة الوهابيين وما هى آثار ذلك.. وكيف استقبل إبراهيم باشا خصمه عبدالله بن سعود؟

ولد محمد بن عبدالوهاب عام ١٧٠٣ م فى بلدة العيينة بنجد وحفظ القرآن الكريم، وتتلمذ على يد علماء أجلاء ودرس الفقة الحنبلى ورحل إلى البصرة لتلقى علوم الحديث، واللغة حتى صار من النوابغ المحدثين، وسرعان ما عاد إلى نجد من جديد، وبدأ فى نشر تعاليم الدين الصحيحة، وبدأ مخططاً لتنقية الدين من الشوائب التى علقت به من البدع والخرافات والمحدثات، كانت أفكاره شابة وثابة صحيحة فى مجملها نقية فى مضمونها، دعا إلى التوحيد وترك البدع التى ابتدعها الناس ونبذ كل ما لم يرد بالقرآن والسنة من الأحكام والتعاليم الدينية، كان الرجل يريد أن يعود بالدين إلى سيرته الأولى وبساطته ونقاوته، كان للإمامين ابن تيمية وأحمد بن حنبل دور كبير فى تشكيل كل ما يدور فى عقل الرجل من أفكار، لقد حرم الرجل لبس الحرير وشرب الدخان وإقامة قباب على القبور والمزارات وحرم التبرك

بالأولياء تحريما قاطعا، لقد لاقت هذه الدعوة نجاحا ورواجا هائلا فى بلاد نجد والمناطق المحيطة بها بطريقة مثيرة وملفتة، أخذت الدعوة تنتشر وتنتشر ويزداد أنصارها ومؤيدوها كل هذه البدع والخرافات لها ما يفندها ويبطلها من القرآن والسنة لقد كانت دعوة الرجل صحيحة لكن مسلكه لنشر هذه الدعوة كان خاطئاً مما أثار حفيظة الكثيرين ضده ودعوته.

كان محمد بن عبد الوهاب يعتبر كل شخص يخالفه كافراً ومشركاً بالله، لقد انتشرت عبارة " مشرك بالله " انتشاراً كبيراً فى هذا العصر، كان ينقص هذه الدعوة كثير من الحكمة، وكثير من التحلى بالسلوك الدعوى لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى خاطبه رب العزة قائلاً: " ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " وقال أيضاً " ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن.. " لقد أسرف أنصار الوهابييين فى التنكيل بكل من يخالفونهم الرأى، وكانوا يستخدمون أيديهم فى إزالة كل منكر قبل استخدام عقولهم وألبابهم ومن هذه النقطة جاءت المشكلة.

جاءته امرأة زانية فأقام عليها الحد ورجمها حتى الموت، وصلت أنباء تلك الواقعة إلى حاكم العيينة الذى سارع بتهديد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالقتل والتنكيل إذا لم يترك هذه الدعوة والطريقة، وعلى إثر ذلك تلقى الرجل دعوة من أنصار فى الدرعية أن ينزل فى حماهم، وهم الذين يؤمنون بدعوته ويدافعون عنها بكل قوة، فرحل إلى الدرعية وقابل محمد بن عبدالوهاب محمد بن سعود أمير الدرعية فى عام ١٧٤٤، وتعاهدا على أن يناصر كل منهما الآخر، ابن عبدالوهاب هدفه نشر الدعوة وحمايتها وابن سعود هدفه الإمارة وزعامة العرب، وبذلك اتخذ الرجل الدرعية مقراً لدعوته، ووافق ابن سعود على نشر تلك الدعوة بحد السيف، واستطاع نشر الدعوة فى كل بلاد نجد إلى أن توفى الأمير ابن سعود عام ١٧٦٥، وخلفه ابنه الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود، وكان عبدالعزيز من أشد أنصار الدعوة الوهابية، فانتشرت فى عهده وتخطت حدود نجد إلى أطراف الحجاز والعراق حتى توفى الشيخ بن عبد الوهاب عام ١٧٩٢، واستمر عبد العزيز فى نشر الدعوة ودحر كل من يقف فى وجهها، وحاول الشريف غالب بن مساعد شريف مكة القضاء على تلك الحركة فجرد جيشا إلى الدرعية لكن

عبد العزيز استطاع هزيمته ففر عائدا إلى الحجاز، وزحف عبد العزيز بقواته إلى البصرة واستولى على كربلاء وقاموا بهدم مسجد الحسين بن على وأمعنوا القتل فى أهل كربلاء، وهم من غلاة المتشيعين، وفى عام ١٨٠٣ تنكر أحد الشيعة وقتل الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود وهو قائم يصلى فى المحراب، وخلف عبد العزيز ابنه سعود الذى سار على نهج أبيه وجده فى مناصرة الدعوة بحد السيف، واستمر انتشار الدعوة وذيوعها وفشلت كل الحملات التى جردتها الدولة العثمانية للقضاء عليها، وكان آخرها الحملة التى قام بها الوالى العثمانى على العراق الذى لقى هزيمة قاسية ورجع إلى حيث أتى، واستمر سعود بن عبد العزيز بن محمد فى فتوحاته حتى وصل بنفوذه إلى مسقط وسواحل الخليج العربى، واتجه إلى الطائف فقام باحتلالها عام ١٨٠٢، ثم دخل إلى مكة، وهزم شريفها غالب وقام بطرده، ففر بقواته إلى جدة ثم اتجه سعود بقواته ودخل المدينة، وقام بهدم القباب والقبور وامتدت دعوتهم إلى اليمن وعسير وبلاد الشام حتى فلسطين، وأرسل سعود برسالة إلى السلطان العثمانى سليم الثالث يخبره فيها بنبأ فتح مكة وبهدم القبور ويطالبه بعدم معاودة إرسال المحمل من مصر أو الشام، لأن ذلك ليس من الدين فى شىء، وقام سعود بطرد الأتراك الموجودين فى مكة والمدينة ودانت له السيطرة على معظم بلاد الجزيرة العربية، وأجزاء ليست بالقليلة من بلاد الشام وفلسطين وخرج عبدالله باشا العظم الوالى العثمانى على سوريا على رأس المحمل فمنعه الوهابيون، وقتلوا جنوده وتعطلت شعائر الحج، حيث منع الوهابيون الذين سيطروا على مكة والمدينة كل من يخالفهم من أداء فريضة الحج وبات السلطان العثمانى فى مأزق أمام رعاياه من دولة الخلافة فما كان أمامه إلا الاستنجاد بالجيش المصرى بقيادة محمد على باشا. ففى أواخر عام ١٨٠٧ وبعد رحيل القوات الإنجليزية عن الأراضى المصرية بعد هزيمتها المدوية، وكان محمد على وقتئذٍ لم يمر على حكمه سوى عامين فجاءه فرمان من السلطان العثمانى به ثلاث نقاط:

– تجديد ولاية محمد على على حكم مصر، وتعيين ابنه إبراهيم باشا فى منصب " الدفتر دار، وتكليف محمد على بتجريد حملة عسكرية للقضاء على الحركة الوهابية التى تنتشر بنجد والحجاز لكن محمد على رد على السلطان

العثمانى بأن الأحوال الداخلية فى مصر لا تسمح له بتجريد قوة لمحاربة الوهابيين، حيث كانت الأحوال الداخلية فى مصر صعبة ودقيقة، ولا تسمح بأن تدخل الدولة فى حروب داخلية ولا خارجية، فالمؤامرات التى كان يحيكها المماليك ضد الرجل وحكمه وضعت البلاد فى وضع حرج وكررت الدولة العثمانية طلبها إلى محمد على فى عامى ١٨٠٨ و١٨٠٩، وكانت الأحوال فى مصر لا تزال على صفيح ساخن، ولم يستقر محمد على فى حكمه يوماً واحداً دون مؤامرات لذلك كان يطلب من السلطان العثمانى تأجيل المواجهة المصرية - الوهابية عاماً بعد عام، وفى سبتمبر من عام ١٨١٠، وحين عاد محمد على من الصعيد قاصدا القاهرة بعد مطاردته فلول المماليك، وجد فى انتظاره رسولا من عند السلطان العثمانى يحمل أمراً سلطانياً لمحمد على بضرورة تجييش الجيوش والتوجه دون تأجيل للقضاء على الحركة الوهابية التى استفحل أمرها، وباتت خطراً يهدد الخلافة العثمانية بيد أن الحروب المصرية فى الجزيرة العربية لم تكن اختيارا مصريا أصيلا بل فرض على المصريين فرضا أن يدخلوها دونما هدف سوى إرضاء دولة الخلافة وعدم الرغبة فى نشوب صدام وخلاف مع السلطان العثمانى فالحقيقة التاريخية الناصعة والتى لا تقبل المراء أو الجدال أن مصر لم يكن لها ناقة ولا جمل فى هذه الحرب ولكن وقفزا فوق الأسباب والدوافع فقد وقعت الحرب، واستمرت قرابة السنوات التسع فما هى إذن تفاصيل تلك المعارك والحروب التى خاضها الجيش المصرى فى صحراء الجزيرة العربية؟!

استعدادات الحرب

استمرت الاستعدادات والتجهيزات المصرية قرابة ستة أشهر تقريباً، وكان محمد على يشرف بنفسه على تلك التجهيزات، ويراجع كل كبيرة وصغيرة، ولا يترك شيئا للمصادفة وخلال فترة التجهيزات قام محمد على باختيار منطقة القبة بشرق القاهرة لتكون معسكر الإعداد والتجهيز، واختار ابنه الأصغر " طوسون " لقيادة الحملة، كما اختار السيد محمد المحروقى كبير التجار لإدارة مهمات الحملة، وقام ببناء ثمانى عشرة سفينة لنقل الجنود والمعدات من السويس إلى ينبع خلال شهور، وخصص ما يقرب من ثمانية عشر ألفا من الإبل لنقل الأخشاب والمهمات من ترسانة بولاق إلى السويس،

وجرد جيشا قوامه ثمانية آلاف من المقاتلين منهم ستة آلاف من المشاة وألفان من الفرسان، وخصص العديد من الصناع من كل الحرف ليصحبوا الحملة ، واختار أربعة من العلماء يمثلون المذاهب الأربعة للغرض نفسه أيضاً، حيث إن الحرب بسبب رؤى وأفكار شرعية ومذاهب فقهية بين أهل التشدد وأهل الابتداع.. والعلماء الأربعة هم: الشيخ الطحطاوى ممثلا للمذهب الحنفى، الشيخ محمد المهدى ممثلاً للمذهب الشافعى، الشيخ الخانكى ممثلا للمذهب المالكى، الشيخ المقدسى ممثلا للمذهب الحنبلى.

خطة تحرك القوات المصرية

قرر محمد على أن تبحر السفن حاملة الجنود المشاة والعتاد وجميع المهمات من ميناء السويس على الجانب المصرى فى غرب البحر الأحمر إلى ميناء ينبع على الجانب الحجازى بالقرب من المدينة المنورة وكان ذلك فى يوم ٣٠ سبتمبر عام ١٨١١، أما قائد الحملة ابنه الأمير طوسون فقد تحرك فى اليوم السادس من شهر أكتوبر، وانطلق من السويس بمحازاة البحر الأحمر، حتى بلغ خليج العقبة ومن هناك إلى ينبع ليلتقى ببقية جيشه لتبدأ رحلة الحروب الضارية والمعارك العنيفة فى أرض قاحلة ومع مقاتلين أشداء يدافعون عن أرضهم ودينهم بشراسة قبل أن تصهل الخيول وتنطلق المدافع.

أخيراً وصلت القوات المصرية المحمولة على سفن مصرية وقد ظلت تمخر عباب البحر طيلة الرحلة الشاقة من السويس إلى ينبع، وصلت متزامنة مع وصول أولئك الفرسان الذين قهروا الصحراء ووصلو بطريق البر، ووقف القائد العام للحملة طوسون باشا بن محمد على باشا ونظم صفوفه وأصدر تعليماته الحربية إلى قادة الجند، كان طوسون يعلم أن الوهابيين وأتباعهم يتسمون بالشراسة والمهارة والشدة فى كل حروبهم، وكان يعلم أيضاً أن هناك قبائل وعشائر قد تضررت كثيرا من تلك الدعوة، فهناك من تأثر بإيقاف مناسك الحج والتضييق على الحجاج، وهناك من تضرر من نتائج التعاليم الوهابية، وهناك الشريف غالب شريف مكة المعزول والذى ما زال يبحث عن ملك بائد وشرف مفقود،

أخذ طوسون يستميل كل هؤلاء بالمال والهدايا والوعود والعهود حتى خلق له ولجيشه عمقاً استراتيجياً وجسراً لوجيستياً على أعلى مستوى.

وجاءت معركة ينبع خاطفة، حقق المصريون فيها نصراً على القوات الوهابية المرابطة فى ينبع وفر قائدهم وتم أسر العديد من المقاتلين أتباع الحركة الوهابية.

ثم جاءت معركة بدر؛ إذ تحرك الجيش المصرى صوب المدينة المنورة حتى وصل إلى منطقة بدر، وكان يرابط بها قوة ضخمة من الوهابيين تنتظر مقدم الجيش المصرى لملاقاته والفتك به، ووصلت القوات المصرية فاشتبكت مع الوهابيين ودارت معركة شرسة استمرت قرابة الساعتين انتصر فيها الجيش المصرى وارتدت القوات الوهابية إلى منطقة الصفراء.

معركة الصفراء الأولى

تحركت القوات المصرية لملاحقة الوهابيين المتحصنين فى منطقة الصفراء وتوغل الجيش المصرى إلى الداخل حتى وصل إلى ممر ضيق شديد الوعورة، كان المقاتلون الوهابيون قد تحصنوا بنقاط أعلى الطريق وما إن وصل المصريون إلى هذا الممر الضيق حتى انهال عليهم الوهابيون من أعلى وكبدوهم خسائر فادحة، وألحقوا بهم هزيمة قاسية وتراجع المصريون صوب ينبع من جديد وقد خسروا الآلاف من الجنود والعديد من العتاد والسلاح، وكانت هزيمة قاسية لحقت بالجيش المصرى لكن وكما تروى كتب التاريخ فقد تسلح طوسون بالشجاعة ورباطة الجأش وتذكر نصيحة والده " بأن النصر أو الهزيمة كليهما شىء وارد؛ لكن علينا أن نتحلى بالشجاعة فى كل الأحوال ".

وصلت تلك الأنباء المفزعة إلى محمد على فلم تثن عزيمته ولم تنل منها قدر أنملة بل سارع محمد على بإرسال المدد من الجنود والسلاح والعتاد والأموال إلى ابنه طوسون حتى يستطيع القيام بالمهام العظيمة المكلف بها فى هذه الأثناء وفى انتظار وصول المدد كان طوسون يعسكر فى ينبع متحصناً بها، وقام خلال هذه الفترة بإبرام العديد من الاتفاقات

مع القبائل بالمال والرشوة والهدايا واستطاع أن يحسن الصورة قبل وصول المدد الذى أرسله والده من القاهرة.

معركة الصفراء الثانية

بعد وصول المدد تحرك الجيش المصرى من جديد قاصداً الصفراء تلك المنطقة الوعرة التى شهدت تلك الهزيمة المنكرة التى تعرض لها الجيش المصرى، ووصلت القوات المصرية مؤيدة بقبائل " حرب " و" جهينة " والعديد من القبائل العربية التى أبرم معها طوسون باشا اتفاقات، وحصل منها على تعهدات، وفى معركة خاطفة استولى المصريون على الصفراء وحققوا فيها نصراً مظفراً من جديد.

دخول المدينة المنورة

تحرك الجيش المصرى بسرعة صوب المدينة المنورة ووصلها خلال ثلاثة أيام ذاقوا فيها الأمرين، وضرب الجيش المصرى حصاراً حول أسوار المدينة، ولم يشأ طوسون باشا أن يريق الدماء فى مدينة رسول الله فأمر الأهالى بضرورة التزام بيوتهم، وقام بتفجير أحد الأسوار ودخل الجيش المصرى المدينة وفر أنصار الحركة الوهابية وأخذ طوسون مفاتيح المدينة، حيث أرسلها إلى ابيه محمد على بالقاهرة الذى أرسلها بدوره فى صحبة ابنه إسماعيل إلى السلطان العثمانى الذى أقام الاحتفالات الضخمة ابتهاجاً باستلام مفاتيح المدينة المنورة.

احتلال جدة

بعد أن رتب طوسون أحوال المدينة المنورة بعد دخولها، تحرك صوب ينبع، واتجه بجيشه صوب جدة واستطاع دخولها والاستيلاء عليها دون مقاومة، وكان الشريف غالب فى استقبال طوسون، حيث كان من أشد أنصار الجيش المصرى آنذاك.

دخول مكة

واصل الجيش المصرى زحفه قاصدا مكة المكرمة التى دخلها فاتحا دون

إراقة دماء، وكان ذلك بمعاونة القبائل العربية والشريف غالب أمير مكة الذى عزله الوهابييون من قبل

احتلال الطائف

فى التاسع والعشرين من شهر يناير عام ١٨١٣ تحرك الجيش المصرى نحو الطائف، حيث دخلها دون مقاومة تذكر وبذلك دانت أهم مناطق الجزيرة العربية للحكم المصرى بقيادة طوسون باشا بن محمد على باشا.

معركة الحناكية

كان زعيم الوهابيين الأمير سعود بن عبد العزيز يراقب الموقف ويعد العدة لملاقاة الجيش المصرى فى معركة فاصلة، فقسم قواته إلى جزءين، الأول بقيادته شخصيا والآخر بقيادة ابنه فيصل بن سعود، ودخل سعود فى قوة من عشرين ألفا من المقاتلين إلى الحناكية التى كانت ترابط فيها قوة مصرية بقيادة عثمان كاشف أحد قادة طوسون باشا، حيث اشتبكت القوات المصرية والوهابية فى معركة شرسة تفوق فيها الوهابيون، واحتلوا الحناكية وواصلوا سيرهم نحو المدينة وتراجع موقف الجيش المصرى بشكل سريع.

معركة تربة

كان فيصل بن سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود مرابطا فى منطقة تربة، وقد حفر الخنادق حولها وحصنها تحصينا منيعا، فلما علم طوسون باشا بخبر هذه الحملة أرسل مصطفى بك أحد قواده لضرب الحصار عليها والقضاء على من فيها من قوات، لكن ما إن بدأت المعركة حتى انقلبت الصورة، وتقهقر الجيش المصرى حتى وقعت به هزيمة نكراء، وانسحبت فلوله إلى الطائف من جديد بعد هاتين الهزيمتين تحصن طوسون بالمدينة ومكة وينبع وجدة والطائف وأرسل لأبيه يطلب المدد من جديد فقد بلغت خسائره منذ بدء المعارك نحو ٨٠٠٠ مقاتل و٢٥٠٠٠رأس ماشية ونحو ١٧٥٠٠٠ جنيه.

محمد على يقود المعارك ويؤدى الحج للمرة الأولى

كانت الأنباء التى وصلت إلى مسامع محمد على عن الهزيمتين القاسيتين

للجيش المصرى فى الحناكية وتربة، وكذلك تلك الخسائر الرهيبة فى القوات والسلاح والعتاد سببا مباشرا فى أن يتخذ الرجل قراره السريع بالتوجه فوراً إلى الحجاز لقيادة العمليات العسكرية عن قرب، ولسرعة القضاء على جذور الحركة الوهابية العنيدة تحرك محمد على من السويس قاصدا جدة التى وصلها فى شهر أغسطس من عام ١٨١٣، ومنها أكمل رحلته إلى مكة، حيث أدى مناسك الحج واتخذ قراره الأول بالقبض على الشريف غالب وترحيله إلى مصر لأنه اكتشف أنه صاحب مصلحة فى إطالة أمد الحرب، وأنه شخص يلعب على كل الحبال فكان قراره السريع بالقبض عليه وترحيله قراراً سديداً وصائباً وحكيماً.

احتلال " قنفدة "وحصار" تربة "

بعد وصول محمد على إلى ساحة المعارك راجع الموقف العسكرى كاملا، ووضع يده على مكامن قوته ضعفه التى هى فى الوقت نفسه مكامن قوة خصمه اللدود، وقد رأى محمد على من قراءته لسير المعارك أن الأمير سعود بن عبد العزيز لم يدخل المعركة بكامل قوته بعد، إنه مازال يراقب الموقف عن كثب ويدرس أداء الجيش المصرى ليصل إلى الطريقة المثلى لمواجهة الجيش المصرى ، وأن أهل عسير يؤيدون الوهابيين ويناصرونهم بقوة ، ومن ثم فإن قواعد الارتكاز للجيش المصرى فى مكة والمدينة والطائف تحتاج إلى غطاء ومدد جديد؛ لذلك قرر محمد على سرعة مهاجمة الوهابيين فى مواقعهم الحصينة فى " تربة " " وبيشة " "ورنية " فكلف ابنه طوسون باشا بالتحرك، حيث ترتكز قواته فى الطائف صوب هذه الحصون الوهابية خاصة فى تربة، ووصل طوسون بقواته وضرب حصاراً شديداً على تربة؛ لكن - وكما ذكرت كتب التاريخ - لم يفلح الحصار ولم يؤت ثماره فقرر طوسون رفع الحصار بعد أن ساءت حالة الجيش المعنوية واضطر للعودة إلى الطائف بعد أن أمر قواته بحرق خيامهم وعدم تركها للأعداء، وقرر محمد على تسيير جيشه إلى ميناء قنفدة لاحتلاله والسيطرة على خطوط الاتصال بين عسير والوهابيين ولاتخاذها مركزا للانطلاق إلى داخل البلاد وبالفعل نجحت تلك الحملة وقام الجيش

المصرى باحتلال ميناء قنفدة الاستراتيجى، وأمر محمد على باستبقاء حامية من الجنود المصريين لحماية الميناء واستمرار السيطرة عليه، لكن قائد الحامية ارتكب خطأ استراتيجياً عندما لم يسيطر على مصادر المياه بالميناء فهاجمه الوهابيون والعربان واضطر إلى ترك الميناء والانسحاب، حيث أتى.

بعد هذه الأحداث المتلاحقة والتى وضعت الجيش المصرى فى مأزق سارع محمد على بإصدار أوامره إلى القاهرة لإرسال المدد من جديد، وبذل محمد بك لاظوغلى كتخدا مصر مجهودات خارقة لسرعة تنفيذ أوامر الباشا وقام بإرسال سبعة آلاف من الجنود وسبعة آلاف كيس.. فى هذه الأثناء كان محمد على ينتظر المدد على أحر من الجمر ووصلته الأخبار بوصول المدد إلى ميناء جدة فى نفس الوقت الذى وصلته الأخبار عن وفاة خصمه اللدود الأمير الشجاع سعود بن عبد العزيز فى مقر حكمه بالدرعية فى ١٣ إبريل ١٨١٤.

معركة بسل (١٨١٥م)

هذه المعركة يعدها المؤرخون من أهم المعارك التى خاضها الجيش المصرى فى تاريخة إن لم تكن أهمها على الإطلاق، فبعد أن توفى سعود ووصل المدد إلى محمد على تحرك محمد على وولده إلى جدة فى منتصف عام ١٨١٤ وأقام مركزا لتدريب الجنود على المهارات القتالية وبدأ فى اتخاذ إجراءات جديدة لمواجهة هذا العدو الشرس، ثم قام محمد على بأداء فريضة الحج للعام الثانى على التوالى وبعد انتهاء مناسك الحج أخذت الحرب منحى جديدا تماما.. كان الوهابيون قد تجمعوا وعسكروا بقيادة فيصل بن سعود فى المنطقة بين " تربة " "وبسل" فى جيش يزيد عدده على ثلاثين ألفاً من الجنود المقاتلين، تحرك محمد على بجيش مكون من خمسة آلاف جندى من خيرة الأجناد المصريين صوب المنطقة المحصورة بين " الطائف " و" تربة " والمعروفة باسم " بسلة "، فى يناير من عام ١٨١٥ والتقى الجيش المصرى والجيش الوهابى فى معركة طاحنة فاصلة، استمرت من الفجر حتى المساء، وقتل فى هذه

المعركة أكثر من ستمائة وهابى، وفر الآلاف منهم وتحقق النصر المبين للجيش المصرى فى واحدة من أهم المعارك العسكرية فى صحراء شبه الجزيرة العربية.

احتلال " تربة " و" رنية " و"بيشة "

كانت تربة من أحصن حصون الوهابيين فهى المنطقة الوعرة التى دُحر فيها الجيش المصرى مرتين تحت قيادة طوسون باشا، الآن وبعد انتصارات الجيش المصرى فى «بسل» تحركت قوات محمد على وسيطرت على كل مواقع الجيش الوهابى فى تربة وبيشة ورنية ودانت السيطرة الكاملة للجيش المصرى على تلك المناطق الوعرة

احتلال " الرس "و "الشبيبية "

على بعد ٢٧٠ ميلا من شرق شمال المدينة وصل طوسون باشا بقواته مدعوما بانتصارات عظيمة للجيش المصرى، قاصدا احتلال الشبيبية الواقعة فى طريق الدرعية (عاصمة الحركة الوهابية) ومركزها المنيع، وتمكن الجيش المصرى من احتلالها، وواصل زحفه قاصدا «الرس» فاحتلها هى الأخرى وهى التى تعد من أهم مناطق نجد الموالية للوهابيين وظل الجيش المصرى مرابطا فى تلك المنطقة لدراسة الموقف من جميع جوانبه واتخاذ القرار المناسب على ضوء وضعية المنافس العنيد الذى حشد هو الآخر قواته عن آخرها، وأصبح كل من الطرفين يتحين الفرصة للانقضاض على الآخر فى تلك المعركة التى حتما ستكون فاصلة، بدأ طوسون باشا يستشير قواده ومؤيديه من شيوخ القبائل عن الوضع الحقيقى، واقترح الجميع على طوسون ضرورة الانسحاب فى انتظار تغيرالموقف، لكن فى هذه الأثناء حدثت المفاجأة التى لم تكن متوقعة على الإطلاق.

مبادرة سلام " وهابية " ورفض " مصرى "

فوجئ طوسون باشا برسالة من الأمير عبد الله بن سعود بن عبد العزيز قائد الوهابيين يعرض فيها الصلح مع المصريين والطاعة لأميرهم؛ كانت الرسالة مفاجأة لطوسون وقادته، فأخذ يفكر ويدرس الموقف من جميع

جوانبه، لكنه أيقن أن صلحاً كهذا لا يمكن أن يبدى فيه رأياً دون مشورة والده محمد على باشا؛ لذلك كان رد طوسون على عبدالله ابن سعود بأنه لا يمكنه أن يقطع أمراً دون مشورة قائده ووالده محمد على، وأنه يمنح الأمير الوهابى هدنة عشرين يوما لحين ورود رد محمد على باشا، وقبل زعيم الوهابيين وبقى كل جيش مرابطاً فى مكانه وتوقفت العمليات الحربية احتراما لبنود الهدنة من محمد على الكبير إلى ابنه الأمير طوسون..

بعد طول انتظار وصل رد محمد على إلى ابنه طوسون المرابط بقواته فى منطقة الرس يخبر ولده بخبرين ويأمره بأمرين، أما الخبران فأولهما أنه اضطر إلى العودة إلى مصر لظروف قهرية، وثانيهما أنه ترك له جيشا ضخما بقيادة خازنداره، أما الأمران فهما المسارعة بالهجوم على الدرعية عاصمة الوهابيين، وسرعة القضاء عليهم وملاحقتهم فى كل مكان.

وقد وصل هذا الرد إلى طوسون فأبدى قلقه على والده ورجح أن تكون هناك قلاقل وفتن ومؤامرات قد حدثت بالقاهرة، وإلا ماذا يجبر الباشا إلى العودة سرا وترك ابنه يواجه جحافل الوهابيين فى أرض غريبة وظروف قاسية.. قفز طوسون بسرعة فوق التفاصيل واستدعى خازنداره واجتمع بقادة جيشه وزعماء القبائل الموالين للجيش المصرى، وأطلعهم على المستجدات من سفر والده إلى مصر وأوامره بسرعة الهجوم على الدرعية، شاورهم طوسون فى الأمر ودرس الموقف من كل جوانبه وقبل أن ينتهى أجل الهدنة استقر رأيه على قبول الصلح يالشروط الآتية: ـ

– دخول الجيوش المصرية الدرعية.

– أن يرد الأمير عبدالله بن سعود ما سلبه الوهابيون من الحجرة النبوية من النفائس والجواهر.

– أن يبقى عبدالله بن سعود محدد الإقامة فى المكان الذى يحدده المصريون.

– أن يأتمر عبدالله بن سعود بأوامر المصريين فى الذهاب إلى أى مكان.

– أن يؤمن طرق الحج ولا يعترض أتباعه الحجيج.

– أن يكون عبدالله بن سعود خاضعا لحاكم المدينة.

– لا يسرى هذا الاتفاق إلا بعد التصديق عليه من محمد على الموجود بالقاهرة.

الوهابيون يحملون مبادرة الصلح إلى القاهرة

أرسل عبدالله بن سعود وفداً وهابياً إلى القاهرة لعرض بنود الصلح على محمد على باشا، كى يراجعه ويبدى رأيه فيما تم الاتفاق عليه، ووصل الوفد الوهابى إلى القاهرة فى سبتمبر ١٨١٥، لكن محمد على مزق شروط الصلح التى صاغها ابنه طوسون ووضع شروطاً أكثر قسوة كما يلى: ـ

- يعامل أمير الوهابيين معاملة الخوارج والعصاة.
- تسليم الدرعية إلى حاكم المدينة دون قيد أو شرط.
- رد جميع النفائس والمنهوبات إلى الحرم النبوى الشريف.
- يحضر عبدالله بن سعود بنفسه إلى القاهرة ليتم إرساله إلى الأستانة ليكون تحت أمر السلطان العثمانى.

كانت هذه الشروط من القسوة والجبروت، بحيث لا يمكن أن يقبلها كائن من كان، لقد كان محمد على يضع شروطاً يعلم مسبقاً أن غريمه لن يقبلها تحت أى ظرف، لكنه أراد أن يضع حداً نهائياً وحلاً جذرياً لهذه الحركة الدينية التى تحولت إلى حركة سياسية تبحث عن زعامة العرب فى شبه الجزيرة العربية، وعلى الطرف الآخر أدرك عبدالله بن سعود حقيقة نوايا محمد على التى لا يمكن أن تقبل الصلح وعلم أنه لا بديل عن المواجهة، وليكن ما يكون، بدأ الجيش الوهابى يكثف من استعداداته للمواجهة الحاسمة مع الجيش المصرى، بينما حدث على الجبهة المصرية شئ أدهش الجميع وترك العديد من علامات الاستفهام تدور فى عقول الجميع حتى هذه اللحظة!!

إبراهيم باشا يتولى القيادة

كلف محمد على ابنه الأكبر إبراهيم بالاستعداد للتوجه إلى شبه الجزيرة العربية لقيادة القوات المصرية فى شبه الجزيرة العربية بعد عودة طوسون باشا الابن الثانى لمحمد على إلى مصر، وبدأ إبراهيم فى تجهيز جيشه وتنظيم أموره من القاهرة، فأمر بجمع المراكب فى ساحل بولاق لنقل الأسلحة والذخائر والمدافع والمهمات إلى قنا ومنها براً إلى ميناء القصير، ثم تبحر منه إلى ميناء ينبع وفى الخامس من سبتمبر عام ١٨١٦ أبحر قاصداً قنا وحين وصل إلى أسيوط جند

ألفين من الفلاحين لينضموا للحملة، ونقلت الحملة على ظهور الإبل من قنا إلى القصير وتحرك الأسطول المصرى يمخر عباب البحر الأحمر حاملاً القوات المصرية بقيادة البطل المغوار إبراهيم باشا فوصل فى يوم ٢٩ سبتمبر عام ١٨١٦ إلى ميناء ينبع، لم يمكث إبراهيم باشا فى ينبع، بل توجه إلى المدينة المنورة وقام بزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبدأ يرتب أوراقه لكى ينهى هذه المعارك الضارية التى استمرت سنوات وسنوات تكلف فيها الجيش المصرى الكثير والكثير

معركة " الصويدرة "

تحرك الجيش المصرى فى رابع أيام العيد الأضحى ناحية الصويدرة، وارتكز الجيش المصرى فيها وبدأ يعد العدة للزحف الكبير تجاه الدرعية، لكن اكتشف إبراهيم باشا أن القبائل والعشائر المحيطة بالمدينة قد انقلبت فى تأييدها للجيش المصرى إلى الجانب الآخر وهم الوهابيون، فأرسل إبراهيم بك بقوة قوامها ألفا جندى وعلى مسيرة يومين، استطاعت القوة المصرية القضاء على تلك القوى وردها إلى صوابها من جديد بعد أن علمت القبائل أن إبراهيم بن محمد على هو الذى يقود الجيوش بدلاً من أخيه الأصغر طوسون أيقن الجميع أن المصريين منتصرون لا محالة، فبدأت القبائل والعشائر تؤيد المصريين صراحة مخافة الفتك بهم، وتعهدوا لإبراهيم بك بمساندته ومساعدته بكل ما يطلب من إبل وعتاد ورجال.

الاستيلاء على " الحناكية "

زحف إبراهيم باشا بجيشه قاصداً الحناكية؛ ليؤمنها ويتخذها مركزاً للانطلاق نحو الرس التى استردها الوهابيون بعد رحيل طوسون باشا إلى مصر، ثم إلى الدرعية استعداداً للمعركة الفاصلة مع الوهابيين، دخل إبراهيم باشا إلى الحناكية دونما مقاومة تذكر.

معركة " الرس " والحصار المميت

اتجه إبراهيم بجيشه تجاه الرس، وحاصرها حصاراً شديداً، وتفوق الجيش المصرى المسلح تسليحاً حديثاً، ودانت له الغلبة، وعاونته القبائل العربية، خاصة قبيلة حرب لما بينها وبين الوهابيين من خلافات دامية، لكن عبدالله

بن سعود تحصن بالرس، وهو يعلم أنها المعركة الفاصلة فبث الحمية والحماسة فى رجاله، وأبلوا بلاءً حسناً فى الدفاع عن وطنهم ودينهم، واستمر الحصار مائة وعشرين يوما لم ينل المصريون من عزيمة الوهابيين الأشداء، وأثناء الحصار مات من المصريين نحو ٢٤٠٠ مقاتل، وفى المقابل لم يخسر الوهابيون سوى مائة وستين مقاتلاً فقط.

فك الحصار وتغيير التكتيك الإبراهيمى

كانت حرارة الطقس الخانقة وانتشار الأمراض والمجاعات فى صفوف المصريين هى السبب الرئيسى لهذه الخسائر، وأمام هذا الوقع المرير أيقن المقاتل الشرس إبراهيم باشا أن الحصار ليس فى صالح الجيش المصرى فلجأ إلى إبرام اتفاق لفك الحصار عن الرس وتضمنت بنوده النقاط التالية:

- أن يرفع الجيش المصرى حصاره عن المدينة " الرس " .
- أن يضع أهل الرس سلاحهم ويلتزموا بالحياد.
- ألا يدخل المصريون الرس بعد هذا الاتفاق.
- لا يجبر المصريون أهالى الرس على تقديم المؤن والمساعدات.
- لا يلتزم أهالى الرس بسداد أية إتاوات للجيش المصرى
- إذا استولى الجيش المصرى على مدينة "عنيزة " تسلم له الرس بدون قتال.

احتلال " الخبر "

بعد إبرام اتفاقية فك الحصار تحرك إبراهيم باشا بجيشه صوب " عنيزة "، وفى طريقه نحوها تمركز فى منطقة الخبر، وضربها بالمدافع عدة ساعات قبل أن تسلم بعد مناوشات خاطفة، ومكث بها عشرة أيام استراح فيه الجند، واستعدوا لمعركة عنيزة الفاصلة.

معركة "عنيزة"

تحرك الجيش المصرى إلى عنيزة التى وصلها، وضرب عليها حصاراً عنيفاً استمر ستة أيام كاملة؛ مما اضطر حاكمها إلى التسليم مقابل وعد من

إبراهيم بعدم أسر الحامية الوهابية المرابطة فى عنيزة على أن تنزع سلاحها قبل أن يطلق سراحها ووافق إبراهيم باشا على هذا الاتفاق ودخل المدينة من أبوابها.

دخول "الرس"

بعد سقوط عنيزة، ووفقاً للاتفاق المبرم بين إبراهيم باشا، وعبدالله بن سعود، أرسل القائد المصرى إبراهيم باشا فرقة من مقاتليه فاستولوا على " الرس " دون مقاومة ووفقاً للاتفاق المبرم من قبل

احتلال " بريدة "

بعد سقوط الرس وعنيزة، تحصن ابن سعود بالدرعية والشقراء، وبدأ يستعد لملاقاة الجيش المصرى فى معركة فاصلة بدأ إبراهيم باشا يزحف فى اتجاه هدفه النهائى، وهو الدرعية وفى طريقة نحوها علم بتمركز بعض الوهابيين فى منطقة بريدة؛ فحاصرها وبعد مناوشات طفيفة دخلها وتمركز بها شهرين حتى وصله المدد من مصر، ثم بدأ يتحرك بقواته تجاه منطقة الشقراء الحصينة.

معركة " الشقراء "

فى الثالث عشر من يناير عام ١٨١٨ وصلت القوات المصرية إلى منطقة الشقراء وقام إبراهيم باشا بضرب حصار مشدد حول المدينة مع ضربها بالمدافع دون هوادة فأحس أهلها بأنهم لا قبل لهم بإبراهيم وجنوده فطلبوا التسليم وقبل إبراهيم بعد أن أملى شروطه.

- تحريم حمل السلاح لأبناء المدينة - من يحمله تستحل دماؤه ودخل الجيش المصرى مدينة الشقراء فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يناير من العام ١٨١٨ م استقر الجيش المصرى فى الشقراء لفترة أسسس فيها بعض المنشآت الخدمية مثل المستشفى وخلافه، وترك بها حامية مصرية وبدأ يتحرك صوب محطته الأخيرة وهى الدرعية.

معركة " ضرمة "

على بعد ٤٠٠ ميل من المدينة المنورة كانت الدرعية التى انطلق إليها إبراهيم باشا وفى طريقه قصد " ضرمة التى علم إبراهيم ما بها من مؤن

وجياد.. لكنها استعصت عليه وقاومت مقاومة شرسة.

فضربها إبراهيم بالمدافع حتى سلم حاكمها، وفر خارج المدينة، ودخلها المصريون وقتلوا أهلها عقاباً لهم على ما اقترفوه ضد المصريين. ومكث إبراهيم وجيشه فى "ضرمة " لمدة شهرين، حيث عاقه عن التحرك سوء الأحوال الجوية وغزارة الأمطار، غادر إبراهيم وجيشه مدينة " ضرمة " فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٨١٨ م .

الدرعية ومعارك فاصلة

تتكون الدرعية من خمسة أحياء متلاصقة محاط كل منها بسور منيع، ومزودة بمدافع وصل إبراهيم وجنده الدرعية فى اليوم السادس عشر من أبريل عام ١٨١٨ م، وبدأ فى تنظيم جيشه ورسم الخطط الملائمة للانقضاض على تلك المدينة المحصنة قرر إبراهيم باشا أن يضرب حصارا شديدا على الدرعية، ثم أمر بضرب المدينة بالمدافع دون هوادة ودون توقف، لكن مقاومة شديدة من الوهابيين كانت، مما أخر الحسم واستمر الحصار لمدة شهرين متتابعين دون أن يستطيع طرف التخلص من الطرف الأخطر ولكن الرياح أتت بما لا تشتهى سفن إبراهيم باشا فماذا حدث إذن ؟

انفجار مستودع الذخيرة للقوات المصرية

فى يوم ٢١ يونيه ١٨١٨ تسببت جذوة مشتعلة كان أحد الجنود المصريين قد أشعلها فى أن تمتد النيران إلى إحدى الخيم المنصوبة على مقربة من مستودع الذخيرة للقوات المصرية مما أدى إلى انفجار المستودع عن آخره ودوت الانفجارات تدوى فى سماء الدرعية مما ذهب بالعقول والألباب فى تفسير الأسباب، تسبب هذا الانفجار الضخم فى خسارة الجيش المصرى لما يزيد عن نصف ذخيرته، وكان هذا الحادث كفيلاً بهزيمة الجيش وإصابة معنوياته فى مقتل، لكن شجاعة وبسالة القائد العظيم كانت خير عوض عن تلك الذخيرة الفانية، لقد اشتهر عن إبراهيم الشجاعة والإقدام وعدم الخوف من النوازل مهما كانت؛ إنه تربى تربية عسكرية وسياسية على يد ذلك الماكر الداهية صاحب العيون الزرقاء محمد على باشا، فماذا فعل إذن ذلك الفتى إبراهيم ؟؟ إذا كانت الذخيرة قد نفدت لكن ذخيرة الإيمان والشجاعة والعزم لم تنفد بعد

لقد وقف إبراهيم وسط قادته وجنوده وقال قولته الشهيرة:

" لقد فقدنا كل شىء، ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا فلنعتصم بها ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض " .

لقد كانت كلمات كالطلقات فى وقت عصيب، لكن وكما عودنا التاريخ فإن الشدائد تصنع الرجال، بدأ إبراهيم يتعامل مع الموقف بشجاعة وواقعية فطلب جمع الذخيرة من باقى المواقع والحاميات المصرية فى مكة والمدينة وجدة وعنيزة والشقراء وينبع وبريدة والخبر وغيرها من أجل تلك المعركة الفاصلة بعدما أيقن الزعيم الوهابى عبدالله بن سعود بأمر انفجار مستودع الذخيرة تأكد أن السماء تناصره، وبدأ يبث روحاً جديدة فى مقاتليه بأن الله ناصرهم وها هى عدالة السماء تنزل لتدمر سلاح وذخيرة المصريين المعتدين قرر ابن سعود مهاجمة المصريين فى اليوم التالى لهذا الانفجار، حيث إن حالتهم المعنوية منخفضة وذخيرتهم قاربت على النفاد فالوقت ملائم تماما من كل الوجوه، وشن الوهابيون هجمات شرسة على المصريين لكن إبراهيم باشا كان لتلك الهجمات بالمرصاد، إذ أنه كان ينتظرها، استمرت الحرب سجالاً بين الفريقين إلى أن وصلت الذخيرة المطلوبة ووصل كتاب محمد على لابنه إبراهيم بأنه ممده بثلاثة آلاف من المقاتلين، ارتفعت الروح المعنوية للجيش المصرى وقرر إبراهيم أن يضرب ضربته القاضية حتى قبل أن يأتيه المدد، لقد استمر الحصار المضروب على الدرعية ما يزيد على خمسة أشهر كاملة، بيد أن الوقت بات مناسباء.

بدأ إبراهيم يوجه قواته إلى كل حى من أحياء الدرعية منفصلاً حتى توالى سقوط تلك الأحياء الواحد تلو الآخر، هنا شعر ابن سعود بأن الهزيمة ستلحق به وبجنوده لا محالة، فآثر السلامة وأرسل إلى إبراهيم باشا فى التاسع من سبتمبر ١٨١٨ يطلب التسليم والسلام وإيقاف القتال وإبرام اتفاق جديد عبدالله بن سعود فى حضرة إبراهيم باشا.

وافق إبراهيم باشا على وقف القتال..

ذهب عبدالله بن سعود بنفسه إلى مركز قيادة القوات المصرية كى يلتقى القائد المنتصر إبراهيم باشا بن محمد على قائد القوات المصرية فى الحرب الوهابية، ودخل عبدالله بن سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود على

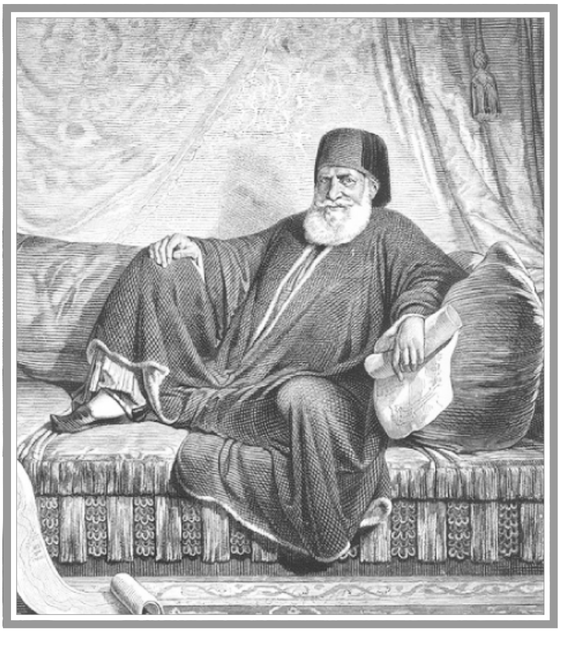
القائد المصرى الأبى إبراهيم بن محمد على.. كان اللقاء مؤثرا وعظيما بين قائدين اتسم كلاهما بالشجاعة والإقدام، لقد أكبر كل منهما الآخر وكان استقبال إبراهيم لضيفه بالغ الحفاوة والإكرام، إن الشوامخ من الرجال يأبى أن يرى خصمه وعدوه الشجاع فى لحظات انكسار وضعف، لقد كان إبراهيم أحد هؤلاء الشوامخ وكان عبدالله بن سعود أحد هؤلاء الشجعان ثم صيغ الاتفاق بين الرجلين على أساس : -

- تسلم الدرعية للقائد المنتصر إبراهيم باشا .
- يتعهد إبراهيم باشا بالإبقاء عليها كمدينة لها تاريخ.
- ألا يقوم القائد المنتصر بإبادة الوهابيين أو المساس بهم.
- أن يذهب عبدالله بن سعود إلى مصر ويسلم نفسه لمحمد على.

ذهب عبدالله بن سعود إلى القاهرة فاستقبله محمد على بحفاوة شديدة وأكرم نزله ثم أرسله إلى الأستانة نزولا على أوامر الباب العالى، حيث قتله العثمانيون هناك واستمر إبراهيم باشا فى الجزيرة العربية يثبت الحكم المصرى وينظم شؤونه واضطر إلى تنفيذ أوامر أبيه بهدم حصون الدرعية المنيعة والقبض على إخوة عبدالله بن سعود وإرسالهم إلى القاهرة لقد استمرت الحرب الوهابية زهاء السبع سنوات تكلفت الغالى والنفيس وكانت حربا ضروسا يحيطها الخطر من كل مكان، لكن أمام قوة الإرادة لانت إرادة القوة، لقد كانت انتصارات المصريين فى شبه الجزيرة العربية والتى توجت بسقوط الدرعية بمثابة إعلان عن ميلاد جيش مصرى قادر وقاهر.



الفصل الثانى عشر



الحروب المصرية فى السودان وأفريقيا



فتح السودان ١٨٢٠- ١٨٢٢

- فتح دنقلة ١٨٢٠.
- معركة الشايقية وكورتى ٤ نوفمبر ١٨٢٠.
- معركة بارة وفتح كردفان ١٦ أبريل ١٨٢١.
- فتح سنار ١٢ يونيه ١٨٢١.
- موقعة بربر ـ احتلال شندى ـ احتلال حلفاية ـ احتلال أم درمان ـ احتلال سنار ـ موقعة " بارة "
- "احتلال كردفان " ـ فتح فازوغلى ـ الحملة الاستكشافية الأولى ١٦ نوفمبر ١٨٣٩.
- الحملة الاستكشافية الثانية ٢٣ نوفمبر ١٨٤٠.
- الحملة الاستكشافية الثالثة ٢٧ سبتمبر ١٨٤١ .

عين على الجنوب وعين على الشرق

" لا يتحقق استقلال مصر التام إلا إذا سيطرنا على نهر النيل من منبعه إلى مصبه ".. كانت هذه هى رؤية محمد على باشا للأمن القومى المصرى، عين على الجنوب وعين على الشرق، لقد أيقن أن استقلال مصر مرهون بسيطرتها الكاملة وغير المنقوصة على نهر النيل من مصبه إلى منابعه، أما المصب فهو بين ظهرانينا، وأما المنابع فتحتاج إلى عزيمة ورجال، كان نهر النيل هو الشغل الشاغل لمحمد على كان يهتم به وبشئونه أيما اهتمام، كان

يبذل الغالى والنفيس من أجله، يدلله ويحنو عليه كما يدلل العاشق معشوقته ويحنو عليها، كانت قناعات الرجل أن الحضارات المصرية القديمة ما كان لها أن تقوم لولا هذا النهر الخالد الذى قال عنه هيردوت " مصر هبة النيل " وقال المعاصرون " مصر هى نهر النيل ونهر النيل هو مصر " وعندما فكر محمد على فى فتح السودان وضمها إلى الإمبراطورية المصرية كان يؤمن بما تقدم من رؤى وأفكار.

أهداف الحملة

كانت الحملة المصرية إلى السودان تختلف عن الحملة على الجزيرة العربية والحجاز، فالأخيرة فرضت على مصر لأسباب سياسية وأخلاقية، أما حرب السودان فقد دخلتها مصر باختيارها وتفعيلاً لخططها التنموية ولرؤاها الاستراتيجية، وتمشياً مع نظريات الأمن لقومى التى صاغها محمد على باشا منذ أكثر من مائة وثمانين عاماً مضت، هذا من الناحية الاستراتيجية والأمنية.

لكن يبقى العديد من الأهداف الأخرى وراء تجريد حملة ضخمة إلى السودان يمكن إجمالها على النحو التالى: ـ

أهداف استراتيجية

تتلخص الأهداف الاستراتيجية التى سعى محمد على إلى تحقيقها فى اكتشاف منابع النيل، ووضع الآليات المناسبة لحمايته ـ تطوير العمق الاستراتيجى لمصر من ناحية الجنوب والسيطرة على موانى السودان على البحر الأحمر للقضاء على القراصنة الذين يهددون حركة التجارة بين الشرق والغرب وهوما تعانى منه حركة التجارة الدولية اليوم، إذ تغول نفوذ قراصنة الصومال واستولوا على الكثير من السفن المارة قبالة السواحل الصومالية فى مياه البحر الأحمر، ولم تستطع الجهود الدولية معالجة هذه الظاهرة حتى مثول هذا الكتاب للطبع.

أهداف سياسية

ـ تفويت الفرصة على العدو اللدود لمصر وهم الإنجليز واستغلال حالة

الرضا العثمانى عن محمد على بعد سقوط الدرعية عاصمة الوهابيين.

أهداف عسكرية وأمنية

ـ ملاحقة فلول المماليك فى إقليم دنقلة ـ تكوين جيش من السودانيين ينضم للجيش المصرى

أهداف اقتصادية وتجارية

ـ كشف مناجم الذهب والألماس فى سنار ـ خلق فرص تجارية مع الأقاليم السودانية ـ إقامة مشروعات الرى العملاقة على النهر ـ تأمين حركة التجارة بين الجنوب والشمال.

مشروع السودان

أسرفت كتب التاريخ فى التعرض لأسباب الحملة على السودان وقد اعتمدنا فيما عرضناه على رؤيتنا لفكر محمد على ولبعد نظره من ناحية ولبعض ما ورد على ألسنة بعض المؤرخين من ناحية أخرى، وقد ورد بالنسخة العربية لكتاب " قسمة " للكاتبة نيفين يسرى حول مبررات الحملة على السودان، أن «محمد على جمع الديوان وشرح لهم المشكلة فى اختصار : يقول محمد على " الحالة الاقتصادية يرثى لها، وأما الجيش فقد فقدنا نصفه، وعلينا أن نجد سريعا مخرجا لهذا المأزق، هل لأحد منكم اقتراح أيها السادة ؟

ولكن يا أفندينا الحملة كانت نصراً كبيراً .

وقاطعه الباشا بحدة: وما دخل هذا بذاك؟ أعلم جيداً أنها كانت نصراً عظيماً، حيث إنها جلبت لاسم محمد على الشهرة والمجد، إلا أنها لم تكن مربحة، بل إنها قصمت ظهرنا، ماذا كسبنا من تلك الحملة ؟ بالتأكيد لن نجد فى شبه الجزيرة العربية أموالاً نملأ بها خزانة الدولة ولا رجالاً لنبنى بهم جيشا جديدا، وهما أهم شئوننا حاليا كفى مجاملات من فضلكم.. لننظر إلى الأمور بموضوعية حتى لا نضيع الوقت هباء، وقال الدفتردار وهو زوج ابنة محمد على أفندينا: لماذا لا

نفـرض ضـريبـة طوارئ؟ لأننا نفـرض ضـرائب على الشـعب بما فـيـه الكفاية، زيادة الأعباء على الشعب سيترتب عليها تمرد وهذا آخر ما نريده فى هذا الوقت الحرج، فرد أحد أعضاء الديوان وهو المسئول عن الشئون الخارجية: لماذا يا أفندينا لا ترفع التماساً إلى الباب العالى؟ فالسلطان هو الذى طلب من الباشا القيام بتلك الحملة على الحجاز، ومن العدل أن يتحمل الباب العالى مصاريفها، وابتسم الباشا بسخرية وقال: يا عزيزى رأيك سديد، ولكنك تجهل أو ربما نسيت أن سلطان السلاطين يأمر ولا يطلب، وأنه لا يهمه عواقب أوامره، ثم إن المعظم لا يعطى، بل يأخذ وكأن ضريبة الـ ٣٠٠ ألف جنيه التى علينا أن نسددها له كل سنة لا تكفى.. ثم إنه يدخلنا فى حرب تطحن اقتصاد مصر.. وعظمته يجنى كل ثمار النصر!

محمد على يعتقد أن من الواضح أنه لا أمل فى أية مساعدة من قبل اسطنبول، وأحاط السكون بالديوان، كل منهم يبحث فى ذهنه عن حل يشير به على الباشا وفجأة قال محمد على بصوت المنتصر : إذا أردتم أن تعرفوا أيها السادة ـ فمحمد على قد وجد الحل!

وظهرت تلك اللمعة الماكرة فى عينيه دلالة على أنه قد سعد بدهشة الجميع.. لا تبتئسوا ياأصدقائى..

وأرجوكم لا تظنوا أن محمد على قد دعاكم ليرد اقتراحاتكم الواحد بعد الآخر.. كل مافى الأمر أن محمد على كان يريد أن يعرف.. لو كان لأحدكم اقتراح أفضل من اقتراحه قبل أن يعرضه عليكم. وانفرجت الوجوه المتأزمة ونظروا إلى الوالى بفضول.. فقال: السودان.. السودان لكن هذه الرواية التى أوردتها الكاتبة التى تنتسب بشكل ما لأسرة محمد على ـ وبصرف النظر عن شكلها ـ فيبقى المضمون متسقا مع ماذكرناه من قبل، فحزمة الأهداف التى أوردناها من النواحى الاستراتيجية والسياسية والعسكرية والاقتصادية هى رؤية تقترب شيئا ما من العرض الأكاديمى، بينما يبقى عرض نيفين يسرى أقرب إلى العرض التصويرى أو التصورى

لكن المضمونين يلتقيان عند المصالح العليا للبلاد.

شهادات للتاريخ

قال سدنى بيل أحد نبلاء الإنجليز فى كتابه «ضبط النيل والسودان الحديث» كانت العوامل التى حملت محمد على أن يفتح السودان كثيرة، ولكنه من المعتقدين فى فوائد الرى ومنافعه، فيرجح كثيرا أن الاطمئنان على سلامة النيل الأعلى أحد أغراضه.

ويقول الرافعى فى كتابه " عصر محمد على " " اعتزم محمد على إذن تجريد الحملة السودان عقب انتهائه من حرب الوهابيين، وهذا يدلك على قوة إرادته ومضاء عزيمته ودأبه على توسيع ملك مصر، فإنه لم يكد ينتهى من تلك الحرب الشاقة، ويبسط نفوذ مصر على جزيرة العرب حتى بادر إلى خوض غمار حرب أخرى، أعظم غاية وأعظم منفعة وأعود بالخير والرفاهية على مصر والسودان وعلى الحضارة والإنسانية، كانت حرب السودان على كثرة ضحاياها أقل مشقة وأقصر مدة من حرب الوهابيين، فقد كان الجيش المصرى يواجه فى جزيرة العرب قوما مدربين على القتال، اشتهروا بشدة البأس، وعاشوا للكر والفر وهم فوق ذلك معتزون بانتصاراتهم على الحملات العثمانية من قبل، أما الجيش الذى تحرك لفتح السودان، فلم يلق أمامه سوى قوات مشتتة عزلاء لا سلاح معها إلا الرماح وما إليها من الأسلحة البائدة، وهى تجهل أساليب القتال وفنونه، ولم يلق الجيش المصرى مقاومة تذكر إلا فى بلاد الشايقية، ومن قبائل يسكنون جنوبى دنقلة، وفى كردفان التى كانت تابعة لسلطنة دار فور وفى مملكة سنار والعقبة الكئود التى طردت الجيش المصرى فى فتح السودان هى الحميات والأمراض الوبيئة التى حصدت طوائف الجنود فكانت أشد خطراً على الجيش من القتال وخوض المعارك.

لقد كانت الحملات لمصرية على السودان فى مجملها من اختيار محمد على فلم تفرض عليه مثلما فرضت عليه الحروب الوهابية الشرسة، لذلك كانت حرب السودان لها من النتائج العظيمة ما بقيت حتى هذا العصر، بيد أن ما يدور من مناقشات ومناوشات بين دول حوض النيل بعد مرور ما يقرب

من ١٨٠ سنة على حملة «محمد على» على السودان لخير دليل على بعد نظره وصواب توجهاته الاستراتيجية.

استعدادات الحملة العسكرية على السودان

بدأ محمد على استعداداته لإنفاذ حملته على السودان بزيارة استكشافية قام بها بنفسه، يصحبه فيها حسن باشا قائد الجنود الأرناؤوط، ومحمد لاظوغلى كتخدا بك، إلى أن وصل إلى ما وراء شلال أسوان وبلاد النوبة، كان محمد على يهدف إلى ارتياد المكان حتى يرسم خطته العسكرية ويسير جيشه إلى تلك الأدغال البعيدة، عاد محمد على إلى القاهرة فى ١٥ نوفمبر عام ١٨١٩ وبدأ تجهيزاته واستعداداته كما يلى:-

- تجهيز جيش مصرى قوامه ٥٤٠٠ جندى بقيادة ابنه إسماعيل.
- تجهيز جيش مصرى آخر قوامه ٤٠٠٠ جندى بقيادة صهره محمد بك الدفتر دار لفتح كردفان.
- تزويد القوات بالمدافع والأسلحة والذخائر اللازمة.
- يصحب الحملة ثلاثة من العلماء هم (الشيخ محمد الأسيوطى الحنفى/ السيد أحمد البقلى الشافعى/ والشيخ السلاوى).
- يصحب الحملة أحد الخبراء الفرنسيين بغرض الإكتشافات والبحث عن الذهب والألماس والعاج.
- تخصيص ثلاثة آلاف مركب لنقل الجنود والمهمات والذخائر عبر نهر النيل..
- تخصيص ثلاثة آلاف من الإبل من إسنا للسير منها برا وسار فى خدمة الحملة ألفان من الأتباع الانطلاق جنوباً

تحركت الحملة بطريقين وعلى مرحلتين، حيث تحركت قوات المشاة بالمراكب عبر نهر النيل وقوات الفرسان براً بمحاذاة البر الغربى، وتحرك إسماعيل باشا بعد الحملة بيومين فى ٢٠ يوليه ١٨٢٠ ووصلوا إلى أسوان وتحركوا قاصدين دنقلة.

معركة دنقلة

تقدمت القوات المصرية صوب دنقلة، ولم يكن بها سوى مجموعة من

المقاتلين المماليك الفارين من حكم محمد على، ولم يجد الجيش المصرى أية مقاومة تذكر ودانت دنقلة لإسماعيل وصحبه.

معركة كورنى " ٤ نوفمبر ١٨٢٠ "

بعد أن دانت دنقلة تحرك الجيش المصرى واستولى فى طريقه على عدة بلدان دون مقاومة تذكر، حتى وصل إلى بلاد الشايقية " جنوبى دنقلة، وفوجئ إسماعيل باشا بقوات تتجمع بالقرب من مدينة كورتى على الشاطئ الغربى من النيل، وكانت قوات إسماعيل لا تزيد على ٨٠٠ فارس فقط، حيث إن بقية القوات كانت قد تأخرت فى اجتياز الشلالات، هاجم الشايقية رجال الجيش المصرى وقتلوا منهم ٧٥ فارساً، لكن إسماعيل واجه الموقف بشجاعة وبسالة وخاض حرباً استمرت ثلاث ساعات قضى فيها على ما يزيد على ٨٠٠ مقاتل سودانى، وقد أبلى المقاتلون السودانيون بلاءً حسنا، وأظهروا شجاعة وبسالة نادرة دفعت إسماعيل إلى الاتفاق معهم على الانتظام فى الجيش المصرى حيث أبرم معهم صلحا بعد أن دخل مدينة كورتى عاصمة الشايقية واحرقها ومكث بها حتى وصل بقية جيشه.

موقعة بربر

استأنف إسماعيل باشا وفرسانه زحفهم بعد سقوط كورتى صوب «بربر» التى وصلها بعد رحلة شاقة استمرت قرابة أسبوعين ووصلت قوات المشاة فى الوقت نفسه، وحاصرت القوات المصرية «بربر» حتى سلم ملكها نصر الدين مؤثراً السلامة واختار أن يخضع للحكم والإدرة المصرية على أن يستمر فى حكمه ووافق إسماعيل باشا على هذا الاتفاق .

احتلال شندى

استمر إسماعيل فى سيره وزحفه وسط الأدغال والأصقاع السودانية حتى وصل بلدة «شندى» بعد أيام قليلة من دخول بربر، لكن ملك شندى «نمر» تعلم من دروس سابقيه وقرر التسليم دون شرط أو قيد على أن يستمر فى حكمه تحت السيادة المصرى ووافق إسماعيل باشا أيضاً على ذلك.

احتلال حلفاية

واصل إسماعيل باشا زحفه للاستيلاء على المدن والبلدات السودانية حتى وصل إلى منطقة حلفاية التى دخلها بسهولة ويسر، ودونما مقاومة تذكر من أهلها.

احتلال أم درمان

بعد سقوط شندى وبربر وحلفاية كان من السهل أن يسلم أهالى أم درمان تلك المدينة الواقعة فى موقع استراتيجى على النيل الأبيض.

تأسيس مدينة الخرطوم

على مسافة تبعد ١٨٠٠ كيلومتر من أسوان توقف إسماعيل باشا وجنوده فى منطقة رآها استراتيجية بين النيل الأزرق والنيل الأبيض، ولم يكن بها سوى مجموعة بيوت من البوص تعد على الأصابع، قرر إسماعيل ترك حامية عسكرية فى هذه المنطقة الاستراتجية تمهيداً لإنشاء مدينة فكانت الخرطوم.

احتلال سنار

امتدت مملكة سنار الاستراتيجية من بربر شمالاً حتى فازوغلى جنوباً، ووصلها إسماعيل باشا ودخلها دون عناء فى الثانى عشر من يونيه سنة ١٨٢٠، وبسط إسماعيل باشا نفوذه من جنوب وادى حلفا إلى سنار.

موقعة " بارة " و "احتلال كردفان "

بينما كان إسماعيل يزحف بجيشه متخطياً الصعاب، ومهيمنا على الممالك والبلدات، كان الدفتردار صهر محمد على يتحرك بجيشه لإنفاذ مهمته المحددة، وهى احتلال كردفان، حيث إن الدفتردار وجنوده ـ كما تذكر كتب التاريخ – واجهوا العديد من الصعوبات فى أرض قاحلة وظروف مناخية غاية فى الصعوبة، لكنه بلغ فى النهاية وجهته وغايته النهائية، والتقى الجيش المصرى بقيادة الدفتردار مع جيش كردفان بقيادة نائب الملك ويدعى محمد الفضل فى " بارة " شمال النيل الأبيض، حيث دارت معركة شرسة بين الجيشين فى أبريل ١٨٢١ وانتهت بانتصار الجيش المصرى بقيادة الدفتردار

ودانت له ولجيشه السيطرة الكاملة على إقليم كردفان ذى الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية.

وصول إبراهيم باشا قاهر الوهابيين

بعد كل هذه الانتصارات المتتالية التى أنجزها الجيش المصرى بقيادة إسماعيل باشا وصهره الدفتردار حتى دانت لهم أرض السودان من حلفا إلى كردفان، بدأ القادة يفكرون فى الخطوات القادمة، لكن الأمراض كانت قد بدأت تنتشر وتودى بحياة الكثيرين من جند إسماعيل حتى ساءت حالتهم النفسية مما دفع بإسماعيل أن يرسل لوالده محمد على أن يسارع بإمداده بالمؤن والعلاج والأطباء لإنقاذ الموقف؛ أرسل محمد على ذراعه الأيمن وقلبه النابض البطل المغوار إبراهيم باشا قاهر الوهابيين وآسر أل سعود لكى يكون خير مدد لأخيه إسماعيل فى حروب السودان الشاقة، وعند وصول إبراهيم باشا عمت الفرحة والسعادة جنبات الجيش المصرى بداية من إسماعيل باشا حتى أصغر جندى، وارتفعت معنويات الجميع بهذا الفارس القادم الذى يسير النصر فى ركابه أينما ذهب وتم توزيع المؤن والملابس والأدوية على الجنود مما أسهم فى رفع معنوياتهم وبدأ الجميع يستعد لمواصلة الزحف من جديد.

فتح فازوغلى

تم تقسيم الجيش إلى قسمين أحدهما بقيادة إسماعيل باشا للزحف والتقدم لاحتلال البلاد الواقعة على النيل الأزرق حتى إقليم فازوغلى، والآخر برئاسة إبراهيم باشا للتوغل فى إقليم سنار إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض حتى أعالى النيل، نجح إسماعيل فى السيطرة على فازوغلى وأجبر أهلها وملكها على التسليم لكن إبراهيم أصيب بالدوسنتاريا الحادة مما اضطره إلى العودة إلى مصر وترك أمر قيادة الجيش إلى أخيه إسماعيل.

محرقة القصر كما مذبحة القلعة..

مثلما كانت دعوة محمد على للمماليك لحضور وليمة واحتفال بالقلعة وتحول العشاء الفخم إلى عزاء ضخم.. جاءت دعوة الملك " نمر" لإسماعيل باشا وقادة جيشه بقصره الفخم بمدينة شندى السودانية لوليمة مماثلة

وتحولت الدعوة والوليمة إلى محرقة أليمة بيد أن الانتقام فألاعيب السياسة كانت على الدوام لا تقيم وزنا للأخلاق والمشاعر الإنسانية، فمن أجل السياسة سفكت الدماء وانتهكت الحرمات لكن ومع كامل تقديرى وشدة إعجابى بمذبحة القلعة من الناحية السياسية، تبقى المشاعر الإنسانية فوق كل الاعتبارات، بيد أن صرخات فرسان المماليك وصهيل خيولهم التى ما زالت تدوى بين جدران القلعة الشاهقة وأحجارها العتيقة توقفت لحظة إشعال الملك نمر النيران فى القصر الذى يستضيف فيه «إسماعيل بن محمد على» على وليمة مماثلة .. صدقت ياربى فيما قلت " وما كان ربك نسيا " إنه سبحانه يمهل ولا يهمل، لقد تجرع محمد على من الكأس المريرة نفسها التى سقى منها أبناء المماليك وأسرهم " بيد أن ازدواجية المشاعر التى تسيطر علىَّ مردها إلى قدرتى على أن أتفهم أقدار الله وأتقبلها كلها على أنها خير محض، لكن هذه الأقدار التى تتضمن الخير الخفى قد يكمن فيها ويلازمها أوجاع وآلام يضيق بها الصدر وتدمع لها العين " .

بعد رحيل إبراهيم باشا مريضاً إلى مصر، بقى إسماعيل باشا يكمل المسيرة فى ظروف وأجواء عصيبة حتى نجح فى فتح فازوغلى فى يناير ١٨٢٢، وبعد هذه الواقعة أرسل إسماعيل إلى أبيه يطلب منه السماح له بالعودة إلى القاهرة ليستريح بعض الشيء ويسترد عافيته لكن جاء رد «محمد على» على ابنه إسماعيل باشا قائد جيوشه بالسودان حاداً ورافضاً السماح له بالعودة إلى مصر ويطالبه بالاستمرار فى الزحف فى أدغال السودان.. تقول الكاتبة نيفين يسرى فى كتابها القيم قسمة: " وعاد إسماعيل باشا إلى مهامه بكل قوة لا يعطى نفسه وقتا للأكل أو النوم. ظروف المعيشة كانت غاية فى الصعوبة، فضلاً على الحر الفظيع وقلة وسائل الراحة حتى انهارت صحته الحديدية وأصبح من الصعب عليه اتخاذ القرارات وكان يرتجل فى كل أمر. هل كان عليه أن يتوغل أكثر إلى أعماق أفريقيا أم أن يعود؟ الأوامر التى كان قد تلقاها من والده كانت واضحة: الاستمرار فقرر- على الرغم من عدم اقتناعه ـ تنفيذ الأوامر.

كلما واصلت القوات سيرها أصابتهم خيبة الأمل. فالذهب كان شحيحاً ولا جدوى من البحث عنه وكان الجنود المرهقون من السير تحت الشمس المحرقة

يتعقبهم عدو خفى. كان المقاتلون السود يظهرون فجأة من حيث لا يدرون ويصوبون عليهم سهامهم المسمومة. كان الضوء الشديد يعمى أعينهم كان الحر ثقيلاً وكان الذباب لعنة.

ثم عندما كانوا يجدون بعض الظل فى أخدود ويجلسون ليشربوا شربه ماء ساخنة ذات طعم المعدن من زمزمياتهم أطلق الأهالى أصوات حرب مرعبة، وانهالوا عليهم من فوق الجبال بحجارة كبيرة تتساقط بصوت مثل الرعد.

ولم يعد إسماعيل باشا فى حالة تسمح له بالاستمرار فى القيادة. كان مرهقاً جسمانياً ومعنوياً وكان فى حاجة ملحة إلى بعض الراحة فى جو أرحم.

بعد تردد لمدة طويلة قرر أخيراً مخاطبة والده وطلب منه الإذن بالعودة إلى القاهرة لفترة ليستعيد قوته. كل آماله كانت متوقفة- حينئذٍ ـ على رد الباشا وبدت له الأيام كالسنين وهو فى انتظار عودة ذلك الرسول الذى كان لا يأتى. وأخيراً عندما تلقى الرسالة لاحظ أن يديه ترتعشان وهو يفض الرسالة المختومة بالشمع.

اضطر إسماعيل باشا إلى إعادة قراءة الخطاب مرة ثانية وهو لا يصدق عينيه حتى يتأكد أنه قد فهم محتواه ودموع الغضب والإهانة تسيل على خده:

إنك فى سن ذروة الحياة وعليك أن تواجه مخاطر الحرب ومساوىء الطقس كليهما. أصيب إسماعيل باشا بإحباط شديد وشعر بجرح عميق. كيف يمكن لوالده، أن يكون بمثل هذه القسوة ويعامله كتلميذ رسب فى امتحانه. إنه كان يعلم أنه ليس بأعز أبناء والده فالأمر لم يكن جديدا عليه ولكن تلك القسوة من والده كانت فوق تحمله فتحول يأسه فجأة إلى ميول عدوانية وأخذ ينقد والده لرفيقه:

-أبى يكيل دائما بمكيالين. عندما تطلب الأمر نقل إبراهيم باشا إلى القاهرة وافق الباشا على الفور طبعاً! إبراهيم باشا هو الابن الأكبر، أحبنا إليه والذى لا يرفض له الباشا طلباً. أما الحقير إسماعيل باشا فعليه أن يواجه مخاطر الحرب ومساوىء الطقس كليهما. ليس من العدل أن تكون مثل هذه التفرقة بين الأبناء.

أما رفيقه فكان يستمع دون أن يعلق. فأى كلمة نقد ضد الباشا قد تصله وتعرضه لعقوبة شديدة. فالتزم الصمت أثناء تفريغ إسماعيل باشا ما فى صدره.

بعد أن هدأ راجع نفسه. فإن شقيقه لم تكن لديه تلك القوة البدنية مثل قوته، هو كما أن إبراهيم باشا كان قد أصيب بسعال دون توقف، حتى أرهقه. هذا صحيح ولكن ألم يكن فى وسع الباشا إرسال كلمة تجبر خاطره وتشجعه على مواصلة مهمته إلا أن ما كان إسماعيل باشا يجهله هو أن محمد على كان فى غاية القلق على صحة ابنه لكنه لن يقبل أبدا أن يظهر ضعف الأب أمام محنة ابنه. كان محمد على لا يزال متأثراً بصدمة فقدان ابنه طوسون، ولم يكن يرغب فى تعريض حياة إسماعيل للخطر. فكلف محمد على الرسول بأن يأتيه بأخبار دقيقة عن حالة ابنه الصحية والمعنوية وحالة الجيش بدون أن يخبر إسماعيل باشا بشىء كان يريد أن يتأكد من أن إسماعيل باشا حقا فى حالة تستدعى عودته وأنه لم يكن يحاول التحلل من واجباته. كان محمد على قد ربى أولاده ليكونوا جنوداً، وعليه فلن يقبل تحت أى ظرف من الظروف تفضيلهم على غيرهم بحكم أنهم أبناء الوالى. وجاء التقرير يؤكد حالة الضعف الشديد لإسماعيل باشا وحاجته الماسة للرجوع إلى القاهرة على الأقل لفترة.

رسالة من القاهرة

أخذ إسماعيل باشا من الرسول الرسالة المختومة بالشمع وفتحها وقرأها ثم تساءل إن كان قد أصابته الهلوسة. كان محمد على يمنح إسماعيل باشا الموافقة على العودة إلى القاهرة بشرط أن يتم تأمين حسن إدارة جميع الأراضى المستولى عليها أثناء فترة غيابه وحمايتها. وغمرت الفرحة إسماعيل باشا.

أخيراً سيخرج من هذا الجحيم ويعود لأهله، حيث تعتنى به أمه وزوجته ويسكن فى مكان نظيف ورطب فيه ماء وفير للاستحمام وفيه أكل طيب يتناوله.

وعلى طريق العودة مر إسماعيل باشا على نقاط الحراسة الواحدة بعد

الأخرى وقام بالمأمورية المكلف بها بكل دقة وأمانة، وتأكد من أن الأمور جميعها تحت سيطرة محكمة، وأنها سوف تظل كذلك إلى حين عودته إلى أن وصل إلى قرية شندى، حيث توقف فيها لعدة أيام ليطل على المناطق المجاورة لها ويطمئن عليها، وهناك خاطب زعيم القبيلة بحدة، وكان اسمه (نمر) وكان محارباً عزيز النفس، أمره بأن يأتيه بألفى عبج، بالإضافة إلى قدر هائل من المال، وأضاف إنه يريدها فى خلال خمسة أيام.

وتجاهل نمر حدة إسماعيل باشا ورد بهدوء أنه مستحيل تجهيز ما يطلبه الباشا فى مثل هذه الفترة الوجيزة وطلب منه مهلة بضعة أيام أخر.

كان إسماعيل باشا فى حالة توتر عصبى متلهفاً إلى العودة لأهله وتقديم الهدايا إلى والده فغضب لاضطراره البقاء مدة أطول فى هذا الجو اللعين، وانفعل فلطم نمر على وجهه بغليونته. زعيم قبيلة شندى تلقى اللطمة دون أن تتحرك عضلة فى جسده، ولكن بريق الكراهية لمع فى عينيه لوقاحة هذا الشاب عديم الأدب وصعق مقاتلو القبيلة لإهانة زعيمهم، ورفعوا رماحهم لتمزيق ذلك الذى تجرأ وأهان زعيمهم، إلا أن نمر رفع يده اليمنى فى أمر صامت لإيقاف رجاله الذين استجابوا له رغم اندهاشهم لتصرف زعيمهم.

وازداد غيظ إسماعيل باشا لهدوء أعصاب نمر، فأبلغه بعنف من خلال الترجمان أنه لو لم تنفذ أوامره فسوف يطبق عليه عقوبة الخازوق.

لم يلفظ نمر بكلمة فماذا كان فى وسعه أن يفعل ببعض الرماح أمام جيش الاحتلال المزود ببنادق، فانحنى وابتسم وعرض على الباشا وقادته أكبر البيوت المصنوعة من القش ليرتاحوا فيها أثناء الليل ثم انسحب قدم لهم الأهالى عشاءً فاخراً تبعته سلة ضخمة مليئة بفواكه مختلفة.

عندما حان وقت القهوة والغليون كانت الحالة النفسية للضباط على أحسن حال كانوا يضحكون ويمزحون وكانوا سعداء بقرب عودتهم لأهاليهم.

والتفت إسماعيل باشا ليطلب بعض الماء فلاحظ أن الأهالى الذين كانوا قد خدموا عليهم بلطف ومجاملات زائدة كانوا قد اختفوا جميعاً ثم سمع هو وزملاؤه من الضباط أصوات همس وخطوات خفيفة فى الخارج فشعروا بأن هناك أمراً مريباً وفجأة شموا رائحة دخان فوقفوا جميعاً وتوجهوا إلى الخارج ليتبينوا الأمر وفى هذه اللحظة سمعوا صرخة مفزعة من صراخ

الحرب للأهالى جعلت الدم يتجمد فى عروقهم؛ كان البيت محاصراً من قبل المحاربين السود، وقد أشعلوا النار فيه وكانوا يرقصون حوله رقصة الموت، وأصيب إسماعيل باشا ورفاقه بحالة من الهلع واندفعوا فى محاولة للهرب، إلا أن المحاربين السود دفعوهم للخلف بواسطة حراب طويلة لمنعهم من الخروج من بيت القش المشتعل. وأصيب الأسرى بالكحة والاختناق نتيجة الدخان ثم تعالى صراخهم، حيث أمسكت النيران بملابسهم وبدأت وجوههم وأجسادهم تصاب بالحروق إلى أن ماتوا عن آخرهم مختنقين ومحروقين والأهالى يرقصون حول البيت ويدقون الطبول.

كان الباشا جالساً فى السلاملك يدخن النارجيلة فى طمأنينة، ويناقش وزراء فى أمور الدولة ،كان الجو لطيفا وحالة من النعيم والسلام تسود السلاملك، ولا يوجد أى مؤشر ينبىء بأن مصيبة قادمة وصل إلى بوابة القلعة فارس مندفع بفرسه ويغطيه العرق والتراب وألقى بكلمة إلى الحراس جعلتهم يتسمرون فى أماكنهم من هول المفاجأة ووجد قائد الحرس باب غرفته يفتح بقوة ويدخل عليه جندى يصيح أن عليه أن يقابل الباشا فوراً، وجاء رد القائد قصيراً وحاداً: الباشا لا يريد الإزعاج.. ثم أشار بسبابته نحو الباب قائلاً بقوة وحزم :- تفضل! تسمر الجندى أمام القائد وأخذ يحكى له فى سرعة سبب مجيئه واستمع القائد فى صمت ثم أشار بيده للجندى ما معناه اذهب لإتمام مأموريتك، ولكن لسانه عجز عن النطق عندما أبلغ محمد على بأن هناك رسولاً قادماً من السودان ويطلب مقابلة الوالى فوراً، أذن له محمد على بالدخول وعند اقترب الجندى من الأريكة التى كان يجلس عليها الباشا وإحدى ساقيه مطوية تحته كالعادة، أخذ يرتعش نظر إليه الباشا فى قلق وقال له ماذا بك يا بنى؟ تبدو مريضاً وكأنه سيغمى عليك!

ووقف الجندى لا يرفع عينيه عن الأرض يروى للباشا النبأ الرهيب، ظل محمد على جالساً فى صمت يستمع إلى تفاصيل الموت الفظيع لابنه، وكان يهز رأسه يميناً ويساراً كأنه يرفض ما يسمع كان وجهه شاحباً والألم يملأ عينيه؛ أخيراً رفع يده مشيراً إلى الحاضرين برغبته فى البقاء بمفرده.

وظهر فجأة الكبر على محمد على وكان خادمه المخصى المفضل الذى بقى بجواره يتألم لسيده الذى لم ينطق بكلمة ولكنه ظل يهز رأسه فى حزن إلى أن قام ودخل جناحه الخاص ليصلى على روح ابنه، وأدرك محمد على فجأة أنه على الرغم من كل نفوذه وسلطانه لم يكن فى وسعه فعل شىء أمام إرادة الله.

سيذكر التاريخ أن بلداً هنا كان يُسمّى شندى!!

كان محمد بك الدفتر دار فى كردفان حينما وصلت تلك الأنباء المرعبة عن مصرع صهره وقائده إسماعيل باشا حرقاً وبهذه الطريقة الوحشية الغادرة انطلق الدفتر دار بقواته إلى شندى ودون رحمة ودون هوادة أباد كل شيء فى شندى، وأتى على كل ما وصلت إليه يداه، فقتل الآلاف وسبى من الصبيان والنساء آلافاً أرسلهم إلى القاهرة، ونكل بهم وعذبهم عذاباً لم تعرفه الإنسانية من قبل وصار مضرب الأمثال.

كيف حكم محمد على السودان؟!

قام محمد على بتنظيم الأقاليم السودانية ووضع نظاماً سياسياً لحكم الإقليم ووضع على رأس الحكم هناك حاكماً يسمى " حكمدار " تحت الإدارة المباشرة لمحمد على، واتخذ محمد على من مدينة الخرطوم التى أسسها ابنه إسماعيل عاصمة للسودان وقسم السودان إلى سبع مديريات هى دنقلة، والخرطوم، وبربر، وفازوغلى، وكردفان، وكسلة، وسنار.

لقد امتد العمران فى عهد محمد على إلى كل الأقاليم السودانية وعم الأمن والأمان والنظام ودارت عجلة العمل والإنتاج وصارت السودان دولة محمد على باشا؛ فى السودان وهو فى سن السبعين قرر محمد على الذهاب إلى السودان للوقوف بنفسه على أحوال مشروعات البحث عن مناجم الذهب، تحرك محمد على فى الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٣٨ م عن طريق دنقلة وتحرك إلى الخرطوم عن طريق الصحراء ووصلها فى الثالث والعشرين من نوفمبر ١٨٣٨ واستمرت إقامته لمدة ٢٢ يوما تفقد فيها أحوال الدولة وقابل الوجهاء من أهل السودان، وقرر محمد على إلغاء تجارة الرقيق نهائياً، ثم توجه إلى سنار وقصد إلى جبال فازوغلى للإشراف على عمليات التنقيب عن الذهب عاد بعدها إلى الخرطوم ثم عرج إلى مصر فى

مارس ١٨٣٩ .

البعثات الاستكشافية والعلمية والجغرافية

كان الفتح المصرى للسودان فاتحة خير على العلوم الجغرافية والجيولوجية، فلولا الحملات المصرية ما تمكنت الرحلات العلمية من ولوج أرض السودان، فقد كانت القوات المصرية تصطحب العلماء والمعنيين بالعلوم الجغرافية فى كل فتوحاتها، فالهدف من الحملة لم يكن استعراضاً عسكرياً كما يخيل للبعض، بل كانت هناك أهداف واضحة وأجندة محددة، كان اكتشاف منابع النيل والوصول إلى جميع النقاط فى أحراش أفريقيا هو الغاية النبيلة التى تحققت وأفادت البشرية جمعاء، لقد صحب إسماعيل باشا وإبراهيم باشا ومحمد على باشا بنفسه العديد من العلماء والمكتشفين وهذا يدلنا على مبلغ اهتمام محمد على بهذا الأمر، لقد قام محمد على بنفسه عقب عودته من السودان بتنظيم البعثات الاستكشافية والعلمية.. يقول المسيو ديهيربان أحد العلماء الجغرافيين: " إن محمد على بإنفاذه الرحلات والبعثات لاكتشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذى كان يطمح إليه علماء الجغرافيا جميع رجال العلم فى العالم.

ويقول إبراهيم باشا " إننا سنكتشف النيل الأبيض فى حملة من مراكب مسلحة وعدد كبير من القوارب الخفيفة التى تستطيع أن تمضى فى النهر بسهولة دون أن تعترضها الشلالات وستكون وجهة هذه العمارة النيلية أن تنحدر فى النهر وروافده حتى تصل إلى منابعه " وقد كلف محمد على البكباشى سليم بك قبطان بقيادة مجموعة من الرحلات الاستكشافية فى السودان وقام الرجل بثلاث رحلات الأولى فى ١٦ نوفمبر ١٨٣٩.

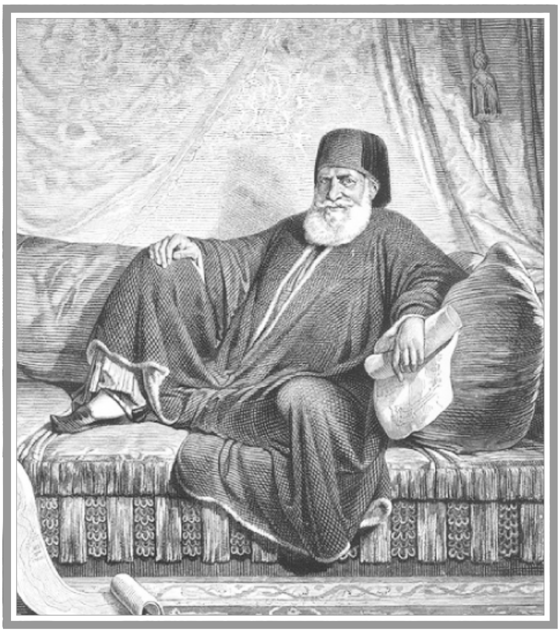
أول مرجع علمى للأرصاد الجوية

كانت البعثات الاستكشافية تضع نصب أعينها غايات محددة، أولها الوصول إلى منابع هذا الشريان الذى يحمل حياة مصر، لقد كانت النتائج مبهرة على جميع المستويات، خاصة العلمية والجغرافية كما ورد فى كتاب الرافعى " عصر محمد على " " وعندما وضع البكباشى سليم بك قبطان تقريره ضمنه تفاصيل الحملة وألحق بها جدولا بالأرصاد الجوية التى قيدها

فكانت هذه الرسالة أول مرجع رجع إليه العلماء فى اكتشاف باطن إفريقيا، وقدمت هذه الرسالة إلى الجمعية الجغرافية الفرنسية بباريس بواسطة المسيو جومار رئيس البعثة المصرية فى فرنسا ونشرت فى مجلة الجمعية الجغرافية سنة ١٨٤٢ فحازت إعجاب علماء الجغرافيا فى فرنسا ومهد لها المسيو جومار بمقدمة أثنى فيها على همة سليم بك قبطان وقال فيها: إن هذه الحملة المؤلفة من ٤٠٠ رجل بقيادة ضابط مصرى وغايتها الاكتشافات الجغرافية هى أول حملة من نوعها والتقرير المدون به يوميات الحملة محرر بالأوضاع التى يحررها الرحالة الأوربيون ولا شك أن هذه الرحلة هى إحدى ثمرات الحضارة التى دخلت مصر منذ ربع قرن.



الفصل الثالث عشر



المصريون في أوروبا .. انتصارات وانكسارات



حرب اليونان ١٨٢١-١٨٢٨

- القوات المصرية تدك معاقل القبارصة
- الأسطول المصرى على شواطئ الأناضول
- معركة بودروم البحرية سبتمبر ١٨٢٤
- معركة جزيرة ساقز أكتوبر ١٨٢٤
- معركة كورون
- معركة مودن
- حصار أثينا واستسلامها
- احتلال جزيرة اسفاختريا الاستراتيجية سقوط نافارين
- معركة كلاماتا
- معركة أركاديا
- معركة تريبوليتزا يونيه ١٨٢٥
- احتلال ميسلونجى ٢٢ أبريل ١٨٢٦
- معاهدة لندرة ٦ يوليه ١٨٢٧
- وصول أساطيل الحلفاء لإنقاذ اليونانيين
- واقعة نفارين البحرية وتدمير الأسطول المصرى.

محمد على يدير الأزمة السياسية من القاهرة

عندما اندلعت الثورات الأوروبية فى مناطق البلقان والمورة ضد الحكم العثمانى حاول السلطان العثمانى القضاء على تلك الثورات المشتعلة والمتنامية وكان قادتها يلعبون على الأوتار الدينية لينضم إليهم أكبر عدد من الجماهير من كل أنحاء أوروبا، كان الحكم العثمانى يمثل الخلافة الإسلامية وكان من السهل على قادة الثورات الأوروبية أن ينشروا بذور ثورتهم من الكنائس ليلتف حولهم الآلاف والآلاف من الجماهير من كل صوب وحدب، وقد أنشأت الجمعيات والمؤسسات التى نجحت فى ضم العديد من النخب والأمراء والنبلاء فى المجتمع الأوروبى لقد كانت هذه الثورات تهدف إلى الاستقلال التام وطرد الأتراك العثمانيين المسلمين من كل أوروبا، وفى ٢٥ مارس ١٨٢١ أعلنت الثورة فى شمال البلقان وشبه جزيرة المورة، كانت هذه الثورة ذات صبغة دينية، وكان القس جرمانوس أسقف باتراس شمال المورة قد أعلن الثورة بعدما ترك باتراس واتجه إلى كلافريتا ومن هناك اشتعلت الشرارة الأولى للثورة وكان شعارها: «الإيمان، الحرية، الوطن».

نظم الأوربيون ثورتهم فى البر والبحر.. فبحرا بدأ الأوربيون حملة شاملة لمهاجمة المراكب والسفن والأساطيل التركية، وتكونت فرق ضخمة من القراصنة الذين سيطروا على البحر وأثاروا الفتن والمخاوف لدى الجميع وبراً، بدأ الثوار يهاجمون الأتراك ويقتلونهم ويأسرونهم أينما وجدوا ونجح الثوار فى السيطرة على أهم مدن المورة ثم تشكلت الجمعية الوطنية من ستين ثائراً يمثلون المقاطعات الثائرة فى يناير ١٨٢٢ لتعلن صراحة ولأول مرة الاستقلال التام عن الحكم العثمانى والخلافة الإسلامية بيد ان انشغال تركيا بقيادة خورشيد باشا بمحاربة على باشا توبلينجى أتاح الفرصة لهذه الثورات أن تحقق نجاحات متتالية، مما أكسبها الكثير من الأنصار والمؤيدين لكن وبعد أن تم القضاء على ثورة على باشا توبلينجى ذلك الألبانى الذى ضرب المثل فى القوة والشجاعة والجرأة وتم التخلص منه ومن ثورته بقتله والتنكيل به وبدأ الجيش العثمانى يواجه تلك الثورات الأوروبية التى سببت قلقاً كبيراً للسلطان العثمانى، وحققت القوات التركية عدداً من الانتصارات المتتالية على قواعد الثوار فى شمال البلقان والمورة، لكن هذه الانتصارات لم تستمر

طويلا، فقد تفوق الثوار الأوربيون بحراً وبراً على القوات التركية التى بدت ضعيفة وغير منظمة، لقد تجرأ الثوار وتملكتهم الشجاعة وهم يحققون تلك الانتصارات على عدوهم التركى، وعاثوا فى الأرض فساداً فى البحر والبر، وأعادوا عصر القرصنة البحرية من جديد.

تركيا تطلب النجدة من الجيش المصرى

فى عام ١٨٢١ استنجد السلطان العثمانى بمحمد على لإنقاذ القوات التركية التى ساء موقفها فى مواجهة الثوار الأوربيين وكان الأمر السلطانى إلى محمد على يتضمن سرعة تجريد الأسطول المصرى للقضاء على القراصنة الأوربيين وتأديب أولئك الثوار الذين يسعون إلى الانفصال والخروج من تحت العباءة العثمانية، وكانت قوة الجيش المصرى التى ظهرت فى الحروب الوهابية والأدغال السودانية هى التى دفعت السلطان العثمانى إلى طلب العون من محمد على، لكن المؤرخين ينظرون إلى تكليفات السلطان العثمانى لمحمد على على أنها جزء من المخطط التركى الرامى إلى تقليم أظافر الجيش المصرى مخافة أطماع محمد على فى أملاك الدولة العثمانية ذاتها، على كل فإن الأهداف والدوافع التركية من اختيار القوات المصرية لنجدة الجيشً العثمانى فى أوروبا أراها من وجهة نظرى لا تخرج عن كونها صرخة لهفان واوامر من سلطان يخشى على ملكه من الزوال وعلى امبراطوريته من التفكك والإنهيار على الجانب الآخر فإن هذا الفرمان الذى أصدره السلطان إلى محمد على يطلب منه سرعة التوجه إلى بلاد المورة لإخماد الثورة المتأججة كان بمثابة فرصة تاريخية لمصر والقوات المصرية ولمحمد على!!

فأى مجد وفخار سيطول مصر وقواتها وزعيمها؟

إن الاحتكاك بالقوات الأوروبية فى معاقلها ومحاربتها سيكون عملاً بطولياً غير مسبوق أمام العالم بأسره لقد سعد محمد على أيما سعادة وبدأ فى اتخاذ الخطوات الضرورية لهذه الحملة وكعادته لم يترك للمصادفة مجالاً..

الاستعدادات المصرية للحروب الأوروبية

سارع محمد على باتخاذ الترتيبات اللازمة لتلك الحرب غير المسبوقة كما يلى: -

● تعيين إبراهيم باشا قائداً للجيوش والأساطيل المصرية، تعيين إسماعيل بك قائدا للأسطول تحت قيادة إبراهيم باشا، تجهيز ١٧ ألف مقاتل من المشاة، تجهيز ٧٠٠ فارس، تجهيز ٤ كتائب مدفعية،، تجهيز ٥١ سفينة حربية مجهزة بالأطقم والمقاتلين، وتجهيز ١٤٦ سفينة لنقل المحاربين والمؤن والعتاد إلى أوروبا.

بعد أن انتهت تلك التجهيزات تم تجميع كل ما يخص الحملة فى ميناء الإسكندرية تمهيداً لأوامر الباشا ببدء التحرك من شمال إفريقيا إلى جنوب أوروبا لبدء أعظم حروب خاضها الجيش المصرى فى تاريخه يقول الرافعى واصفاً هذا المشهد " كان منظرها يأخذ بالألباب " ويقول المسيو دربو أحد الخبراء الأوربيون فى كتابه «تاريخ اليونان السياسى» لم ير الشرق حملة تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت، فكأن الشرق أراد أن يغزو الغرب جواباً على حملة أوروبا عليه وهكذا تتقلب الأطوار فى سير التاريخ ".

أصدر محمد على قراراً بتجييش الجيوش وتأمير الأمراء، ووضع الخطط المناسبة لسرعة التحرك للقضاء على القراصنة الأوربيين الذين هددوا الملاحة العالمية، وكانت التعليمات الصادرة منه واضحة تماماً لقادته وأركان نظامه، وقد جاء فى أمر محمد على الصادر فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٢١، والذى أورده إسماعيل باشا سرهنك فى كتابه الموسوعى " حقائق الأخبار عن دول البحار ما يلى:

" قد علم لكم أنه أحيل تأديب وتربية الأروام (اليونانيين) الثائرين على الدولة العلية على عهدتى، وبما أن السفن الحربية التى جرى استعدادها لغاية الآن قد بلغت أربع عشرة سفينة ولو أن قيادتها عائدة علىّ، إلا أنه لكثرة أشغالى قد عينتكم بدلاً عنى لقيادتها فتوكلوا على الله وأسرعوا بالإقلاع بها للجهة المقصودة، وأدوا الخدمة اللازمة عليكم فى هذه المأمورية، بحسب ما تقضى عليكم حقوقها المقدسة وقد تحررت صورة من هذا الأمر

إلى مطوش قوبدان الذى تعينت سفينته بمعيتكم ".. يقول الجبرتى حول تجهيزات محمد على واستعدادات الجيش والأسطول المصرى قبل التوجه إلى أوروبا" سافر الباشا إلى الإسكندرية لداعى حركة الأروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطريق على المسافرين واستئصالهم بالذبح والقتل حتى أنهم أخذوا المراكب الخارجة من أسطنبول وفيها قاضى العسكر المتولى قضاء مصر ومن بها أيضاً من السفار والحجاج فقتلوهم ذبحاً عن آخرهم ومعهم القاضى وحريمه وبناته وجواريه وغير ذلك وشاع ذلك بالنواحى وانقطعت السبل فنزل الباشا إلى الإسكندرية وشرع فى تشهيل مراكب مساعدة للأسطول السلطانى.. ويقول المسيو مانجان: " أعد محمد على الأسطول فى الإسكندرية، حيث أقلع منها فى ١٠ يوليه سنة ١٨٢١ بقيادة الأميرال إسماعيل بك، وكان مؤلفاً من ١٦ سفينة كاملة السلاح والعتاد وبها ٨٠٠ مقاتل بقيادة طبوز أوغلى فاتجه الأسطول إلى مياه رودس لمطاردة السفن اليونانية والتقى بالأسطول التركى فى الدردنيل ثم عاد إلى الإسكندرية فى مارس سنة ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة إلى جزيرة كريت ".

القوات المصرية تدك معاقل القبارصة

كانت الثورة قد اندلعت فى جزيرة قبرص عام ١٨٢١ متأثرة بروح الثورة التى انتشرت فى بلاد المورة والبلقان، كانت القوات المصرية بقيادة حسن باشا تقدر بـ٥٠٠٠ مقاتل قد غادرت سواحل الإسكندرية قاصدة جزيرة قبرص، حيث وصلتها فى شهر يونيه ١٨٢٢ بدأت المناوشات والمعارك بين الثوار القبارصة والقوات المصرية واشتدت المعارك وأظهر المصريون شجاعة نادرة وكان تنظيم القوات المصرية مضرب الأمثال ومبعث الاحترام ضرب المصريون حصاراً عنيفاً على الثوار وشتتوا شملهم وسارع الثوار بالفرار أمام شراسة المصريين إلى الجزر اليونانية القريبة ودانت السيطرة للمصريين وخمدت ثورة القبارصة.

الأسطول المصرى على شواطئ الأناضول

تحركت القوات المصرية من ميناء الإسكندرية فى منتصف عام ١٨٢٤، وكان

خط سيرها من ميناء الإسكندرية إلى جزيرة رودس إلى خليج ماكرى لتنضم القوات المصرية إلى القوات التركية لتوحيد الخطط والمواقف والانطلاق من نقطة واحدة، انطلقت البوارج والبواخر المصرية تمخر عباب البحر، دارت عدة معارك ومناوشات بحرية بين الثوار اليونانيين والأسطول المصرى.

معركة بودروم البحرية سبتمبر ١٨٢٤

اشتبك الأسطول التركى بسفن الثوار الأوروبيين الذين اشتهروا بالبسالة والشجاعة فى المعارك البحرية، وبعد مناوشات دارت معركة شرسة تفوق فيها الثوار، واضطرت القوات التركية إلى التراجع لكن القوات المصرية كانت أكثر تدريباً وتنظيماً وشجاعة من الجيش التركى فتقدمت السفن الحربية المصرية تجاه سفن الثوار اليونانيين، ودارت معركة شرسة تفوق فيها الأسطول المصرى وحقق فيها أول انتصاراته البحرية على القوات الأوربية.

معركة جزيرة ساقز أكتوبر ١٨٢٤

أثناء إبحار سفن الأسطول المصرى اعترضته سفن الثوار اليونانيين، ودارت معركة عنيفة بين الجانبين، وتمكن الثوار من إغراق سفينتين من سفن الأسطول المصرى، مما دفع إبراهيم باشا إلى العودة إلى ميناء بودروم مرة ثانية، أيقن إبراهيم باشا أن هؤلاء الثوار لا يمكن هزيمتهم إلا فى حرب برية تساندها قوات بحرية وليس العكس، تحرك القائد إبراهيم باشا إلى جزيرة قبرص واستقر بقواته هناك يتحين الفرصة تلو الآخرى للنزول إلى أرض بلاد المورة، حتى جاءته الفرصة بعد حدوث قلاقل وخلافات بين الثوار، انتهز إبراهيم باشا هذا التشرذم والخلاف بين قوات منافسيه فتحرك صوب بلاد المورة بقواته وأساطيله فوصل جزيرة مودن فى فبراير ١٨٣٥.

وحول هذه المناوشات التى دارت على سطح البحر يقول المسيو دوان فى كتابه «فرقاطات محمد على الأولى» ومضت خمسة أشهر على مغادرة العمارة المصرية ثغر الإسكندرية، خمسة أشهر تقضت فى جهود شاقة ومتاعب لا هوادة فيها ومخاطر تتجدد كل يوم وإن ما أبلاه إبراهيم باشا فى هذه الظروف من الثبات ورباطة الجأش لما يسترع النظر، فإن قيادة أسطول بحرى تصحبه عمارة من سفن النقل لمن المهام التى ليس من السهل

الاضطلاع بها وإن إبراهيم باشا فى قيادته عمارة من مائة سفينة تقل نحو عشرين ألف رجل من جنوده وبحارته، قد اضطلع بمثل المهمة التى حملها بونابرت من قبل فى حفظ النسبة بين الموقفين حينما اجتاز البحر الأبيض فى أواخر القرن الماضى بعمارة من ٢٨٠ سفينة تقل ٣٨ ألف مقاتل وإذا تذكرنا أن مصر لم يكن لها إلى ذلك الحين أسطول منتظم ولا تقاليد بحرية ولا هيئة من الضباط البحريين الأكفاء ولا العدد الكافى من البحارة المدربين، وكان على إبراهيم باشا أن يبتكر وينظم على الفور كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد وأن يروض نفسه على ركوب البحر والقتال بين أمواجه وأهواله، إذا تذكرنا كل ذلك فإنه يحق لنا أن نعجب كيف أن العمارة التى حشدها محمد على أمكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها وكيف استطاعت أن تثبت بين الوثبات والهجمات الشديدة التى استهدفتها وأصابتها من عدو له حظ كبير من المهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وبضع ناقلات لا شك أن هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة إبراهيم باشا وعلو همته وتطاعنا بما تحتويه نفسه من صفات العظمة ومزايا الرياسة والقيادة، كما أن مواقفه فى ميادين القتال ورباطة جأشه فى مغالبة المحن تدل على شجاعة كبرى لا يسع أى إنسان إلا أن يبادر بالإعجاب ".

معركة كورون

بعدما استقر إبراهيم باشا فى مودن لينظم قواته ويرسم خطط الزحف، علم إبراهيم باشا بحصار كورون، فسار بنخبة من جنوده وفرسانه قاصداً كورون لنجدتها وبدأت القوات المصرية فى محاولاتها لفك الحصار عن كورون بإدخال المؤن والعتاد إلى الجنود المحاصرين، ثم هجم المصريون هجوماً عنيفاً ونجحت فى فك الحصار وفر المحاصرون أمام ضراوة الهجمات المصرية.

معركة مودن

أثناء تحرك إبراهيم باشا إلى نافارين أهم معاقل الثوار لحصارها قابله الثوار فى مودن فى قوة مكونة من ثلاثة آلاف وخمسمائة من المقاتلين الأشداء، جاءوا

لنجدة نافارين، لكن القوات المصرية تصدت لهم وهزمتهم شر هزيمة وقامت بأسر قائدهم فى واحدة من أهم المعارك العسكرية، وكادت تسقط مودن لولا وصول الإمدادات الهائلة من المتطوعين اليونانيين بعدد يصل إلى ٩٠٠٠ مقاتل متطوع جاءوا من جمع المناطق اليونانية لإنقاذ المدينة المحاصرة، يقول الرافعى - فى وصف مواجهة الجيش المصرى لهؤلاء الثوارلكن إبراهيم باشا قابل هذا الجيش بشجاعة ونظام بديع فصف جنوده على ترتيب محكم ولما أصبح الأعداء على عشرة أميال ركب المدافع القوية حول المدينة وترك جزءاً من جيشه يتولى حصارها وقام ببقية والتقى باليونانيين على مقربة من البلد فهجم هؤلاء بحماسة عظيمة ولكن من غير نظام، أما إبراهيم باشا فقد أمر جنوده بالبقاء فى مواقعهم دون أن يطلقوا النار حتى تصدر إليهم الأوامر بذلك، فلما سار العدو على مائة متر قابله الجنود المصريون بإطلاق النار دفعة واحدة، وحصد الرصاص الصفوف المتقدمة حصداً وألقى الرعب فى قلوب المهتجمين واختلت صفوفهم ولم يمض قليل حتى قتل معظم جنود اليونانيين وتشتت الباقون فى الجبال وفى أنحاء اليونان كانت هذه الواقعة هزيمة كبرى أصابت اليونانيين، وفتت فى عضدهم وزلزلت آمالهم، كما أنها كانت نصراً مبيناً للجيش المصرى انتهت بسحق الجيش اليونانى، وغنم المصريون فيها غنائم كثيرة، وأسروا عدداً عظيماً من اليونانيين فيهم عدة من الضباط ورؤساء الجند الذين اعتمد عليهم اليونانيون فى تنظيم حركاتهم الحربية، وقد رفعت هذه الواقعة فى شأن الجيش المصرى إذ أنها أول معركة خاضها فى القارة الأوروبية بعد حروبه السابقة فى آسيا وأفريقيا وكانت فاتحة انتصاراته فى حرب المورة وقد شهد الجميع للجيش المصرى بالنظام والشجاعة والثبات، وكان مسلك الجنود فيها حيال أعدائهم مسلكاً إنسانياً رائعاً فلم يرتكبوا شيئاً من الفظائع وكانوا يحسنون معاملة الأسرى اليونانيين، كما أن أطباء الجيش المصرى كانوا يعنون بتضميد جراحهم إنفاذا لأوامر إبراهيم باشا.

احتلال جزيرة أسفاختريا الاستراتيجية

فى طريقه إلى نافارين لإحكام السيطرة عليها، أيقن إبراهيم باشا أن هناك ثغرة فى هذا الحصار، حيث إن المؤن والسلاح تدخل إلى نافارين عبر جزيرة أسفاختريا المجاورة، فعلم أن سقوط نافارين مرهون ومتوقف على السيطرة على هذه الجزيرة أولاً، فكلف إبراهيم باشا القائد العظيم سليمان باشا الذى

بنى الجيش المصرى بقيادة القوات المتجهة إلى الجزيرة ورغم المقاومة الشرسة والمسلحة من اليونانيين فإن المصريين استطاعوا هزيمتهم هزيمة قاسية ودخول الجزيرة ورفع العلم المصرى عليها.

سقوط نافارين

لما سقطت جزيرة أسفاختريا الاستراتيجية توقفت خطوط الإمداد عن نافارين تماماً، وفشلت جميع المحاولات اليونانية لفك الحصار المصرى الشرس، وأحكم إبراهيم باشا قبضته على نافارين حتى يئس المقاتلون المحاصرون، وطلبوا التسليم وتسليم سلاحهم وعتادهم إلى إبراهيم باشا مقابل أن يؤمنهم على حياتهم فوافق إبراهيم باشا على ذلك، ودخلت القوات المسلحة المصرية إلى مدينة نافارين فى ١٨ مايو ١٨٢٥، وكان هذا الانتصار من أعظم الانتصارات المصرية فى أوروبا، وكانت تلك المعركة ذات أثر بالغ فى سير العمليات العسكرية فى بلاد المورة.

معركة كلاماتا

بعد سقوط نافارين وفرار الثوار أعاد هؤلاء الثوار تجميع أنفسهم فى منطقة بتروبك فى ميناء كلاماتا، واشتهر عن هؤلاء الثوار الشجاعة المتناهية، حيث إنهم من أبناء المناطق الجبلية الحادة وتوجه إبراهيم باشا إلى هؤلاء الثوار بنفسه على رأس قوة مصرية شديدة البأس واستطاع هزيمتهم وتشتيتهم بعد معركة ضارية.

معركة أركاديا

بعد سقوط كلاماتا بدأ إبراهيم باشا فى مهاجمة القلاع والقرى والمدن الصغيرة المحيطة بكلاماتا حتى يفوت على الثوار فرصة إعادة تنظيم صفوفهم من جديد، واستمر إبراهيم باشا فى سعيه الدءوب حتى وصل أركاديا التى تقع على البحر غرب المورة.

معركة تريبوليتزا يونيه ١٨٢٥

كانت هذه المدينة مركزاً للثورة ومعقلاً للثوار، لذلك قرر إبراهيم باشا الزحف بقواته للقضاء على هؤلاء الثوار، وفى طريقه إلى المدينة واجه

الجيش المصرى الأهوال والمصاعب، خاصة حينما قرر إبراهيم باشا اجتياز جبل تايجنت ومضايقه الوعرة واستطاع إبراهيم باشا أن يهزم الثوار عند مضيق كورشيكا وهزم الثائرين الشهيرين كولوكترونى وبتراكو، واستطاع الجيش المصرى قتل ما يقرب من خمسمائة من الثوار واستولى على المدينة.

احتلال ميسلونجى ٢٢ أبريل ١٨٢٦

كان إبراهبم باشا ينوى التأهب لفتح نويلى عاصمة بلاد المورة لكن صرخة رشيد باشا قائد القوات التركية وهو يطلب النجدة من إبراهيم باشا جعلت الأخير يقرر تأجيل الهجوم على نويلى والتوجه ليميسلونجى لنجدة القوات التركية التى تأزم موقفها تماما. كانت المدينة محصنة وقريبة من البحر، فلم تستطع القوات التركية إحكام الحصار عليها، ترك إبراهيم باشا قوات تكفى للحفاظ على ما تحقق من انتصارات فى المدن والمناطق الساحلية وعلى رأس قوة تتكون من أكثر من عشرة آلاف مقاتل، تحرك إبراهيم باشا إلى مدينة ميسلونجى، كان ذلك فى فبراير ١٨٢٦، وكانت القيادة والخطة فى هذه المعركة لرشيد باشا قائد القوات التركية، لكن هذه الخطة فشلت، مما دفع إبراهيم باشا إلى الاعتماد على نفسه فى رسم الخطة المناسبة لهذه البلدة العنيدة، وعمد إبراهيم باشا إلى قطع خطوط الإمداد عن المدينة كما فعل فى نافارين، نجح فى كسر شوكة الثوار المحصنين وهاجمهم الجيش المصرى وقتلهم تقتيلاً وأسر منهم الكثيرين ولاذ بالفرار أعداد غفيرة وقتل من المصريين قرابة الألفين من الجنود وشعر باقى من فى البلدة بالخطر فاجتمعوا ـ وكانوا ألفين من الأهالى ـ واجتمعت كلمتهم يومئذٍ فيما بينهم على أن الموت أفضل من الحياة الذليلة، فتجمعوا فى مستودع الذخائر وقام كبيرهم بإشعال النار فى المستودع فانفجر المكان وماتوا جميعاً.

معاهدة لندرة ٦ يوليه ١٨٢٧

بعد سقوط ميسولونجى ثار الرأى العام الأوروبى مطالباً الدول لأوربية بالتدخل لوقف نزيف الدم ونصرة الثورة اليونانية، لقد كانت الأحداث الجسام والمقاومة الشرسة التى أظهرها الثوار فى ميسولونجى سبباً مباشراً فى قيام الدول الأوروبية بالضغط على الدولة العثمانية لإيقاف القتال

وتسوية المسألة اليونانية، واتفق كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا على التدخل فى المسألة اليونانية والضغط على الأتراك بقبول سيادة عثمانية مع استقلال اليونان فعليا،، وقضت المعاهدة التى غابت عنها النمسا بمخاطبة الطرفين بإيقاف القتال، تمهيداً لعقد المعاهدة وإبرام الإتفاق وأرسل المجتمعون إلى تركيا بضرورة قبول المصالحة، وأمهلوا الباب العالى شهرين لقبول مبدأ المصالحة وإلا استخدمت هذه الدول القوة لوقف العمليات الحربية على أرض اليونان.

وصول أساطيل الحلفاء لإنقاذ اليونانيين

باثنتى عشرة سفينة وصلت القوات الإنجليزية بقيادة الأميرال كودرنجتون، ثم وصل الأسطول الفرنسى بسبع سفن مماثلة، وتبعه الأسطول الروسى بثمانى سفن حربية، وصلت هذه السفن إلى بحر الأرخبيل حيث إن الدول الأوربية كانت تعلم مسبقا أن تركيا سوف ترفض معاهدة لندرة لذلك سارت بتحريك قطعها البحرية لاستفزاز الأتراك ووضع حد لحرب اليونان.

واقعة نفارين البحرية وتدمير الأسطول المصرى

عندما وصلت قوات الحلفاء إلى نافارين كان الأسطول المصرى والتركى مرابطين فى نافارين وكان إبراهيم باشا هو القائد العام للجيوش والأساطيل المصرية والتركية، وأبلغ قادة الأساطيل المتحالفة إبراهيم باشا بأنهم جاءوا لتنفيذ معاهدة لندرة، ولن يسمحوا بخرق المعاهدة، وكان رد القائد المصرى بأنه سيرسل إلى والده بالإسكندرية والى الباب العالى لاستطلاع رأيهما، أيقن إبراهيم باشا أن الحلفاء جاءوا للتضييق على القوات المصرية التركية المشتركة، وأنهم لن يتعرضوا إلى الثوار اليونانيين وغادر إبراهيم باشا نافارين فى الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٢٧ وزحف بجزء من جيشه داخل المورة لإخماد الثورات اليونانية ولإنقاذ الحاميات المصرية وترك قائد أسطوله وصهره محرم بك مع الأسطول المصرى وتوجه مع قواته البرية لإخماد الثورات فى المناطق الداخلية بالمورة وكان ما زال ينتظر رد أبيه وجاء رد محمد على لابنه أن يلتزم الحذر ولا يشتبك مع القوات الأوربية حتى لو جاءته تعليمات من الباب العالى لكن القائد الإنجليزى لأسطول الحلفاء كان

يبيت النية على تدمير الأسطول المصرى التركى فاعتبر خروج إبراهيم باشا للقضاء على الثوار خرقاً للاتفاق وأرسلوا إنذارا يبلغونه أنه نقض العهد ويلقون عليه بتبعة هذا العمل وعواقبه الوخيمة، تحرك أسطول الحلفاء وخدع قادة الأسطول المصرى والتركى ودارت معركة شرسة أظهر فيها المصريون شجاعة نادرة ولكن نظراً للإمكانيات الهائلة للحلفاء من ناحية وللسلوك المخادع لقائد أساطيل الحلفاء من ناحية أخرى فقد تم تدمير الأسطولين المصرى والتركى فى مشهد مأساوى حزين، كان إبراهيم باشا غير موجود فى نافارين أثناء تلك المعركة لكنه حزن حزنا لا يوصف بعد تدمير الحلم المصرى فى نافارين.

محمد على يدير الأزمة من القاهرة

فور تدمير الأساطيل المصرية التركية وقف الأتراك موقف العناد تجاه الحلفاء ورفضوا رفضاً قاطعاً أية تسوية سياسية للأزمة اليونانية، بينما أيقن محمد على أن مصير المسألة اليونانية بات فى أيدى الحلفاء، وأن أية حرب جديدة لن يكون لها فائدة إزاء إصرار الحلفاء على فرض شروطهم على الأتراك، كان محمد على بدهائه السياسى يفتح خطوط الاتصال مع قناصل الدول الأوربية بالقاهرة فقرر محمد على الانفصال بالقرار المصرى عن التوجهات التركية ونجح محمد على فى إبرام اتفاقية مع الحلفاء تقضى بإخلاء الجيش المصرى لبلاد المورة على الشروط التى جاء فيها: «يتعهد محمد على بإعادة الأسرى اليونانيين وتحرير من بيع منهم فى مصر، و يتعهد الحلفاء بإرجاع الأسرى المصريين والسفن المصرية التى أسرت أثناء القتال أن يخلى الجنود المصريون المورة وينقلهم محمد على باشا على سفنه ألا يكره اليونانيين المقيمين فى مصر على الرحيل عنها ولا يجبروا على البقاء فيها، ويجوز لإبراهيم باشا أن يترك فى مورة عدداً من العساكر لا يزيد على ١٢٠٠ للمحافظة على مودن وكورون ونافارين وباتراس وكستل توريزة، أما المواقع الأخرى فتخلى فوراً».

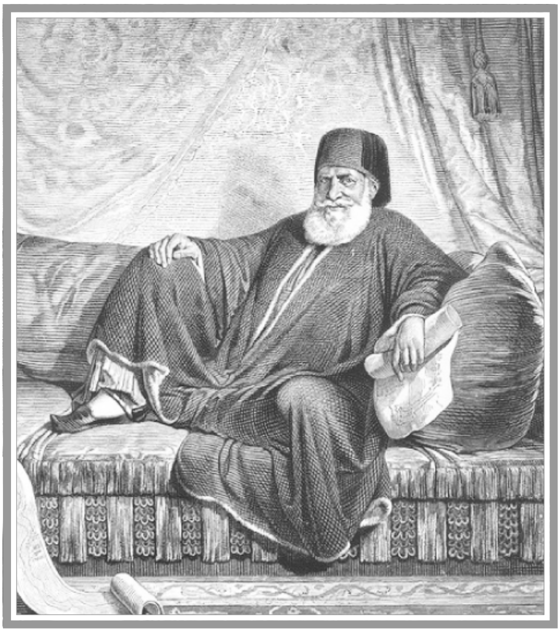
عودة الجيوش المصرية من أوروبا أكتوبر ١٨٢٨

لكن إبراهيم باشا المقاتل الشرس والبطل المغوار قابل هذه الشروط

بالسخط الشديد، لقد شعر أن جهوده وجهود الجيش المصرى ضاعت هباءً دون مقابل، لقد فقدت مصر فى هذه الحرب ما يقرب من ٣٠ ألفاً من المقاتلين، وتكلفت ما يقرب من ٧٧٥ ألف جنيه، وفقدت أسطولها الحربى فى نافارين، لكن إبراهيم كان وقبل كل شيء ابناً باراً وجندياً مخلصاً، فأذعن وأصدر أوامره بإخلاء المدن اليونانية والتحرك إلى الموانى والثغور المصرية، وكان ذلك فى أكتوبر عام ١٨٢٨ م، وبذلك طويت صفحة ناصعة من صفحات الحربية المصرية فى عهد محمد على.



الفصل الرابع عشر



الجيوش المصرية تهزم تركيا فى عقر دارها



الأمن القومى لمصر يبدأ من جبال طوروس شرقاً ثم الحدود السورية وينتهى عند منابع النيل فى الجنوب الأفريقى هكذا سيطرت مصر على الجزيرة العربية وعلى السودان ثم دخلت حرباً ضروساً فى أوروبا استجابة لنداء السلطان العثمانى الذى استجار بالقوات المصرية لنجدة القوات العثمانية التى اهتز موقفها فى أوروبا، وخرجت مصر من هذه الحرب منهكة القوة محبطة المعنويات، لقد خسرت مصر فى هذه الحرب أسطولها البحرى الذى تم تدميره فى نافارين، وخسرت كذلك ثلاثين ألفاً من خيرة جنودها، ناهيك عن الخسائر المادية التى بلغت ٧٧٥ ألفاً من الجنيهات، لكن ورغم ذلك كله، فقد خرجت مصر من هذه الحرب بحزمة من المكاسب المعنوية، أهمها إشادة العالم بكفاءة المقاتل المصرى وتطور العسكرية المصرية التى ضارعت الجيوش الأوروبية، وربما تفوقت عليها، وكان محمد على منذ عام ١٨١٠ يحلم بضم سوريا وبلاد الشام إلى الحكم المصرى حيث كان يرى أن سوريا ومصر يجب أن يكونا جزءاً واحداً لا تحده حدود ولا تحجزه حواجز، ورغم أن الظروف الداخلية والإقليمية والدولية لم تساعد محمد على فى إنفاذ مخططاته.. فإنها ظلت متأججة فى عقله وفكره إلى أن لاحت الفرصة...

يقول كلوت بك فى مذكراته: «إن ضم سورية إلى مصر كان ضرورياً لصيانة ممتلكات الباشا؛ فمنذ تقرر فى الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بأنه لا يمكن إدراك هذه الغاية إلا بضم سوريا إلى مصر، وقد رأينا فعلاً أن موقع البلاد الحربى لا يجعلها فى مأمن من الغزوات الخارجية خصوصاً عن طريق برزخ السويس.. فإذا

استثنينا غزوة الفاطميين المغاربة وغزوة الفرنسيين بقيادة بونابرت، نجد أن سائر الغزوات جاءت من طريق سوريا كغزوة الفرس فى عهد قمبيز وغزوة الإسكندر والفتح الإسلامى وغزوتى الأيوبيين والأتراك، وعلى ذلك لا يمكن الاطمئنان إلى بقاء مصر مستقلة إلا بإعطائها الحدود السورية لأن حدودها ليست فى السويس، بل فى طوروس " كانت الدوافع الاستراتيجية واضحة فى أسباب الحملة المصرية على سوريا، لكن لا يمكن أن يعلن محمد على أن حملته على سوريا لها دوافع استراتيجية، بل كانت الدوافع المعلنة تبدو سطحية إلى حد بعيد».

الأسباب المعلنة للحملة

هاجر العديد من المصريين إلى سوريا هرباً من الضرائب الباهظة أو تهرباً من إلحاقهم بالخدمة العسكرية فى جيوش محمد على، واستفحل الأمر وبلغ عدد المهاجرين المصريين إلى الأراضى السورية ستة آلاف مهاجر، وهو ما أشعر محمد على بالخطر إزاء هذه الظاهرة التى تمثل عائقاً لبرامج التنمية والتوسع فى مصر وممتلكاتها، فأرسل إلى عبدالله باشا والى سوريا يطلب إليه أن يرجع المهاجرين المصريين إلى بلادهم، لكن طلب محمد على قوبل بالرفض والاستهجان على اعتبار ان المصريين رعايا عثمانيون ولهم الحق فى أن ينتقلوا ويقيموا كيفما يشاءون، كان الرد صادماً لمحمد على، خاصة أنه سبق أن ساعد هذا الوالى المغرور وثبته فى ولايته بعدما كاد يعزله السلطان العثمانى، كما أمده بالمال لسداد التزاماته تجاه الباب العالى بيد أن الفرصة، قد جاءت إلى «محمد على» على طبق من ذهب فأرسل إلى عبدالله باشا العظم والى سوريا يقول له : «قادم إليك ولدنا إبراهيم ليعيد المهاجرين جميعا يزيدون واحداً.. هو عبدالله باشا ذاته!!

تجهيزات الحملة

أمر محمد على باشا بتجهيز القوات المصرية المتجهة إلى بلاد الشام وأصدر لهذا الغرض، الأوامر والتعليمات التالية:

● تعيين إبراهيم باشا قائداً للجيوش المصرية فى حروب الشام والأناضول، وتجهيز ٣٠ ألف مقاتل بالسلح والعتاد، و٦ آليات من المشاة و أربعة من الفرسان، و١٦ سفينة حربية و عدد ١٧ سفينة نقل، وتعيين الأميرال عثمان

نور الدين بك قائداً للأسطول والعمارات البحرية تحت قيادة إبراهيم باشا.

انطلاق الحملة

فى أكتوبر ١٨٣١ صدرت أوامر محمد على بانطلاق الحملة المصرية، وكانت التعليمات تقضى بأن يتم التحرك كما يلى :

- ينتقل إبراهيم باشا بحراً من الإسكندرية إلى يافا.

- تنتقل بقية القوات براً من العريش إلى الحدود السورية.. تحركت القوات من معسكرات الخانكة مروراً ببلبيس، فالقرين، فالصالحية، فقطية، فبئر العبد، فمسعودية، فالعريش حتى دخل الجيش حدود الشام.

الاستيلاء على خان يونس

تحرك الجيش من العريش بعد أن استراح بها يوماً وانطلقت القوات فى طريقها إلى سوريا واحتلت مدينة خان يونس دون مقاومة تذكر، ورحب الأهالى بالقوات المصرية.

الاستيلاء على غزة ويافا وحيفا

بعد الاستيلاء على خان يونس، تحركت القوات المصرية تجاه غزة فأخلوا الحاميات التركية واستولوا على المدينة، وفر الجنود العثمانيون أمام القوات المصرية، ثم تحرك الجيش تجاه يافا فاستولى عليها دونما مقاومة تذكر، ثم سارع الجيش إلى حيفا فاستولى عليها هى الأخرى وكان إبراهيم باشا قد وصل بحراً إلى حيفا، فالتقى القائد بجنوده، واتخذ إبراهيم باشا من حيفا قاعدة للانطلاق إلى داخل سورية.

حصار عكا..
والسيطرة على صيدا وصور وطرابلس وبيروت والقدس

قصد إبراهيم باشا إلى عكا، وهو يعلم مدى منعتها وصمودها منذ حملة نابليون على عكا، كان المصريون يعلمون جيداً مدى الأهمية الاستراتيجية لمدينة عكا، ويعرفون كذلك مدى صعوبة السيطرة على هذه المدينة لكن

إبراهيم باشا البطل المغوار فى شبه الجزيرة والسودان وأوروبا لا يعرف كلمة «مستحيل» ضرب إبراهيم باشا حصاراً حول عكا من ناحية البحر والبر، لكن الحصون المنيعة حول عكا وبسالة جنودها حالتا دون دخول المدينة، واستمر الحصار حول المدينة مدة ثلاثة أشهر، وأمر إبراهيم باشا حسن بك المانسترلى بقيادة بعض القوات للاستيلاء على المناطق المحيطة ونجح المانسترلى فى السيطرة على مدن صور وصيدا وبيروت وطرابلس والقدس دون مقاومة.

الجيش المصرى فى مواجهة تركيا

علمت تركيا بالحملات المصرية، فأرسلت إنذارا لمحمد على باشا بضرورة إيقاف القتال والانسحاب وفك الحصار، لكن محمد على أخذ يسوف، ويكسب فى الوقت، أصدر أوامره إلى ابنه إبراهيم باشا بضرورة تشديد الحصار لفتح عكا قبل دخول القوات التركية المعركة ومن ثم جردت تركيا جيشاً قوامه عشرون ألفاً من الجنود بقيادة عثمان باشا اللبيب، وتحركت القوات التركية نحو طرابلس مستغلة انشغال إبراهيم باشا بحصار عكا، عندما علم إبراهيم باشا بوصول القوات التركية إلى طرابلس سارع بالخروج لملاقاة الجيش التركى الذى يعلم عنه وعن تنظيماته وطرق إدارته الكثير خلال حرب المورة، فدارت معركة عنيفة كانت الغلبة فيها للجيش المصرى.

معركة الزَرافة بين الأتراك والمصريين

عندما علم القائد العثمانى بخروج إبراهيم باشا ترك طرابلس واتجه إلى حمص، وكان إبراهيم باشا قد توقف فى بعلبك لتنظيم صفوفه، ثم التقى الجيشان فى منطقة الزرافة، ودارت معركة طاحنة بين الجيش التركى الأكثر عدداً والجيش المصرى الأكثر تنظيماً، وكانت الغلبة للجيش المصرى نتيجة للخطط والتكتيكات الحربية التى وضعها إبراهيم باشا وكبير قادته سليمان باشا، وانتهت المعركة بفرار الأتراك وغرق الكثير منهم فى نهر العاصى.

فتح عكا

بعد أن انتصرت القوات المصرية فى معركة الزرافة وفرار الأتراك وقائدهم

إلى مدينة حماة، وحين علم إبراهيم باشا أن القائد العثمانى طلب المدد من تركيا استراح إلى أن المدد يحتاج إلى شهرين حتى يصل من تركيا إلى حماة، لذلك قرر إبراهيم باشا التوجه بكامل قواته إلى عكا لفتحها قبل ورود المدد إلى القائد العثمانى الموجود فى حماة.

ومن ثم تحركت القوات المصرية لمعاودة الحصار على عكا مدعومة بمساندة الدروز والموارنة والعرب الذين يؤيدون الجيش المصرى، وشدد الجيش المصرى حصاره وبدأ يرمى أسوارها بالمدافع حتى فتحت ثلاث ثغرات، واستطاع المصريون الدخول من ثغرتين، بينما استعصت الثالثة وواجهوا مقاومة شديدة فارتدوا إلى الوراء، لكن إبراهيم باشا سارع ووجه فرقة احتياطية إلى هذه الثغرة وتقدم الصفوف بنفسه شاهرا سيفه مما أثار الحمية فى قلوب المصريين واستطاع المصريون دخول المدينة مما اضطر عبد الله باشا إلى تسليم المدينة واستقبل إبراهيم باشا غريمه عبدالله باشا بالاحترام والتقدير ولكنها السياسة!!

قام إبراهيم باشا بإرسال عبدالله باشا أسيرا إلى والده محمد على باشا ليبر محمد على بوعده ووعيده السابق إلى عبدالله باشا «قادم لأعيد المهاجرين جميعاً يزيدون واحداً.. هو عبدالله باشا ذاته!! "

واستقبل محمد على غريمه عبدالله باشا فى ميناء الإسكندرية استقبال الضيف وأكرم مثواه.

فتح دمشق

غادر إبراهيم باشا عكا يوم ٩ يونيه ١٨٣٢ إلى دمشق على رأس جيش يقدر بـ١٨٠٠٠ جندى، وفور وصول القوات المصرية إلى مشارف دمشق وقعت مجموعة من المصادمات والمناوشات فر على إثرها حاكم دمشق إلى الشام، وخرج الأهالى يستقبلون إبراهيم باشا الذى استمرت إقامته بها ثمانية عشر يوما، نظم فيها العديد من الأمور الإدارية والمعيشية، وأنشأ ديوانا سمَّاه ديوان المشورة.

معركة حمص

انزعجت تركيا انزعاجاً شديداً بعد سقوط عكا وهزيمة قواتها فى

الزرافة فجردت جيشاً ضخماً مكوناً من ٦٠ ألفاً من المقاتلين، وخمساً وعشرين سفينة حربية وعهد بالقيادة إلى السر عسكر حسين باشا قاهر الانكشارية وتحركت القوات التركية فى مجموعات متفرقة وأيقن إبرهيم باشا أن القائد التركى ارتكب خطأ جسيماً بفصل مقدمة الجيش عن بقية أركانه وعلى إثر هذا الخطأ تحركت القوات المصرية والتقى الجيشان المصرى والتركى فى معركة من أشرس المعارك الحربية، لكن التفوق المصرى تكتيكيا وتنظيميا كان واضحا وخلال ثلاث ساعات من المعارك الطاحنة استطاع الجيش المصرى أن يقهر الجيش التركى قتل ٢٠٠٠ من جنوده المقاتلين وأسر نحو ٢٥٠٠ مقاتل واستطاع المصريون الاستيلاء على الكثير من المعدات والمدافع والأسلحة.

معركة بيلان

واصل الجيش المصرى زحفه المظفر فاحتل حماة وحلب، وجاءته قبائل ديار بكر وأورقا تعلن انصياعها لحكم محمد على وواصل إبراهيم باشا زحفه إلى حيث يعسكر عدوه التركى فى بيلان، وكان الجيش العثمانى كبيراً يضم أكثر من ٤٥ ألفاً من الجنود ويعززهم ١٦٠ مدفعاً، وكان قائده حسين باشا واتخذ الجيش التركى مواقعه على قمم الجبال وعسكر الجيش المصرى فى السهل تحت المضيق، ووضع إبراهيم باشا خطته العسكرية المحكمة وفقاً لما اقتضته الظروف الجغراقية وموازين القوى، كان إبراهيم باشا موفقا كالمعتاد، وحقق نصراً مظفراً بعد معارك دارت ثلاث ساعات فقد فيها الأتراك نحو ٢٥٠٠ مقاتل وتم أسر أكثر من ألفين من جنودهم.

احتلال الإسكندرونة واللاذقية وأنطاكية

فر الأتراك بعد موقعة بيلان طاردهم إبراهيم باشا حتى استولى على الإسكندرونة أكمل المسيرة حتى بياس فاستولى عليها كذلك وأسر نحو ١٩٠٠ جندى ثم أتم المسيرة واستولى أيضاً على أنطاكية واللاذقية والسويدية.

واقعة قونية وهزيمة الجيش التركى

تعتبر هذه الواقعة من أهم الوقائع الحربية فى تاريخ مصر العسكرى، فقد

وصلت طلائع الجيش التركى بقيادة رءوف باشا، وكان معظم جنود الأتراك من الجنود غير النظاميين وعلم إبراهيم باشا بذلك، فبدأ فى مناوشتهم ليتحقق من مبلغ قوتهم وقد استمرت المناوشات سجالاً بين الفريقين حتى تمكن الجيش المصرى من السيطرة على الموقف وهزم الجيش التركى شر هزيمة بعد معارك استمرت سبع ساعات، وتم أسر قائد الجيش التركى وقتل نحو ثلاثة آلاف من الجنود الأتراك، وأسر نحو ستة آلاف من الجنود الأتراك منهم ضباط وقادة.

نتائج هزيمة الجيوش التركية فى قونية

بعد هذه الانتصارات المصرية لجأت تركيا إلى إيقاف الجيوش لمصرية بكل السبل، ووسطت الدول الأوروبية، خاصة فرنسا، واستنجدت بروسيا من الناحية العسكرية وكان السلطان العثمانى يرغب فى إيقاف الحدود المصرية عند كريت وصيدا وعكا ونابلس وطرابلس والقدس، لكن محمد على كان يصر على ضم سوريا وولاية أدنة لتكون جبال طوروس هى الحدود الفاصلة بين مصر وتركيا.

الاستيلاء على كوتاهية والسيطرة على أزمير

تحركت الجيوش المصرية أثناء تلك المفاوضات واستولت على كوتاهية وأزمير التى تعتبر درة التاج العثمانى، وأصبح النفوذ المصرى ممتداً إلى أزمير، وعلى بعد فراسخ معدودة من الأستانة.

صلح كوتاهية

وافقت تركيا على مضض على طلبات محمد على رغماً عنها إذ كان عدم الموافقة يعنى ضياع الإمبراطورية العثمانية بالكامل.

موقعة نصيبين ١٨٣٩ ونتائجها

بعد كوتاهية بدأت تركيا تتحرش بالقوات المصرية على أمل استرداد مافقدته أمام الجيوش المصرية، فكانت موقعة نصيبين أضخم وأهم معركة فى تاريخ مصر الحربى، وقد دخلها الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا رداً على التحرشات التركية المستفزة، ودارت معركة من كبرى المعارك العسكرية

فى التاريخ وحقق الجيش المصرى حقق أعظم انتصاراته قاطبة، وقتل أكثر من خمسة آلاف تركى وأسر ما يزيد على ١٥ ألف تركى، واستولى على أكثر من ٢٠ ألف بندقية وأكثر من ستة ملايين فرنك كان الانتصار عظيما للجيش المصرى وكانت الهزيمة التركية قاسية.

مؤتمر لندن وضياع الحلم المصرى

كان الانتصار المصرى عظيماً لدرجة أقلقت أوروبا وأيقن الأوربيون أن مارداً مصرياً يجب أن يتم إيقافه عند حدوده التى تحقق مصالح أوروبا، لقد دخلت مصر منظومة ومعادلة الأمن الأوروبية بعد «نصيبين» وكانت الدول الأوروبية ترى أن معادلة الأمن الأوربية تتطلب الإبقاء على الرجل المريض دون تقسيم، وكان هذا الرجل المريض هو «تركيا» ففرض الأوربيون شروطهم، وخرجت مصر بعد معاهدة لندن خالية الوفاض، وانتهى الحلم المصرى بعد «نصيبين» رغم خروج مصر منتصرة، وهذا لم يحدث على مر التاريخ إلا فى هذه الحالة، أن يخرج المنتصر من المعادلة ويدخل المهزوم، لقد كان انتصار نصيبين انتصاراً حربياً مجيداً وهزيمة سياسية نكراء.



النهاية

أخيراً قارب قطار العمر أن يصل إلى محطته النهائية، وصل محمد على باشا إلى محطة " الثمانين " تلك المحطة الخطيرة فى حياة بنى الإنسان، لكى لا يعلم من بعد علم شيئا، حتى فى هذه السن كان صاحب العينين الزرقاوين يعطى المثل والقدوة، لقد اجتمع محمد على بأركان نظامه، وهم أعضاء مجلس المشورة عند بلوغه سن الثمانين، وكما نشرت جريدة الوقائع المصرية فى عام ١٨٤٦ ذلك الحوار التاريخى الذى نورد أجزاء منه للمثل والعبرة» : إذا كنت آمراً أحدكم شفاها أو تحريرا بقولى له، أجر هذه المادة الفلانية بهذه الصورة وحصل منه اعتراض علىَ وذكرنى وأفادنى شفاها أو تحريراً بأن المادة المذكورة مضرة فهذا يكون منه عين ممنونيتى الزائدة، وأنا مرخص لكم فى ذلك الرخصة التامة المرة بعد المرة.. ولتعلموا أنكم إذا لم تحولوا عن خصالكم القديمة من الآن وصاعداً ولم ترجعوا عن طرق المداراة والمماشاة، ولم تقولوا الحق فى كل شئ، ولم تجتهدوا فى طريق الاستواء، ولم تسلكوا سبيل الصواب لصيانة ذات المصلحة، فلابد لى من أن أغتاظ منكم جميعا، ولما كنت موقناً بتقدم هذا الوطن العزيز على أى صورة كانت، وملتزماً فريضته على، صرت مجبوراً على قهر كل من لم يسلك هذا الطريق المستقيم اضطراراً مع حرقة كبدى وسيل الدموع من عينى..

●● وماذا بقى من محمد على ؟!

لقد اعتلت صحة محمد على بعد الثمانين إلى الدرجة التى لم يعد فيها قادراً على القيام بواجبات الحكم وأعبائه ثمانين عاماً من العمل والكفاح والجهاد والحروب والمعارك والمؤامرات والدسائس.. انتصارات وانكسارات..

منذ كان طفلاً يتيماً إلى أن صار جندياً شجاعاً فتاجراً للتبغ وزوجاً وأباً وضابطاً عثمانياً على ضفاف النيل، فوالياً على مصر، حيث توسعت إمبراطوريته لتشمل مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام والسودان وقبرص وأجزاءً من تركيا واليونان.. رحلة طويلة وشاقة فقد فيها معظم أبناءه وبناته، وهو على قيد الحياة، إذ مات طوسون بعد عودته ظافراً من حرب الحجاز، ومات إسماعيل وهو فى ريعان شبابه أثناء فتوحات السودان، ومات إبراهيم أقرب أبنائه إلى قلبه، دون أن يتجاوز الستين مات قبل والده بعام تقريباً وأيضاً ماتت توحيدة كبرى بناته وأقربهن إلى قلبه وقبلها ماتت زوجته أمينة هانم، لقد عاش الرجل حياة قاسية، لكنه خلف وراءه دولة عظيمة.. **فما أحوجنا الآن إلى مطالعة هذه النماذج العظيمة لنستخلص منها الدروس والعبر، لقد نجح " محمد على " كثيراً لكن يكمن نجاحه الأعظم فى استنهاض همم المصريين العظماء لقد نجح الرجل فى تحويل هذه "الهمم " إلى " حمم " لا يستطيع كائن من كان أن يقف أمامها.**

مراجع الكتاب

١ـ عبدالرحمن بن حسن الجبرتى. «تاريخ الجبرتى».
٢ـ رفاعة رافع الطهطاوى «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز».
٣ ـ عبدالرحمن الرافعى «عصر محمد على».
٤ ـ نيفين يسرى. «قسمة».
٥ ـ عبدالرحمن الرافعى «تاريخ الحركة القومية».
٦ ـ د. حسام غنيم. «مصر من أول السطر».
٧ ـ صوفيا لين بول «حريم محمد على».
٨ ـ لويزا مولباخ «الفرعون الأخير».
٩ ـ د. محمد عبد الستار البدرى «المواجهة المصرية الأوربية».
١٠ ـ بكر محمد إبراهيم «الدولة العثمانية».
١١ـ نشأت الديهى «مصطفى كامل: شاب من مصر».
١٢ ـ مؤمن المحمدى «الباشا».
١٣ ـ د. رأفت غنيمى وآخرون «تاريخ مصر الحديث».
١٤ـ موقع «محيط».
١٥ ـ موقع «إسلام أون لاين».
١٦ ـ موقع «ذاكرة مصر المعاصرة».
١٧ ـ جداريات المتحف الحربى بالقلعة.
١٨ ـ موقع «ويكبيديا الموسوعة الحرة».
١٩ ـ جريدة الوقائع المصرية، العدد ١٨٤٦.
٢٠ ـ موقع مكتبة الإسكندرية.

الفهرس



كتاب الجمهورية

محمد على باشا .. بدايات قاسية ومجد عظيم

نشـــأت الديهـــى



هذا الكتاب

محاولة لاستنهاض الهمم واستنفار القوى الكامنة لهذا الشعب العظيم من خلال فهم أعمق لتجربة محمد على باشا فى بناء مصر الحديثة بعد فترة ركود طويلة عاشتها مصر فى كنف المماليك والعثمانيين.. وهو أيضاً محاولة لاستجلاء حقائق التاريخ المضىء لهذه الأمة العريقة، ليس عزفاً على أوتار الماضى بل ومضة مضيئة تتطلبها اللحظة الراهنة لبعث الآمال والطموحات فى أوصال هذه الأجيال التى لا تعرف من تاريخها سوى النزر اليسير.

لقد آن لنا أن نعيد قراءة التاريخ المصرى من جديد بحياد وموضوعية، فوقائع التاريخ ليست قصصاً وروايات تخضع للرؤى والتوجهات، بل التاريخ كائن حى، وما أحوجنا إلى بعث هذا الكائن من مرقده ونحن نرفع رايات بث الأمل فى نفوس الشباب والأجيال الحاضرة.

(كتاب الجمهورية)

الثمـن ١٥ جنيهـاً